

وزارة المعارف العمومية

المكافاة

لأبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب

نصحه وضبطه وشرحه

على الجارم بك

أحمد أمين

الطبعة الأولى

حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة

توزعت وزارة المعارف هذا الكتاب لقراءة طلاب
السنة التوجيهية بالمدارس الثانوية

القاهرة
طبع بالطبعة الأميرية ببوراق

١٩٤١

مكتبة الدكتور دوان الخطيب

تقديم

أحمد بن يوسف مؤلف هذا الكتاب كان أحد كتّاب الدولة الطولونية التي حكمت مصر من (٥٢٥٤-٥٢٩٢هـ) بعد أن اقتطعتها من الدولة العباسية. وكان مؤسسها أحمد بن طولون ذا عقل جبار، ورأى مسدّد، وضع لها نظمها الماليّة والسياسية على أساس متين، ورتّب خراجها، ونظّم ربيّها، وحدّد ضرائبها، ولم تحفّ عليه محاولة العباسيين استرجاعها، ودسّ الدسائس في إثارة أهلها. فكان يأخذ بالظنّة، ويعاقب بالريبة، ويخشي من لهم اتصال برجال الدولة العباسية، ويعمل على الفتك بهم ومصادرة أموالهم.

وكان أصل أحمد بن يوسف من العراق. رحل أبوه إلى مصر بعد أن خدم مولاة إبراهيم بن المهديّ، ولازمه حتى مات، فانتقل إلى مصر، واشتغل فيها بالعلم والأدب والمال. ولكنّ اتصاله القديم البيت العباسيّ جعل ابن طولون لا يركن إليه، ولا يأمن شرّه. لذلك يرى في تاريخه، أنّ أحمد بن طولون قد حبسه وكاد يقتله لولا شفاعته

أتباعه^(١) . ولما مات يوسفُ أمر ابن طولون أعوانه فهجموا على داره، وحملوا صندوقين من أوراقه، مقدّرين أن يجدوا فيها شيئاً يدلُّ على صلةٍ له بمن ببغداد^(٢) .

ونشأ ابن مؤلف هذا الكتاب على نمط أبيه : فهو مثقف ثقافة واسعة ، وهو كاتب كما يدلُّ عليه كتابه هذا ، وهو شاعر يُنقل ديوان شعره إلى العراق^(٣) ، وهو عالم بالحساب والهندسة والفلك ، كما تدلُّ عليه ترجمة ”ياقوت“ له ، وهو آخذ بمحظ من الفلسفة كما يظهر ذلك في ثنايا كتبه .

ولم يكن أحمد بن يوسف من هؤلاء الأدباء والعلماء الذين ينقطعون لأدبهم وعلهم ، ويعتمدون في ذلك على ما يمنحهم الولاية والأمراء من منح ، أو يتزهدون فيكتفون بما لهم من عقار يُغلُّ عليهم بعض المال . إنما كان كأبيه ، ينغمس في الدنيا وفي الحياة الواقعة ، ويصرف جزءاً من وقته في تدبير المال والقيام عليه وإتمامه ،

(١) انظر القصة الثالثة عشرة .

(٢) انظر القصة الخامسة .

(٣) انظر القصة الثالثة والعشرين .

كان أبوه يدبر أموال إبراهيم بن المهديّ ويقوم على أراضيه ،
 فاكسب بذلك خبرة مالية كبيرة، فلما جاء إلى مصر استخدم مقدرته
 المالية، فاستغلّ بعض الأراضي المصريّة من الدولة الطولونيّة: ويتقبّل
 الأرض (يلتزمها) ويستأجرها . وأحيانا يملكها ويزرعها ويتاجر
 في محصولاتها . ونحا ابنه (مؤلف كتابنا) منحاه، فكان أديبا عالما ماليا
 معا ، يؤلّف الكتب ، ويقول الشعر ، ويستغلّ الأرض .

والمهارة الماليّة التي من هذا القبيل كان لها مزايا وكان لها مضار ،
 فأهم مزاياها : أنّ صاحبها ينغمس في غمار الناس فيعرف حياتهم ،
 وتفصيل سلوكهم ، ونوع عقليّتهم ، ويخبرُ الدنيا خبرة تامة . وأهمّ
 مضارّها: أنّها كانت تعرّض صاحبها في كثير من الأحيان إلى الأهوال
 والأخطار، فلم تكن الحكومات في ذلك العصر قائمة على ما نعرف من
 العدل وحفظ الأمن على المال والنفس ، بل كانت المعاملات
 وخاصّة ما اتصل منها بالحكومات عرضة للظلم والفساد . فكثرت
 المصادرات ، وكثر قتل الأنفس للاستيلاء على الأموال إلى غير ذلك
 من ضروب العسف. وتقرأ تاريخ مصر وتاريخ العراق في ذلك العصر ،
 فترى اضطرابا وفسادا من هذه الناحية لا حدّ له، وقلّما تقرأ سنة من سني
 التاريخ في تلك الأيام من غير أن يُسجّل فيها ظلم بين وشرة بين .

(و)

وكلا الأمرين ينجبى في حياة أحمد بن يوسف: عارفٌ بالدنيا خبير
بشئونها ، معترض من حين لآخر لمصادرة أمواله ، وضياع ثروته ،
لولا احتمال بوالٍ أو أمير ، أو مكافأة على جميل .

في وسط هذه المظالم الفتاكة والمفاسد المنتشرة ، كانت تصدر من
بعض أشخاص نبلاء أعمال نبيلة تلمع في هذا الجحوظ الحالك ، وتخفف
على الناس ويلاّتهم ومصائبهم ، وعلى قدر هذه الشدائد ، تكون
الإشادة بالحماد . ففقر العرب في الجاهلية ، وبؤس أهلها ، جعل الكرم
يحلُّ أسمى مكان بين الفضائل ، فامتلاء أديهم بالتمدح بالكرم ، وإطعام
الطعام ، ونحر الجزر ، وقرى الضيفان وما إلى ذلك .

وفي عصر مؤلفنا هذا ، كانوا يتشوّفون في ظلام الظلم إلى الأنوار
القليلة المضيئة من أعمال النبل : كإغاثة ملهوف ، ونجدة بأس ، وإعزاز
كريم ذلّ ، وإمداد غنى افتقر .

وقد كان أحمد بن يوسف وأبوه يوسف بن إبراهيم ممتازين من
هذه الناحية ، كلاهما مع غناه وثورته ذومروءة ونجدة ، يشعر أنّ المال
غادٍ وراح ، وأنّ المرء عرضة في كل وقت للفقر ، فلا بدّ من أن
يتسلّح بالمروءة ، ينقذ بها البأس من بؤسه ، لعله يكون يوماً في مثل

حالته ، فيجد من ينجده . فيحدثنا ”ياقوت“ عن يوسف بن إبراهيم أنه ”كان ذا مروءة تامة“ وتدّل بعض القصص في هذا الكتاب على أنه كان له أتباع يتعصبون له ويفدونهم بأنفسهم، لما يسديه إليهم من خير، ويقدم لهم من معروف، وابنه أحمد بن يوسف نفسه كان كذلك كريما نبيلاً . يحدث - مثلا - أنه رأى تاجرا كسر مركبه وغرق فيها ما يملكه، فيواسيه أحمد بن يوسف ويبتّ من يغوص على مركبه ليستخرجوا ما فيه، ثم يعوّضه عما فقده بنفسه وبرجاله .^(١) ومثل هذا في الكتاب كثير .

رجل مثل هذا جدير بأن ينمو عنده الشعور بالإحسان، وأن يُرهف حسّه لأعمال المروءة، وأن يدعو ذلك لأن يفكر في قصص النبيل وحسن المكافأة .

وقد علّل ذلك تعليلا بديعا في أول كتابه، فذكر أنّ الناس سلكوا لاستدرار المال من الممدوحين سبيل التنويه بذكر الكرماء وما منحوا، والعطاء وما أعطوا، وحثّوهم من طريق خفيّ على أن يعملوا عملهم ويعطوا عطاءهم. ولم يستحسن أحمد بن يوسف ذلك. ورأى أنّ خيرا منه، أن يشاد بذكر من أحسن إليهم، فكافئوا بالإحسان إحسانا فإنّ

(١) انظر القصة الثالثة عشرة .

(ح)

هذا أدعى إلى الكرم . وأبعث على المحاكاة . ولا شك أن هذا في مسالك النفس أفعال ، لأنه يفهم الكريم من طريق خفي كذلك - أن في ذلك نفعه الشخصي فإنه سيلقى جزاء ما يقدمه من خير مهما كان قويا ، ومهما كان المحسن إليه ضعيفا . بل طلب في خاتمة الكتاب أن يبلغ المكافئ مبلغا من السموّ لا ينتظر معه مكافأة ولا جزاء ، فيكفيه شعوره الجميل بأن له ديونا يتحمّلها خيار الناس ولو لم يؤدوها .

وقد قصّ علينا في هذا الباب إحدى وثلاثين قصة ، وقع بعضها في مصر في عهد المؤلف ، وبعضها في غير عهده ، وبعضها في الشام ، وبعضها في العراق ، إلى غير ذلك . وقد جمعها كلّها حول محور واحد : هو حسن الصنيع بالمكافأة على الجميل بالجميل .

ثم أتبع ذلك بقسم آخر عنوانه "المكافأة على القبيح" وهو يتضمن إحدى وعشرين قصة تدور حول مكافأة القبيح بالقبيح . وهو مكمّل للقسم الأول . فإذا كان القسم الأول يستحثّ الإنسان على فعل الخير توقعا للمجازاة بالخير ، فالقسم الثاني يحذّر من فعل الشرّ خوفا من سوء المجازاة بالشرّ .

أمّا القسم الثالث فاسمه "حسن العقبى" ويشتمل على تسع عشرة قصة . وهى كالمكملة للقسمين الأولين . فانها تدور حول من وقع فى شدة ثم خلص منها ، وكان عرضة لضياح ماله أو فقدان نفسه فرد إليه ماله ، ووهبت له نفسه ، كما كان أو خيرا مما كان .

هذه إحدى وسبعون قصة فى هذا الكتاب موزعة على ثلاثة أبواب ، كلها تدعو إلى الخير وتنفر من الشر .

ولهذا الكتاب قيمة كبيرة أدبية وأخلاقية وتاريخية .

فأما الأدبية ففى أسلوب المؤلف فى عرض القصة . فهو أسلوب جزل رصين ، يحكم التعبير عن المعنى فى أوجز عبارة وأمنها وأقواها ، تجدد فى كل قصة جملا تستوقف النظر ، سواء من ناحية جزالة لفظها أو قوة معناها . حتى لو شاء معبر أن يؤدى غرضها لاستوجب منه ذلك أضعاف ألفاظها ، أنظر مثلا إلى قوله فى القصة الثالثة : "أيحسن بشيخ مثلى أن يترجح فى المعروف ؟" وقوله : "إن عارا ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف" . وقوله فى القصة الثانية والعشرين : "استصنى ماله بالسوط وعظيم الإخافة" وفى القصة السادسة والعشرين : "تسلمت منه قوما تشهد لهم القلوب

بالفضل فإنت وحشتهم ، وفسحت رجاءهم “ وهكذا في كل قصة نجد بدائع يحسن الوقوف عندها وتذوقها وترديد الإعجاب بها . لم يقصد فيه مؤلفه إلى سجع ولا إلى توشية بأنواع من البديع ، وإنما قصد أن يؤدي المعنى من أوجز طريق وأيسره ، فكان ذلك محمداً الكتاب ، إذ لم يصرف الناظر عن المعنى الجميل باللفظ المزوق .

قد يؤخذ عليه أنه إذا عرض للقصص أوضح في أسلوبه وأبان . وأما إذا خرج عن القصص غمض واعتراه شيء من الخفاء ، كما ترى في مقدمة الكتاب وخاتمته وآخر القسم الأول منه . ولعل عذره في ذلك ، أنه يعتمد إلى معان فلسفية وشرح حالات نفسية يعالجها على نمط الفلاسفة إذ كان متأثراً بهم ، مثقفاً ثقافتهم ، فهو إذا تفلسف غمض ، وإذا تأدب وضع .

وأما ناحيته الأخلاقية ، فقد التزم في الكتاب عرض قصص تدل على النبيل والمروءة ، وعلى مجازاة الحسن بالحسن ، والقبیح بالقبیح . والحث على الصبر عند الشدائد ، فإنها ستنتفج لالمحالة . وهذا ضرب من ضروب التعليم بالمثل ، جرى عليه كثير من مؤلفي العرب والفرنج ، كما ترى في هذا الكتاب وكتاب “ المستجاد من فعل الأجواد ” وكتب سميلز بالانجليزية ونحوها .

(ك)

ومزية هذا الكتاب أنّ موضوعه خلقى معروض العرض الأدبى ،
فهو رائع فى شكله ، رائع فى جوهره . تُعجّب عند قراءة كلّ
قصة بمغزاها ومبناها معا .

وأما الناحية التاريخية للكتاب ، فقيمة من ناحية أنّ فيه قصصا
تاريخية توضّح بعض ما جاء فى كتب التاريخ . وقصصا مصرية
طولونية ، تدلّ على نواح كثيرة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية
فى مصر فى ذلك العصر ، هذا إلى ماله من قيمة فى تاريخ الأدب
فالكتاب عظيم القيمة من ناحية دلالاته على الأسلوب الأدبى فى العصر
الطولونى . وعلى ما كان يستعمل من عبارات مصرية أدبية هجر
بعضها وبقي بعضها ، فأنت ترى فيه كثرة شيوع الاستفهام من غير
أدوات الاستفهام ، كما هو الشائع فى مصر الآن . وواجد فيه التعبير
براءة الساحة كما نعبر اليوم ، كما أنه يعبرّ تعبيرات غير مألوّفة
فى أسلوبنا اليوم كقوله ” واستدعى الواحد بعد الواحد من أسباب
الطولونية ” يريد عمّالها . وهكذا فى الكتاب مجال فسيح لهذا النوع من
البحث فى التاريخ الأدبى .

(ل)

وكان الكتاب - مع الأسف - قد وصل إلينا مملوءا بالتحريف
والأخطاء، فبذل بعض من تقدمونا الجهد في تصحيح بعضها، وبذلنا
نحن جهدنا في تصحيح بعضها، وأعنا القارئ بتفسير غامضه
والتعريف برجاله . والله المسئول أن ينفع به .

أحمد أمين على الجارم

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

أخبرنا أبو محمد عبد الله الفرغاني . قراءة مني عليه . قال : أخبرنا أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب^(١) ، قراءة مني عليه . قال :

سدّد الله فُكْرَكَ ، وأحسن أمرَكَ ، وكفّك مُهَمَّكَ . إنّ أشدّ على الممتحن من محنته ، عدوله في سعيه عن مصلحته ، وتكبّه الصواب في بُغيته ، ولكلّ وجهة من الجذوى ما يُستنزَلُ به عوائدها^(٢) ، ويقرب معه ما استُصعب منها ، يستثيره حسن الرويّة ، [ويقرب إليه] صالح التوفيق .

(١) هو أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم . كان يلقب بابن الداية لأن أباه كان ولد داية ابن المهديّ ،

وقد عرف أحمد بالأدب والطبّ والحساب ، وألّف سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه نمارويه .

ومات بعيد سنة ٣٣٠ هـ .

(٢) العوائد . جمع عائدة : المنفعة .

وقد رأيتك لا تزيد من رَغِبْتِ^(١) إليه فيما تحدوه على بِرِّكَ ، وتحثه لما أغفل من أمرِكَ ، على نصِّ مكارِمِ مَنْ سلف . وترى أنه يَهْشُ^(٢) إلى مساجلتهم^(٣) ، فلا تبلغُ في هذا أكثرَ من إحرازِ الفضيلةِ للِرغوبِ إليه ، ولا توجدُ في الراغب^(٤) فضيلةٌ تحثه^(٥) على شفيحِ قصده^(٦) . ولو عدلتَ عن مكارِمِ مَنْ رُغِبَ إليه ، إلى حُسْنِ مكافأةٍ من أُنعمَ عليه ، لكانت لك ذرائعٌ يمتُّ بها الراغبُ ، ويوجدُ المرغوبَ إليه سبيلاً^(٧) إلى الإنعامِ ، ويفسحُ أمله في مُواترة^(٨) الإحسانِ . ولم يُؤتَ الجودُ من مائتٍ هو أغمضُ من مغادرةِ حُسْنِ المكافأةِ . ولو أنعمتَ النظرَ فيها^(٩) لوجدتها أقوى الأسبابِ في منع

(١) من رَغِبْتِ إليه : من توجهت إليه نفسك طمعا في إحسانه ومعروفه .

(٢) هَشَّ : (من بابي ضرب وفتح) نشط وخف وارتاح .

(٣) المساجلة : المباراة والمفاخرة .

(٤) الراغب : طالب البرِّ والمعروف .

(٥) تحثه : ضمير المفعول يعود إلى المرغوب إليه .

(٦) على شفيحِ قصده : على حقِّ المرغوب إليه في المكافأة الذي يشفع لما

يقصد إليه من الإحسان والبر .

(٧) أوجد فلانا الشيء : أظفره به .

(٨) مواترة : متابعة .

(٩) فيها : الضمير يعود على مغادرة حُسْنِ المكافأة .

القاصد^(١) ، وحيرة الطالب. ولو كانت توجد^(٢) مع كل فعل استحققتها ،
لأثر الناس قاصديهم على أنفسهم ، ولجروا على السنن المأثورة عنهم .

[وإني أثبت] في هذه الرسالة أخباراً في المكافأة على الحسن
والقبيح تنعم^(٣) الخاطر ، وتقرّب بغيّة الراغب ، مما سمعناه ممن
تقدمنا ، وشاهدناه بعصرنا ، وبالله التوفيق .

(١) القاصد : قاصد البر ومريده ، ومنعه : رفض إعطائه .

(٢) توجد : أى المكافأة .

(٣) تنعم الخاطر : تريح النفس وتمتعها .

المكافأة على الحسن

حدثني أبو محمد يحيى بن الفضل ، عن عبد العزيز بن خالد الأموي .
عن أبيه خالد . قال :

أخبرني محارب بن سلمة . كاتب خالد القسري^(١) :
أن ديوانبان^(٢) خالد أخرج من ديوانه وثيقة على بعض
المتضمنين^(٣) ، فدفعها إليه ببرّ تعجله منه^(٤) ، فدعا به خالد وأمر

(١) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسيد القسري ، نسبة إلى قسر بن عبقر ،
بطن من بجيلة . ولي خالد العراقي لهشام بن عبد الملك . وكانت أمه نصرانية .
وكان معدودا من خطباء العرب وأجوادهم . مات مقتولا سنة ست وعشرين
ومائة بالحيرة .

(٢) ديوانبان : النائم بثون الديوان . وكلمة "بان" بالفارسية معناها : القائم
على الشيء المشرف عليه . ومن أمثال الديوانبان : الدربان للبواب ، والديديان
للحارس . وفي الأصل "الديوانيان" بالياء .

(٣) المتضمنين : تضمن المال عن فلان : التزم دفعه عنه ، فالمتضمن :
الضامن .

(٤) دفع الديواني للضامن الوثيقة التي تثبت الضمان ، لأن الضامن كان
قد عجل إلى الديواني برّا وأسدى إليه معروفا .

بقطع يده بين يديه . فقال له : استبقني (أصلح الله الأمير^(١)) .
فقال : وما يكون من مثلك ؟ فقال له : إن لم يُقدَّر في الزمان رفعتي إلى
منزلةك فلا تأمنه على حطك إلى منزلتى ، فيكون منى ما تحمده . فقال
خالد : أطلقوه ففيه عظيم^(٢) !

فلم يمضِ حَوْلٌ حتى ورد العراقَ يوسف^(٣) بنُ عمر متولياً
لعمله ، فخبسه في جُجرة من ديوانه ، ووَكَّلَ بباب الحجرِ جماعةً ،
فندسَّسَ الديوانبانُ حتى دخل في جملتهم ، وتلطف للجماعة حتى
رأسها^(٤) بالخبرة وحسنِ المداخلة . وتحرم^(٥) خالدٌ طعامَ يوسفَ

(١) تتضمن العبارة ما يعود على الأمير من الخير إذا استبقاه ولم يماقبه ،
بدليل سؤال خالد التالى .

(٢) ففيه : أى فى مسكه خلق عظيم أو روح عظيم .

(٣) هو أبو يعقوب يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود
الثقفى . ولى الين لهشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ ، ثم تولى العراق سنة ١٢٠ بعد
خالد بن عبد الله القسرى ، ومات فى السجن سنة ١٢٦

(٤) رأسها . عظم شأنه فيها .

(٥) تحرم من الشيء بجرمة : تمنع ، وقد ضمن الفعل معنى تجنب .

ابن عمر ، خوفاً من أن يكون مسموماً فطوى^(١) ، وتأمل^(٢) في ذلك الديوانبان ، فجعل في منديل نظيف ما يكف جوعته من طعام قد تأتق فيه ، ودخل إليه كالمتجسس عن حاله ، فقال له : أنا الديوانبان الذى عفوت عنه ، وهذا طعام تأمن فيه ما تخافه فى غرة . فأقام أياماً يأتيه من طرائف الأطعمة والفواكه ما ينسى به وحشته ، ويكف فاقته ، ثم دخل إليه فقال : ليس هذا الذى أفعله مقدار ما يقتضيه إحسانك إلى ، وقد استأجرت الدار التى فى هذه الحجرة^(٣) ، وأحضرت قوما أثق بهم من حذاق النقاين حتى نقبت سرباً^(٤) إلى موضعك ، ولم يبق إلا أن تركض^(٥) بعض بلاط هذا المجلس ركضةً فتفضى إلى السرب . وقد أعددت فى الدار نجيين ، أحدهما لك والآخر لى . فلما صلى الديوانبان العصر أغلق الباب ومضى إلى الموضع المكترى . وركض خالد الموضع وخرج من

(١) طوى (كرمى) وأطوى فهو طاو وطوٍ وطيان ، فان تعمد ذلك فطوى (كرمى) وهى طياً وطاوية .

(٢) تأمل : فكر ملياً . وفى الأصل : تأمل من .

(٣) الحجرة : الناحية .

(٤) السرب : الحفير تحت الأرض .

(٥) الركض : الدفع بالرجل .

السَّرب ، وربكائنجييهما، وحنًا المسيرَ ، فما فُظِنَ بخالد إلا في غد ذلك
اليوم ، فطلبتَه الخيلُ والنُّجُبُ فقاتها . ولم يزل يُوضَعُ^(١) في البلاد
حتى لحِقَ مَسَلَمَةَ بنَ عبد الملك^(٢) ، فشفعَ له إلى هشام^(٣) وردّه إلى عمله .

*
**

وحدّثني هارونُ بنُ مَلُولٍ^(٤) قال :

كنت عند أحمد بن خالد الصّرينيّ (وهو يتولّى الخراج بمصر)
ووجوهها عنده . وقد أكبَّ على حاصل ما استُخرج في أمسه ، وهو

(١) أوضع : أسرع في السير .

(٢) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، يكنى بأبي شاكرا ، حارب
يزيد بن المهلب ، وولى العراق بعد قتل يزيد سنة ١٠٢ ، ثم عزله أخوه عنها بإغراء
حاسده . وقد تمت على يديه فتوح كثيرة . ومات في عهد الوليد بن يزيد .

(٣) هو هشام بن عبد الملك . بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بن عبد الملك
في شوال سنة ١٠٥ هـ . وكان هشام شديدا قاسيا وسياسيا ماهرا ، يجمع الأموال
ويستجيد الخيل ، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف
فرس . وكان أحد سواس بني أمية الثلاثة وهم : معاوية وعبد الملك وهشام .
توفي بالرصافة سنة ١٢٥ هـ . وهو ابن ثلاث وخمسين سنة .

(٤) كان من كبار التجار وأصحاب الأموال في عهد أحمد بن طولون . روى

عنه المؤلف في هذا الكتاب عدة أخبار .

يُقابِل به ثَبَّتَ^(١) المِصَادِرَةَ^(٢) . فقال لصاحب حمالته^(٣) : ما أرى
اسمَ فلانٍ المتضمَّنِ في هذا الحاصل^(٤) ، وقد صادَرنا^(٥) بالأمس على
خمسمائة دينار ! فقال : ما صحَّ له شيء^(٦) . فقال : أبعث إليه من
يسحبه صاغراً حتى يحمّله على خُطَّةِ المطالبة^(٧) . فقال له رجل من
المتضمَّنين يُعرفُ بما شاء الله بنِ مرزوق : الخِمْسَمائةِ (أيدك الله) تصحُّ
لهذا الرجل في هذه العشيَّة (إن شاء الله) إن أُعْنيَ ممَّا قد أمرتَ به
فيه . فقال^(٨) : هي عليك ؟ فقال : نعم . فتقدّم إلى صاحب الحمالة
ألا يعرضَ له . فالتفت إلى^(٩) ما شاء الله فقال : تعرف هذا
الرجل ؟ فقلتُ : نعم ، ومن العَجَبِ ألا نعرفه . فقال : يا أحمى !

(١) الثبت : في اصطلاح كُتَّاب ذلك العهد : الدفتر .

(٢) المصادرة ، صادره على كذا : طالبه به .

(٣) الحمالة بالفتح : الكفالة ، وصاحب الحمالة هو الذي تكفل بجمع الخراج .

(٤) في هذا الحاصل : أى في القائمة التي يقرؤها ، وقد جمعت أسماء من

دفعوا الخراج ومقدار ما دفع .

(٥) صادَرنا : فارقتنا متفقاً معنا .

(٦) ما صحَّ له شيء : لم يتيسر له الحصول على شيء من المال .

(٧) يقول : حتى يحشمه مشقة طريقة المطالبة من العنف والإذلال .

(٨) فقال : أى أحمد بن خالد .

(٩) إلى : إلى هارون بن ملول .

أمر^(١) في رجلٍ يجري مجرانا في معاشنا بما لم أطق والله احتماله ،
وعندي ضعف ما طُوب به ، وكانت صيانتُه أحبَّ إليَّ مما حويته .
فإذا لقيته فعرفه أتى أوردُ المالَ عنه لئلا يُوردَ المالَ مُضعفا .
وانصرفت^(٢) من مجلس أحمد بن خالد ؛ فلقيتُ الرجلَ في طريق ،
وهو محدود^(٣) ، فسألته عن خبره وأخبرته الخبر . فقال :
يا أحمى ! وما في هذا من الفرج ؟ إنما انتقلتُ من غمٍّ إلى رِقٍّ !! ومتى
أقضى إلى هذا الرجلِ إحسانه إليَّ ؟ والله لوددتُ أن أمرَ السلطانِ
نَفَذَ فيَّ ، ولم أتحملْ هذه العارفةَ منه .

قال أحمد بن يوسف : فقال لي هارون : وحضرتُ [بيت]
ما شاء الله بنِ مرزوق بعد هذا بأربع سنين في الوقت الذي تُوِّفِّيَ
فيه ، فاتفق أن كان إلى جانبي رجلٌ قد ألقى بعضَ رِدائه على وجهه
وهو يعجُّ^(٤) بالبكاء والشهيق . ثم كشف وجهه فكان الرجلَ الذي
أورد ما شاء الله عنه الخَمْسَ مائةَ دينار . فقال : من الوصيُّ من

(١) أمر : أي أحمد بن خالد ، ويصح أن تقرأ بالبناء للمفعول .

(٢) وانصرفت : المتحدث هارون بن ملول .

(٣) المحدود : من سدَّ عنه الرزق ومنع الخير . وفي الأصل محدود .

(٤) يعج : عَجَّ من بابي ضرب وفتح : رفع صوته .

جماعتكم؟ فقال له الوصيُّ : هأنذا . فقال : عندي لهذا الرجلِ
(رحمه الله) ألفا دينارٍ وخمسمائة دينار . فقلت له : حدثت بينكما
معاملةً بعدى ^(١) ؟ فقال : لا والله ! ولكنها الخمسمائة الدينارِ
صرتُ بها إليه عند تيسيرها ، فقال : وما [أعمل بها] ؟ تكونُ
عندك إلى أوانِ حاجتي إليها . فسألته في شغلها ^(٢) . فقال :
هو مالك أعمل به ما شئت . فلم تزل تنمي وتزيد حتى بلغت هذا
المقدار . فقال هارون : ووجدتُ ما خلفه ما شاء الله لبناتٍ كُنَّ
معه شيئاً نزرأ ، فبهرهنَّ الله بذلك المالِ .

*
*
*

وحدثني أحمدُ بنُ دُعَيْمٍ ^(٣) (وكان من خاصة قواد أحمدَ
ابنِ طولون) بعد أن ترك الديوانَ وحسنَ انقطاعه إلى الله ، قال :
قلدني أحمدُ بنُ طولون الصعيدَ الأوسطَ ^(٤) ، وخرج عليه

(١) بعدى : بعد الحادثة التي أعرفها وهي أنه أدى عنك خمسمائة دينار .

(٢) في شغلها : في الاتجار بها .

(٣) قائد من قواد أحمد بن طولون — كان أحد من روى عنهم ابن الداية
سيرة ابن طولون . وقد ترك الديوان بعد موت ابن طولون وتزهد .

(٤) الصعيد الأوسط — يطلق على الجزء من الصعيد الذي يقع بين أنحميم والبهنسا
(عن معجم البلدان) .

سَوَّارٌ^(١) أبو عبد الرحمن العُمَرِيُّ ، فكتب إلى يَسْتَخْبِرُنِي عن حاله ، فأعلمته ضَعْفَ يده وانتشارَ أمره بقلّةِ المال . وقبضتُ على رئيسٍ من الأعرابِ اتَّهَمْتُهُ بمكاتبتِهِ ، وأنهيتُ خبره إليه . فكتب إلى أحمدُ بنُ طولونٍ يأمرني بحمل الأعرابيِّ (وقيادة) ما قدّرتُ عليه من النُجْبِ ، والشخوصِ إليه ليقفَ من مشافهتي على ما لا تبلغُهُ المكاتبَةُ ، فامتثلتُ أمره فما سِرْتُ مَرَحَلَةً^(٢) حتّى لحقَ بي وجوهُ

(١) ورد اسمه في سيرة أحمد بن طولون للبلويّ مرّةً : عبد الحميد بن عبد الله ابن عبد العزيز بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ويكنى أبا عبد الرحمن ، ومرّةً عبد الرحمن العمري ، وجاء اسمه في يعقوب بن هكزا : عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفي خطط المقرئ هكزا : أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري ، وذكر في مكان آخر من هذا الكتاب خالياً من اسم (سوار) . وكان سببُ خروجه أن البجة كانوا قد هجموا على المسلمين في مصلاهم يوم عيد لهم فقتلوا ونهبوا ثم رجعوا ، فكان لهذا العمري معهم معارك ثار للمسلمين منهم فيها ودخل بلاد البجة ولما علم ابن طولون بأمره خاف ازدياد شوكته فبعث إليه أحد قواده لإخضاعه . وحاول العمري إفهام القائد أنه غير خارج فلم يسمع منه ، ووقعت بينهم معركة انتصر فيها العمري . ثم أهمل ابن طولون أمر العمري مدة . حتى حضر إليه أعرابيان يجعلان رأس العمري وكانا من جنود العمري . فلم يرض ابن طولون بفعالتهما وقتلهما . هذا ، وأول بلاد البجة من قرية تعرف بالخربة بينها وبين قوص ثلاث مراحل . وآخرها أول بلاد الحبشة .

(٢) في الأصل : رحلة ويصعب توجيهها ، وفي سيرة ابن طولون للبلوي فما مرت إلا مرحلة .

تُجَارِ الْعَمَلِ^(١) ، ومعهم شابُّ أعرابيٍّ . وقالوا لي : جئناك في أمر
هذا الأعرابيِّ المحمولِ ، فإنَّ معنا من يبذل في إطلاقه خمسمائة
دينارٍ . فقلتُ لهم : قد أنهيت أمره إلى الأمير . فقال الأعرابيُّ
الذي معهم : نخذ الخمسمائة على أن تجعلني مكانه . قلت : أفعل .
فأحضرتُ الأعرابيَّ ، وكان من عشيرتي ، فقلت له : والله لقد
كنتُ مغموما بك حتى سرتني خلاصك . قال : بماذا تخلصتُ ؟
فقلتُ : بذل لي رجلٌ خمسمائة دينار على أن يكون بمكانك
وأطلقك . فقال : ومن هذا الرجل ؟ فأحضرتُه إياه ، فلما رآه
قال امض لشأنك . ثم التفت إلى فقال : يحسن بشيخٍ مثلي
أن يترجَّح في المعروف^(٢) ؟ هذا رجلٌ لقيته وقد أكببت عليه خيلٌ
لتسلبه ثيابه وما كان معه ، ففرقتها عنه حتى تخلص ، فرام أن
يخلصني بحصوله في موضع لا يخرج منه أخرى^(٣) الليلي ، وغريم^(٤)

(١) العمل هنا : جزء من المملكة أو الولاية يحكمه حاكم من قبل الخليفة أو

الأمير ، يسمى داملا .

(٢) يترجح الخ : يطلب الربح من وراء ما يبذل من معروف .

(٣) أخرى الليلي : أجد الدهر .

(٤) وغريم : معطوف على بحصوله .

ثَقِيلٌ عَلَى مِثْلِهِ ، وَهَذَا^(١) مِمَّا لَا أَقْبَلُهُ وَلَا أُرَكِّنُ إِلَيْهِ . فَقُلْتُ لَهُ :
انصِرْفْ فِي حِفْظِ اللَّهِ فَقَدْ رَضِيَ الرَّجُلُ . فَقَالَ : وَاللَّهِ لَنْتُ
أَمْضَيْتَ هَذَا لِأَلْحَقَنَّكَ وَالْأَخْبِرَنَّ الْأَمِيرَ بِصْنِيعِكَ ! فَتَوَقَّفْتُ ؛
وَبَكَى الْأَعْرَابِيُّ^(٢) فَقَالَ : إِذَا كَانَ مَحْبِسُ الْأَمِيرِ عَلَى مَا تَصِفُ وَلَيْسَ
تَرْجُو خِلَاصًا مِنْهُ ، فَمَا أَعْمَلُ فِي عَارِفَتِكَ عِنْدِي ؟ وَأَنَا أَنْشُدُكَ اللَّهَ
لَمَّا^(٣) قِيلَتْ لِي مَا بَدَلْتَهُ وَأَعْظَمَ مِنْهُ ، وَأَزَلْتِ هَذِهِ الْعَارِفَةَ عَنِّي
عَنْتِي ! فَإِنَّ عَارًا وَنَقِيصَةً عَلَى الْكَرِيمِ أَنْ يَمُوتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مِنْ دِيُونِ
الْمَعْرُوفِ . فَقَالَ لَهُ : إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا أَحَاطَتْ بِهِ خَيْلٌ تُرِيغُ^(٤) سَلْبَهُ
فَدَدْتَهَا عَنْهُ فَقَدْ كَافَأَتْ عَارِفَتِي ، أَنْصِرْفْ مُصَاحِبًا^(٥) .

فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ الْمَالِ . فَقَالَ : مَا بِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ فَأَكْبَتْ
عَلَى رَأْسِهِ وَرَجَلَيْهِ يَقْبَلُهَا وَيَبْكِي . فَأَبْكِي جَمَاعَتَنَا .

(١) فِي الْأَصْلِ : وَلَيْسَ هَذَا ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٢) الْأَعْرَابِيُّ : الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَفْتَدِيَ الْأَعْرَابِيَّ الْآخَرَ بِنَفْسِهِ .

(٣) لَمَّا : إِلَّا . قَالَ تَعَالَى إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

(٤) تُرِيغُ : تَرِيدُ وَتَطْلُبُ .

(٥) أَنْصِرْفْ مُصَاحِبًا : تَعْبِيرٌ شَائِعٌ فِي هَذَا الْعَهْدِ وَمَا قَبْلَهُ يَرَادُ بِهِ مُصَاحِبًا بِالْخَيْرِ

وَالْبَرَكَةِ ، أَوْ بِمَعُونَةِ اللَّهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

فلما دخلتُ على أحمد بن طولون ، شافهته من خبر العمري بما سره . وعرضتُ عليه النُجْبَ ، فقال : حسنةٌ والله ! فقلتُ معي أيها الأمير ما هو أحسنُ من هذا ، وحدثته الحديثَ ، فأحضر الأعرابيَّ وخلع عليه ، وأثبتته في ديوانه ^(١) ، وأمرني بإنفذ رسولى معه في [حمل] ^(٢) الأعرابيَّ الآخر . فلما وافى خلع عليه وأثبتته ، فلم يزالا في خاصته إلى وفاته .

*
* *

وحدثني موسى بن مُصلح المعروف بأبي مُصلح ^(٣) (وكان هذا من الثقات عند أحمد بن طولون) :

^(١) وأثبتته في ديوانه : أى أثبت اسمه في دفتر خاص بمن يجرى عليهم رزق الأمير ، أو الذين يمنحون عطاء في المواسم والأعياد ونحوها .

^(٢) الزيادة التي بين القوسين من البلوى .

^(٣) سماه البلوى في سيرة أحمد بن طولون : موسى بن صالح ، ثم روى هذه القصة مع كثير من التغير والتصرف .

أَنَّ أَحْمَدَ كَانَ يُرَاعِي أَمْرَ الْمَحْبُوسِ حَتَّى يَمِضِيَ لَهُ حَوْلٌ ، فَإِذَا جَازَهُ لَمْ يَذْكُرْهُ . وَكَانَ يَقُولُ لِي سِرًّا : إِذَا تَبَيَّنْتَ مِنْ رَجُلٍ بَرَاءَةً سَاحَةً فَسَهِّلْ عَلَيْهِ وَاسْتَأْمِرْنِي ، فَإِنِّي أَسْتَعْمَلُ التَّشَدُّدَ لِلضَّرُورَةِ إِلَيْهِ . قَالَ مُوسَى بْنُ مُصَلِحٍ : وَكَانَ فِي الْحَبْسِ رَجُلٌ قَدْ زَادَ عَلَى سِنَتَيْنِ ، مَنْقُطَعًا إِلَى اللَّهِ بِرَغْبَتِهِ ، لَا يُسْأَلُنَا شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ ، وَهُوَ يُكَبُّ عَلَى الصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ .

فَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا : النَّاسُ يَضْطَرُّونَ فِي أُمُورِهِمْ ، وَيَسْأَلُونَنِي إِطْلَاقَ الرُّقْعَةِ إِلَى ذَوِي عِنَايَاتِهِمْ^(١) ، وَأَنْتَ خَارِجٌ عَنْ جُمَّلَتِهِمْ^(٢) ! فِجْزَانِي^(٣) خَيْرًا . وَرَقَّ قَلْبِي عَلَيْهِ ، وَكَبُرَ فِي نَفْسِي مَحَلُّهُ ، فَخَلَوْتُ بِهِ وَقُلْتُ لَهُ : لَوْ اسْتَجِزْتُ إِطْلَاقَكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ لَفَعَلْتُ ، وَلَكِنْ اسْتَعَنَ بِي فِي أَمْرِكَ . فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ فِي هَذَا الْبَلَدِ غَيْرَ أَبِي طَالِبِ الْخَلِيجِ (وَكَانَ

(١) عِنَايَاتِهِمْ : يُرِيدُ الْعِنَايَةَ بِهِمْ . وَفِي سِيرَةِ أَحْمَدَ بْنِ طَوْلُونَ لِلْبَلُوعِيِّ . وَيَسْأَلُونَ الْخِلَاصَ مِمَّا يَقَاسُونَهُ بِكُتُبِ رُقْعَةِ شِفَاعَةٍ مِنْ يَعْنِي بِأَمْرِهِمْ .

(٢) خَارِجٌ عَنْ جُمَّلَتِهِمْ : لَا تُشَبِّهُهُمْ وَلَا تَتَفَهَّلُ فَعَالَهُمْ .

(٣) لَمْ نَجِدْ هَذَا الْفِعْلَ فِي الْمَوْجِزَاتِ ، وَإِنَّمَا قَسَنَاهُ عَلَى فِتْدَاهُ : قَالَ لَهُ :

جَعَلْتَ فِدَاكَ .

هذا الرجل يتولى شرطتي^(١) أحمد بن طولون بمصر) . ولو وصلت
إليه سرّاً أو برسالة ممن يفهم لرجوت سهيلَ أمرى . فقلت له :
والله لا تينّ في أمرك ما أخطر به نفسى^(٢) . أنا أطيقك سرّاً
على أن تؤثني بأيمانٍ محرّجة^(٣) أنك لا تهربُ عني ، ولا تُخفّرنى^(٤) .

(١) كان لأحمد بن طولون شرطتان هما : الشرطة السفلانية ، ويظهر أنها
كانت خاصة بإقامة العدل وتوطيد الأمن بين العامة وأوساط الناس . والشرطة
الفوقانية ، ويظهر أنها كانت خاصة بأحوال الطبقة العليا من القواد والجنود والعلماء
وعظماء رجال المملكة . وفي سيرة ابن طولون للبلوى : وحدثت نسيم الخادم قال : قلده
مولاي الشرطة السفلانية قائداً من قواده ، وقال له : ارفق بالرعية وانشر العدل
عليهم واقض حوائجهم وأظهر إكرامهم وصياتهم وتفقد مصالحهم فإني أسير بالليل
في محالهم ، وكل موضع أمرت به لا يخلو من قارئ أو متجدد أوداع أو ذا كراته
عز وجل ، فوفر علينا دعاءهم لنا واحرسنا من أن يكون دعاؤهم علينا .

ويقول لمن يقلده الشرطة الفوقانية : تشدد عليهم وأرهبهم منك ولا تكن فهم
واغلظ عليهم فإني أسير في محالهم فما أمرت بموضع فأسمع فيه إلا غناء أو سكران معربدا
قد أخرجته عربدته إلى الوثرب والكفر .

وكان لا يقلد شرطة أسفل إلا الثقات من وجوه قواده — وأما تشدده على قواده
وغلماناه فمشهور .

(٢) في الأصل : ما أخطر به على نفسى . وأخطر نفسه جعلها خطراً ،
والخطر ما يتراهن عليه وقد يخسر صاحبه . وعبارة البلوى : والله لأخاطرن
فيك بنفسى .

(٣) محرّجة : موقعة في الحرج وهو الإيم ، أى عند الحنث فيها . أو محرّجة
بتشديد الراء المكسورة أى مضيق على الحالف السبل للتخلص من يمينه .

(٤) أخفرت الرجل : تقضت عهده وذمامه ، وخفرتة أجزته وحفظته .

فقال: إذا كنتُ عندك بمنزلةٍ من يُسَكُّ فيه، فلا حاجةَ لي بإخراجك
إيَّاي . فوافقتُه من غيرِ عيبٍ ارتَهتُه بها على أن يُقيم ثلاثةَ أيامٍ ،
فأطلقتُه ليلةَ الجمعةِ، وفارقتُه على أن يصيرَ إلى ليلةِ الاثنينِ . فلما كان
سَحَرُ يومِ السبتِ وافاني كما ^(١) فتحتُ بابَ السجنِ . فلما دخل سجدَ
وحمدَ اللهَ . وقال لي : بعثتُ إلى أبي طالبِ الخليجِ امرأةً من أهلنا،
وطويتُ عنه إطلاقي ، وسألتهُ أن يَلطُفَ في أمرِي ، فوعدَ بذلكِ ،
وخَلَّفَ المرأةَ حتى ترجعَ إلى بالجوابِ ، وركبَ إلى الأميرِ عشيَّةَ
الجمعةِ ، فأقامَ إلى قريبٍ من العتمةِ ، ثم انصرفتُ إلى المرأةِ فقالت:
واقى أبو طالبِ الأميرَ ، وهو مغمومٌ ^(٢) ، فقال لي: كَلَّمْتُهُ ، فقال :
واللهِ لقد أذكرتني رجلا يحتاجُ إلى عقوبةٍ ! ثم تقدّمَ إلى رجلٍ
يصيرُ بك إليه عند جلوسه في يومِ السبتِ ، ووجهه إلى ^(٣) أن أُرَجِّعَ

^(١) يُستعملُ المؤلفُ في هذا الكتابِ "كما" بمعنى حيناً، وفي سيرة ابن طولون
للبلوى : لما فتحت باب السجن .

^(٢) واقى أبو طالب الخ : المراد قابل أبو طالب الأمير وعاد إلى وهو مغموم ،
والأولى حذف كلمة "الأمير" ، وعبارة البلوى : واقى أبو طالب وهو مغموم .
فقال لي . وهي واضحة .

^(٣) ووجه : أي أبو طالب الخليج .

إلى الله عز وجل في أمرك ، فليتني لم أتكلم فيك ! فسحرت^(١) مع ما تيقنته في أمرى ، خوفا أن يأتيك رسوله فلا يجدنى فيأحقك مكروه منه ، ورأيت كَلَّ ما يُوعدنى به اسهل على من أن أخصر ظنك بي ، وتقديرك في . فما ترجل النهار^(٢) حتى وافى الرجل ، فتسله منى . وحضرت الدار^(٣) ، وقد أحضره أحمد بن طولون ، ومجلسه بين الخاص والعام ، فلما رآه بكته بالإجلاب^(٤) عليه في الثغر^(٥) . فاعتذر بعذر قبله ولقيه بالرافة بضد ما خفته عليه ، وأطلقه . فكان من آثر إخوانى عندى إلى أن فرقت الأيام ببنى وبينه .

*
* *

(١) سحرت : بكرت في وقت السحر .

(٢) نرجل النهار : ارتفع .

(٣) الدار : دار الملك حيث يجلس أحمد بن طولون .

(٤) أجب عليه : جمع الجموع لقتاله وكاد له وتوعده .

(٥) الثغر : نغر المملكة : المكان الذى منه يخاف هجوم أعدائها .

وحدثني عمي إسحاق بن إبراهيم^(١) . قال :

انتظرت أبا عبد الله الراسطي^(٢) . كاتب أحمد بن طولون في داره حتى رجع من عند أحمد بن طولون ، فأوصل إليه بعض الحجاب ثبت من وقف بالباب^(٣) ، فرأى فيه إسماعيل بن أسباط ، فسأل عنه . فقليل له : وقف بالباب طويلا وانصرف . فقال : إن هذا الرجل ممن عمده^(٤) هذه المنزلة^(٥) مدة طويلة ، ولست أشك أن مجيئه

(١) كان من رجال ابن طولون وبار خاصته . روى عنه البلوي طرفا من أحوال ابن طولون .

(٢) هو أحمد بن محمد الواسطي أبو عبد الله كاتب أحمد بن طولون ، أحد من روى عنهم ابن الداية تاريخ ابن طولون . ولما تنكر الأتراك للمستعين وخلعوه ونفوه إلى واسط ، وقع اختيارهم على ابن طولون ليصحبه في منفاه ، فعهد بذلك ابن طولون إلى الواسطي .

ولما حضر ابن طولون إلى مصر نائبا عن باجك حضر معه الواسطي وكان متصلا به جدا . ولما وشى ماجور بابن طولون عند الخليفة وكتب الخليفة إليه بطبه ، أرسل ابن طولون في هذه المهمة الواسطي بهدايا كثيرة فبلغ ما أراد مولاه وثبت أمره . ولم يكن في كتاب أحمد بن طولون أحد أعرف بخدمته ولا أصبر عليها من الواسطي .

(٣) ثبت من الخ : قائمة بأسماء من يطلبون مقابلته .

(٤) عمد : ساد ورأس ، ومنه عميد القوم سيدهم : ورئيسهم ، ولم نجد هذا الفعل في المعجمات بهذا المعنى ، ولكن استعماله صحيح كما رأيت .

(٥) هذه المنزلة : أي المنزلة التي يشغلها الواسطي ، وهي شدة اتصاله بابن طولون وما يتبع ذلك من النفوذ والسيطرة .

لحاجة له ، ومن الجميل أن أركب إليه فأقتضيه حوائجه ، وأبلغ فيها محبته. ثم ركب وسرتُ معه حتى دخلنا دارَ إسماعيل بنِ أسباط (وهي التي ملكها الشيرُ بعده) فرأينا داراً عارية من الستور والفرش ، وتأملنا من فيها من الحشم على حالٍ سيئة ، فاستقبله إسماعيلُ بالشكر والدعاء له . فقال له الواسطى : إنه لا فرق بينك الساعة عندى فى المرتبة التي كنتَ فيها ^(١) . ومن جمالنا فيما أفضى إلينا أن نُحسنَ خلافةً من تقدّمنا ، وأن نراهم كالأباء المستحقين البرّ من أولادهم . وسأله عن حاجته . فقال : أخبرك بها بعد أن أحدثك بشيء يدلُّ على أن المعروف ينفعُ عند مُستحقّه وغير المستوجبين له .

كانت لى (أيّدك الله) دارُ خيل نحو المنظر ^(٢) ، وكنتُ أركبُ إليها فى غداة الليلة التي أعاقرف فيها إخوانى ^(٣) ، فركبتُ إليها يوماً فألفيتُ

(١) إنه لا فرق الخ : الأسلوب السائغ الواضح أن يقال : إنه لا فرق بينك عندى فى الحال التي أنت بها ، والمرتبة التي كنتَ فيها . أى إن فقره لا يقلل مما كان يكتنه له الواسطى من الإجلال فى أيام عظمته .

(٢) المنظر : بناء نخم أقامه ابن طولون أمام ميدان سباق الخيل ليشهد منه السباق ، قال القضاعى : وكان عرض الخيل بمصر من عجائب الإسلام .

(٣) أعاقرف فيها إخوانى : ألأزمهم ، والمراد ملازمتهم فى مجلس الشراب .

في الصحراء جمعاً من العامة ، وقد ضاقت بهم ، ومعهم عاملُ
المعونة^(١) . واستقبلتني امرأةٌ قد هتكت سترها ، وكشفت شعرها .
فقلت : يا سيدي ! أحيى وواحدى وكافلى يُعرضُ على القتل الساعة .
فعدلتُ إلى صاحب المعونة ، وسألته عن حال الناس^(٢) . فقال :
اجتمعنا لضرب خنّاقٍ بالسوط . فقلت له بحضرة الناس : ما حقُّ
هذا إلا الإحراق بالنار ! وأنا أكتبُ فيه إلى السلطان^(٣) . فأعلن
الجميعُ بالدعاء لي^(٤) ، وانصرفوا . فسألته البعثة بالخنّاق إلى ، فوعدني
بذلك في المساء .

فلما صليتُ العشاء الآخرة^(٥) أنفذ إلى منه شاباً مكفهرَ
الوجه ، لا تخفى قسوته . فقلت له : أما تستحي من الله

(١) المعونة هنا : حفظ الأمن .

(٢) حال الناس : سبب اجتماع الناس .

(٣) أراد بذلك إسماعيل بن أسباط أن يرضى العامة بليامهم أنه سيشدد عليه
العقوبة ، وأن يؤجل ضربه بالسياط لينظر في أمر خلاصه لإرضاء للمرأة التي
استنجدت به .

(٤) يقال : أعلن الأمر وأعلن به .

(٥) في الأصل : عشاء الآخرة . ويقال لصلاحي المغرب والعشاء : العشاءان
فاذا قيل : العشاء الآخرة تعينت صلاة العشاء .

وتخافه في طُعْمَتِكَ^(١)؟ فقال: ياسيدي! أنا أشهدُ الله أني لا أعاود هذا الفعل أبداً. فأوصيته بخير، وأضفتُ إليه من أخرجهُ عن البلد في حال ستر، وأقمنا بعد ذلك سنين. وتقاصرتُ أمورنا وتغيّرت أحوالنا بتقليد إسحاق بن تميم علينا.

فلما بلّحنا^(٢) بما نطالبُ به أشخصني وأنحى أحمد إلى الحضرة^(٣) فطالبنا الوزيرُ بما لفقهُ ابنُ تميم علينا، فشكونا إليه شدةً اختلالنا. فقال: فلان! فوافاه رجلٌ بمنزلةٍ أثيرة^(٤) عنده، غليظُ الطبع، كريةُ الوجه، تتأملُ الشرَّ في سجاياه. فقال: استخرج من هذين مائةً ألفِ دينار اليوم. فاتزَعنا من بين يديه بفضاظة، أيقننا بالهلكة، ثم صار بنا إلى جُجرة له في دار الوزير. فسألنا عن بلدنا ونسبتنا، فلما سمع "أسباط" سَكَن فورهُ^(٥) ورقَّ قلبه. وقال: من

(١) الطعمة: الرزق.

(٢) بلح الرجل: كمنع. بلوحا: أعيا وكلّ.

(٣) الحضرة: دار الخلافة بالعراق.

(٤) أثيرة: مقربة مختارة.

(٥) فورهُ: ثورانه، غضبه.

تكونون من إسماعيل؟ فقلتُ: أنا إسماعيلُ! فبكى وأنكبَّ على رأسى ورجلى. وقال لى: ياسيدى! أتعرفنى؟ قلت لا. قال: أنا الخنّاق الذى أطلقتنى بمصر. ووالله ما خنّقت أحداً بحمد الله بعد إطلاقى، ولكنَّ شراسةً طبعى عدلت بى عن الزهادة إلى مادون الخنّاق، وهو استخراجى للوزير الأموال بالتعذيب، وقد وجد عندى فيه^(١) ما لم يجده عند غيرى. ثم طعن فى تلك الحجرة^(٢) فأخرج إلى صندوقا يحمله غلامان^(٣). فقال: فى هذا من المال والحلّى ما نكتفى به، فقوموا بنا حتى نهربَ لئلا يقع بكم بأس. فأعلمته أنا نخافُ فى الهرب تتبّع الولد والأهل. فرجع إلى الوزير يبكى بين يديه، ويحدّثه محلّنا كان^(٤)، وما أولّيناه. فعجب الوزير من رفته علينا لما وقف عليه من فظاظته. وكان - شهد الله - أقوى الأسباب فى دفع المطالبة عنا.

(١) فيه: فى استخراج الأموال بالتعذيب.

(٢) فى تلك الحجرة: فى أحد مخابى تلك الحجرة.

(٣) يريد صندوقا ثقيلًا لا يقوم غلام واحد بحمله.

(٤) محلّنا كان: تعبير شائع فى هذا العهد، أى ويحدّثه خبر ما كان لنا من عظيم المحلّ ورفع المنزلة.

ثم سأل أبا عبد الله الواسطيَّ بعد هذا الحديث حوائجَ وَقَعَ بها في مجاسه ، ووكل بها متنجزاً من خاصته^(١) ، ولم تزل أظافه تعناده إلى أن تُوفى .

*
*
*

وحدّثني يوسفُ بنُ إبراهيمِ والدي^(٢) . قال : حدّثني إبراهيمُ بنُ المهديّ^(٣) عن إسحاق بن عيسى بن عليّ بن عبد الله ابن العباس^(٤) هن أبيه :

(١) أي ووكل بهذه الحوائج بعض خاصته لإنجازها وقضاءها .

(٢) هو يوسف بن إبراهيم أبو الحسن ، وكان من جِلّة الكُتّاب بمصر وكان له مروءة تامة ، وكان في خدمة إبراهيم بن المهدي ثم رحل إلى دمشق سنة ٥٢٥ هـ ، ونزل فيها على عيسى بن حكم الدمشقي الطيب النسطوري ، وروى عنه وعن غيره مثل إسماعيل بن سهل بن نوبخت وجبرائيل بن بختيشوع . وقد غضب عليه ابن طولون وسجنه ثم أفرج عنه . (معجم الأدباء) .

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن المهديّ بن المنصور ، أخو هارون الرشيد . برع في الغناء والموسيقا وكان أسود اللون ، لأن أمه كانت جارية سوداء واسمها شكلة (بفتح الشين المعجمة وكسر ها) . بويع له بالخلافة ببغداد بعد المائتين ، وأقام خليفة نحو سنتين ثم خلع . وكانت ولادته سنة اثنتين وستين ومائة . وتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين (ابن خلكان) .

(٤) إسحاق بن عيسى بن علي : من ولادة المدينة أيام هارون الرشيد . ولمّا خرج الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ودعا إلى المأمون . كان إسحاق من المحرضين على المأمون (التجوم الزاهرة) .

أنه كان مع أبي عبد الله محمد بن علي^(١) أبي الخلفاء برصافة هشام^(٢)، بعد وفاة أبي محمد علي بن عبد الله، وأنه أقام ثلاثة أشهر برصافة هشام لا يأذن له هشام عليه، إلى أن بلغ أبا عبد الله إجماع مسئلة القدوم على هشام، فتلقاه على أميال من الرصافة، وشكا إليه جفوة هشام وتأخير الإذن عليه. فقال له مسئلة: أرجو أن يزول هذا بقدمي، وأمره أن يقيم بباب هشام إذا دخل عليه مسئلة، ولا يريم^(٣) ما أقام مسئلة عنده، فأقام أبو عبد الله إلى وقت زوال الشمس.

قال عيسى بن علي: نخرج مسئلة إليه. فقال له: قوض رحلك^(٤) أبا عبد الله! فما لك عند الرجل من خير، لأتني خاطبته في أمرك

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. كان من أجهل الناس وأعظمهم قدرا. وكان بينه وبين أبيه أربع عشرة سنة، ومات سنة ١٢٢ هـ وقيل سنة ١٢٥ بالشراة من أرض الشام، وهو ابن ستين سنة. والخلفاء العباسيون من ولده (المعارف لابن قتيبة).

(٢) رصافة هشام: في غربي الرقة، بينهما أربعة فراسخ، على طرف البرية. بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام. وكان ينزلها في الصيف. وقيل إنها كانت قبل الإسلام بمن ليس بالقصير، وإن هشاما إنما عمرها وبني بها أبنية لسكاه. (معجم البلدان).

(٣) لا يريم: لا يبرح.

(٤) قوض رحلك: الرجل المسكن. يريد ارحل فلا فائدة ترجى من هشام.

بعد ما تقضى سلامى عليه : محمد^(١) بن علي بن عبد الله على شابكة^(٢)
رحمه برسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يُقيم ثلاثة أشهر
ببابك فلا يؤذنُ له عليك؟ فقال : آلهُ عنه ، أبا سعيد . فأمسكتُ
حتى حضر الطعامُ ، فأعلمتهُ أني لا أستجيزُ الأكل ، وإنه قائمٌ على
الباب . فغضب غضباً زاد به حوله . وقال : يُسمى آبنه عبد الله
وعبد الله ويرجو بهذا أن يابيا الخلافة ثم يطمع في خيرٍ مني ؟ والله
لولا ماسّةُ رحمةِ برسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لقطعتُ
من وسطه شبراً .

ثم عاتق أبا عبد الله . وقال : رسولى إليك صائرٌ ، فرجع أبو عبد الله
إلى رَحله فقوّضه وبقى في حيرةٍ لعجزه عما ينهضه^(٣) ، ووافاه رسولُ
مسلمةً يقول : لم أقدر في سفرى هذا طولَ اللَّبث . وأشهدُ الله أنى
ما حملتُ معى إلا ألفاً وثلثمائة دينار ، وقد وجهتُ إليك بالألف
وخلقتُ الثلثمائة لنفقتى .

(١) محمد بن على الخ أى قائلاً : محمد بن على بن عبد الله الخ .

(٢) شابكة رحمه : اتصال قرابته .

(٣) ينهضه : يكفى مؤنة سفره ورحيله .

قال إبراهيم بن المهدي : فُحِّدَتْ بهذا الحديث الرشيد^(١) في حديثه الموصول^(٢) فبكي . وقال : وَصَلْتُ أبا سعيدٍ رَحِمَهُ ! .
والله لا دخلتُ الرِّقَّةَ^(٤) حتى أَقْضَى عارفته عندنا . فلها وافينا حِصْنَ
مَسَلَمَةَ أَحْصَى مَنْ فِيهِ مِنْ وَلَدِهِ الذَّكَورِ وَالْإِنَاثِ فوجدهم أربعين ،
فأمر لهم بأربعين ألف دينار .

*
* *

(١) الرشيد : أحد عظماء الخلفاء العباسيين ، بويع في ربيع الأول سنة ١٧٠ ،
ومات بطوس في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . وكان عمره أربعاً وأربعين سنة
وأربعة أشهر (مروج الذهب) .

(٢) حديثه الموصول : مدينة على طرف دجلة . وكان مروان بن محمد آخر ملوك
بنى أمية أول من ألحقها بالأمصار العظام وجعل لها ديواناً ونصب عليها جسراً وهياً
طرقاتها وبني عليها سوراً (معجم البلدان) .

(٣) وصلت أبا سعيد الخ : يقول : يجب أن تصل أبا سعيد القرابات وتعطف
عليه كما وصل رحم أبي عبد الله .

(٤) الرقة : مدينة على الفرات من الجانب الشرقي بينها وبين حران ثلاثة
أيام . ويقال لها الرقة البيضاء . وكان بالجانب الغربي مدينة أخرى تعرف برقة
واسط ، كان بها قصران لهشام بن عبد الملك كانا على طريق رصافة هشام .

وهناك أيضاً الرقة السوداء : وهي قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة . (معجم
البلدان) .

وحدثني أحمد بن وليد . قال :

ودعتُ إسحاق بن نصير العبادي^(١) في بعض نخرجاتي إلى بغداد ،
فأخرج إلى ثلاثة آلاف دينار وقال : إذا دخلت بغداد^(٢) ، فادفع
ألف دينار إلى ثعلب^(٣) وألف دينار إلى المبرد^(٤) وصِرْ إلى قصر وضاح^(٥)

(١) هو إسحاق بن نصير النصراني . كان من كتاب الخراج في عهد ولاية
عيسى النوشري على مصر سنة ٢٩٢ هـ . وكان رئيس ديوان الخراج حينئذ
الحسين بن أحمد الماذرائي . (النجوم الزاهرة) .

(٢) وتسمى مدينة السلام ، وأول من أنشأها ومصرها أبو جعفر المنصور ،
وهي إلى الآن عاصمة العراق .

(٣) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني البغدادي أبو العباس ثعلب ، إمام
الكوفيين في النحو واللغة — ولد سنة ٢٠٠ وله من التصانيف : المصون في النحو
ومعاني القرآن ، ومعاني الشعر ، وغيرها .

ونقل مسمعه بآخرة ثم صم . وقد دهمته دواب من خلفه وهو لا يسمع فوق
على الأرض ، ثم حمل إلى منزله فمات . وكانت وفاته سنة ٢٩١ هجرية .

(٤) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكرم الأزدى البصري ، أبو العباس المبرد
إمام العربية ببغداد . كان فصيحا مفوها أخباريا صاحب نوادر وطرافة ، وله من
التصانيف : الكامل ، والاشتقاق ، وإعراب القرآن ، وغيرها ، وكان مولده
سنة ٢١٠ ، ومات سنة ٢٨٥ (بغية الوعاة) .

(٥) قصر بُني للهدى قرب رصافة بغداد . وقد تولى النفقة عليه رجل من أهل
الأنبار يقال له : وضاح ، فنسب إليه ، وقيل : الوضاح مولى من موالى المنصور ،
ويقال إن قصر وضاح بالكرخ ، وإنه منسوب إلى الوضاح بن شبا الذي كلفه
المنصور بناءه . قال علي بن الجهم :

سقى الله باب الكرخ من منزّه إلى قصر وضاح فبركة زلزل

فانظر إلى أول دُكَّانِ اللُّورَاقِينِ ^(١) فَإِنَّكَ تَجِدُ صَاحِبَهَا (إِنْ كَانَ حَيًّا لَمْ يَمُتْ) قَدْ شَاخَ ، فَاجْلِسْ إِلَيْهِ وَقُلْ لَهُ : إِسْحَاقُ بْنُ نُصَيْرٍ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَهُوَ الْغُلَامُ الَّذِي كَانَ يَقْصِدُكَ كُلَّ عَشِيَّةٍ رَاجِلًا مِنْ دَارِ الرُّومِيِّينَ بُدْرَاعَةَ ^(٢) وَعِمَامَةَ وَنَعْلَ رَقِيقَةٍ ، فَيَسْتَعِيرُ مِنْكَ الْكِتَابَ بَعْدَ الْكِتَابِ ، فَإِذَا اقْتَضَيْتَهُ كَرَاءً مَا نَسَخَ مِنْهُ ، قَالَ : اصْبِرْ عَلَيَّ إِلَى الصَّنْعِ ^(٣) ، فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ مَعْرِفَتِي فِي نَفْسِهِ دَفَعْتَهُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْأَلْفَ الدِّينَارَ وَقَلْتُ لَهُ : هَذِهِ ثَمْرَةٌ صَبْرِكَ عَلَيَّ .

قال لي أحمد بن وليد : فلما دخلتُ بغدادَ ودَفَعْتُ الألفَ دينارَ إلى ثعلبٍ والمبردُ ، مضيتُ ^(٤) إلى قصرٍ وضَّاحٍ فألفيتُ الدُّكَّانَ التي وَصَفَ لي قَفْرًا ليس فيه ^(٥) كتابٌ . ورأيتُ فيها الشيخَ الذي وَصَفَهُ لي في حالِ رَثَّةٍ . وثيابٌ خَلَقَةٌ ^(٦) ، وقد أَفْضَى به الأمرُ إلى التوريقِ

(١) للوراقين : لباعة الكتب . أو من يسمحون للناس بنسخها بأجر .

(٢) الدراعة : ثوب الى نهاية الظهر من صوف .

(٣) الصنع : الفرج وتيسر أسباب الرزق .

(٤) في الأصل : ومضيت .

(٥) فيه : الضمير يعود إلى " قفراً " .

(٦) خلق الثوب : كنصر وكرم وسمع خلوة وخلقاً (محركة) بلى ، والخلق

(محركة) : البالي يوصف به المذكر والمؤنث .

للناس ^(١) بخلستُ إليه وسألته عن حاله . فقال : يا أخی ! ما ظنُّك
بجال ما تتأمَّله في أحسن ما فيها ؟

ثم خرجنا من ^(٢) المسألة إلى أشياء كان فيها خبرُ إسحاق بن نصير .
فقال : قد كان يجيئني من دار الروميين غلامٌ (ووصفه) فأسمح له
بالنسخة بعد النسخة ، يقال له : إسحاق ، وكان يعدني في كلِّ شيء
يأخذه إلى الصنع ، وأخبرت أنه وقع بنواحي مصر ، وما حصل لي منه
شيء ! فأخرجت الألف الدينار وقلت له ، يقول لك : " هذه ثمرة صبرك " .
فكاد والله يموت فرحاً . فقلت له : ليست دراهم وهي دنانير ، وانصرفت
عنه وهو أحسن من في سوقه حالاً .

قال لي أحمد بن وليد : واجتزت بعد ذلك فرأيت دكانه معمورة
وهو متصدرٌ فيها على أحسن حال وأوقاها

*
* *

(١) التوريق للناس : نسخ الكتب لهم بأجر .

(٢) من : في الأصل " إلى " .

وكان بنحو دار العنقود شيخ يتنخس^(١) في الدواب ، يُعرف
بابن الزنق قد لحق بمصر أكابرها ، ورأيته في أيام أحمد بن طولون
قد علّت سنّه ، وضعف عن التصرف ، وكان له ابن أخت خفيف
الروح مقبول الصورة ، حلوا الألفاظ ، يتنخس في الدواب . نجف
على قلب القاسم بن شعبة . (وكان شعبة من أكابر أصحاب أحمد
ابن طولون ، ومات في طاعته ، فردّ إلى القاسم ابنه إحدى الشرطتين
بمصر^(٢)) فانصرف ابن أخت ابن الزنق من عند القاسم ، وقد خلع
عليه درّاعة نخر من تحتها جبة ملحم^(٣) . فنظر إليها خاله ابن الزنق .
فقال : ماهذه الخلعة الرائعة ؟ فقال : خلعتها على القائد (يريد القاسم
ابن شعبة) . فقال : يا بني إن كنت تصبر على التدلّي^(٤) معه في محنه ،
كما تدلّي^(٥) في نعيمه ، وإلا فاعتزله ولا تفضحننا بالقعود عنه

(١) النخاس بياع الدواب والرقيق ، من نخس الدابة (كنصر وجعل) والاسم
النخاسة (بالكسر والفتح) ولم نجد " يتنخس " فيما بأيدينا من المعجمات .

(٢) انظر صفحة ١٧ .

(٣) ملحم : نوع ثمين من الثياب .

(٤) التدلّي معه : الهبوط معه .

(٥) كما تدلّي : أي تتدلّي ، حذف منه تاء المضارعة ، والتدلّي هنا :

التدلّل وإظهار العظمة .

في نوابه . فقال : أرجو أن يصونه الله وما أنعم عليه به من نائبة
تلحقه ، أو مكروه يقع به . فقال : وأنا أرجو هذا أيضاً له ، ولكن
ينبغي ألا تنسى نصيبه ^(١) منك في الشدة ، كما غني بك في النعمة .
واتصل بأحمد بن طولون عن القاسم بن شعبة شياً أنكره ، فحبسه ووكل
بداره جماعة ، وأختفى النخاس في دار خاله ، فسأله بعد يومين عن
سبب ملازمته المنزل . فقال : وجدت علة . إلى أن اتصل الخبير
بالشيخ ، فدخل إلى ابن أخته فقال : قبحك الله ! سرقت معروف
هذا القائد ، وخليته يقارع شجوه بمخنته ! وأسرج حماراً له وركبه ،
وجيرانه يناشدونه الله ألا يفعل . فقال : والله القتل أحسن مما أتى
به هذا الوغد ! ثم قصد دار القاسم بن شعبة وعليها جماعة من المؤككين
وأصحاب الأخبار ^(٢) . فوقف على الباب فقال : كيف حال القائد
أبي محمد أيده الله ؟ فقالوا : امض يا شيخ . فقال : ما أمضى حتى
أبلى ^(٣) عذراً ، هذا رجل قد لزممتني له عارفة ، وهذا أوان قضائها .

(١) الاتسى نصيبه منك . أى فضل القاسم عليك .

(٢) أصحاب الأخبار : الجواسيس ، وقد كثروا جدا في عهد ابن طولون
لشدة رغبته في معرفة أحوال الناس وتعقب أعدائه .

(٣) أبلى الرجل عذرا : أدى ما عليه من الواجب فارتفع عنه اللوم .

فوقع خبره إلى أحمد بن طولون فأحضره ، وقال : ما كنت تعمله
للقاسم بن شُعبَةَ ؟ قال : أولانى فى بعض أقاربي جميلاً ، فانتصبتُ
الساعة لما يحتاج إليه . وما أحقَّ الأمير أن يفضِّلنى بحسنِ المكافأة
عن طاعة والده له ، فقد كان مشهوراً بها !

فحدَّثنى أبو العباس الطرسوسى . أنَّ أحمد بن طولون قال له فى هذا
المجلس : ما أحسنَ ما أهدى هذا الشيخُ إلى إذكارى بحقِّ قاسم
وعطفى عليه ! . ثمَّ أحضرَ القاسمَ بنَ شُعبَةَ وخلعَ عليه خِلعَةً رضاً ،
وصرفه إلى منزله .

وعَدَلَ الشيخُ ولم يدخلْ معه داره ، وانصرف إلى بيته وقد قام بما
قعد عنه ابنُ أخته .

وحدَّثنى هارونُ بنُ مَلُول . قال :

لما مات أبى ورثتُ منه مالاً جمّاً ، ومُسْتَعْلَلَاتِ نَفِيسَةً ،
وكان يقصُرُننى على زِيِّ التُّجَّار ، ويمنعُننى من التخرُّق ^(١)

(١) التخرق : كثرة البذل والتوسع فى الإنفاق .

والسرف في الهيئة ، فعمدتُ إلى أثوابٍ وشيٍ سعيدي^(١) كانت في المتاجر التي خلفها والدى فقطعتها . وقطعت لحديمٍ أرتبطهم^(٢) للتجارة من الملحم^(٣) والديباج^(٤) مالا يتسمَحُ به أحد من أبناء الترفه . وجلستُ في الوشي ، وقام الغلمان بين يديّ فيما قطعته لهم .

ووافانا إسحاقُ بنُ إبراهيم مُفتقداً ، فتأملني فقال : لقد سرتني بعدُ قيمتك^(٥) ، وحسنُ زيِّك ، بارك الله عليك ، وأحسن إليك . ثم وافاني جماعةٌ من إخوان أبي وأصفيائه ، فوالله ما أنكرت على واحدٍ منهم ما خرجتُ إليه^(٦) من زِيٍّ أسلافِي . فلما كان في عشيِّ ذلك اليوم وافاني رسولُ إسحاقِ بنِ إبراهيمِ بنِ تميم :

(١) الوشي السعيدى : نوع من الوشي ثمين يصنع باليمن .

(٢) أرتبطهم : أحتجزهم وأخصصهم .

(٣) الملحم : انظر الصفحة ٢٨

(٤) الديباج : ضرب من الحرير منقوش .

(٥) بعد قيمتك : ارتفاع منزلتك ، وفي الأصل كتب هكذا " تيمتك "

فاستظهرنا أن رأس القاف قد محى .

(٦) ما خرجت إليه : المعروف : نخرج على كذا : عاداه وحاربه :

عندى^(١) مَنْ لا تَحْتَشِمُهُ فُتُونِسُ جَمَاعَتِنَا بِحُضُورِكَ ، فَقَدْ أَعْجَبَنِ الْيَوْمَ
حُسْنَ زِيكِ . فَرَدْتُ فِي الْخِلْعَةِ وَرَكِبْتُ . فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ لَمْ أَفِدْ
عِنْدَهُ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْوَالِدِيِّ^(٢) ، فَلَمَّا تَوَسَّطْتُ الصَّحْنَ ابْتَدَرَنِي
الْغِلْمَانُ ، وَصَاحَ بِي إِسْحَاقُ : ”تَوَهَّمْ يَا جَاهِلُ أَنَّ أَبَاكَ مَضَى
وَاسْتَرَحْتَ ! وَلَا تَعْلَمْ أَنَّ أَبَاكَ خَلْفَ لِكَ هَؤُلَاءِ الْآبَاءِ^(٣) بِأَسْرِهِمْ
يَرُدُّونَكَ عَنِ الْخَطَا بِأَلِيمِ الْعُقُوبَةِ ، وَلَا يَشْفَعُونَ فِي مَصْلَحَتِكَ مِنْ
عَظِيمٍ مَا كَانَ أَبُوكَ يَرِيقُ عَنْهُ فِيكَ^(٤) ! “ . ثُمَّ بَطَّخْتُ فِي وَسْطِ
الْدارِ ، فَصَحْتُ بِهِمْ : يَا سَادَاتِي ! وَاللَّهِ مَا قُرِعْتُ قَطُّ بِمَقْرَعَةٍ !
فَقَالَ إِسْحَاقُ : وَلَا أَتَيْتَ بِمِثْلِ هَذَا الْفَعْلِ ! وَضُرِبْتَ ضَرْبًا مُبَرِّحًا ،
وَلَمْ تُرْفَعْ الْمَقْرَعَةُ عَنِّي حَتَّى حَلَفْتُ لَهُمْ أَلَّا أَزِيدَ عَلَى مَعْرِضِ الْوَالِدِيِّ
وَاقْتِصَادِهِ . فَأَقَمْتُ عَلَى هَذَا إِلَى الْيَوْمِ .

وما زال عنه إلى أن توفى .

*
* *

(١) عندى الخ : أى قائلا عندى الخ ، وقد سبق للؤلؤف مثل هذا الأسلوب .

(٢) لم أفد الخ : أى إنه رأى عنده إخوان والده جميعا .

(٣) هؤلاء الآباء : يقصد إخوان أبيه وأصفياه .

(٤) ولا يشفعون الخ : أى ولا يتسامحون لأجل مصلحتك في ذنب عظيم لم يكن
أبوك ليتجاوز عنه في سبيل إصلاحك .

ولما استفحل أمرُ ابنِ الخليج^(١) انحاز عنه جيشُ مصر إلى الإسكندرية ، وخلا الفُسطاط^(٢) منهم ، وكنت بمدينة أهناس^(٣) ، واضطربتِ النواحي ، واحتجتُ إلى مشاهدة الفُسطاط . فتخفرتُ بأربعة نفرٍ من القيسيّة^(٤) ، دفعتُ إليهم عشرين ديناراً ، وخرجتُ معهم فأحسنوا العِشرة وأجملوا الصُحبة . وكنا لا نجتاز بحى ولا جماعة

(١) هو محمد بن علي ، يسميه بعض المؤرخين مرة بالخلنجي ، ومرة بالخليجي ، وثالثة بالخليج . كان من جنود مصر فخطر له ، بعد زوال الدولة الطولونية ، أن يظهر النصره لهم ، فتبعه جماعة ، وحارب والى مصر عيسى النوشري ، فانتقل عيسى إلى برج الحيزة ، فبقيت مصر بلا وال ، وأصبحت مأكلة للغوغاء يهجمون على البيوت وينهبون الأموال . ودخل مصر سنة ٢٩٢ ثم فتح الاسكندرية ثم جاء جيش من العراق فأدبر أمره وانهمزم وقبض عليه في رجب سنة ٢٩٣

(٢) كان عمرو بن العاص عند غزوه مصر قد نصب له فسطاطا قبل الحصن ، فلما تم له فتح مصر واستأذن عمر بن الخطاب في السكنى ، قال له عمر : لا تنزل بالمسامين منزلا يحول بنى وبينهم فيه نهر ولا بحر ، فاستشار عمرو أصحابه . فقالوا : نرجع إلى فسطاطك فنكون على ماء وفسطاط . فرجعوا فسميت البقعة بالفسطاط وهي حول مسجد عمرو بالمكان المعروف بمصر العتيقة .

(٣) مدينة أهناس ” بالفتح “ : مدينة قديمة على الشاطئ الغربي من النيل قريبة من الفسطاط .

(٤) أعراب القيسيّة : كان بمصر صنفان من العرب : يمنيّة ، وأكثر القادمين على مصر لفتحها كانوا من اليمنيّة . وقد ورد على مصر بعد ذلك قوم من القيسيّة من مضر في خلافة هشام بن عبد الملك ، ثم تابع وفودهم إلى مصر .

إِلَّا كَفَوْنَا مُؤَنَّةً كَلَامِهِمْ ، وَصَدَفُوا ^(١) عَنَا بِأَسْهَمٍ . وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ دَابُّنَا حَتَّى بَلَّغْنَا قَصْرَ الْجِيزَةِ . فَأَقْبَلْتُ رَعْلَةً ^(٢) مِنْ الْأَعْرَابِ قَدَرْتُهَا بِرَأْيِ الْعَيْنِ نَحْمِسِينَ فَارِسًا ، كَانَتْ مِنْ غَيْرِ حَيْبِهِمْ . فَصَمَّمْتُ نَحُونَا بِرِمَاحِهَا ، وَعَمِلْتُ عَلَى نَهْنِهَا وَقَتَانِهَا ، وَرَأَيْتُ الْمَوْتَ فِي أَسْتَتِهِمْ . وَأَحْسَنَ الْأَرْبَعَةَ الَّذِينَ تَخَفَّرْنَا بِهِمْ لِقَاءَهَا وَالتَّضَرَّعَ إِلَيْهِمْ ، وَنَاشَدُوهُمْ أَلَّا يُخْفِرُوا ذِمَّتَهُمْ ^(٣) ، وَأَجْمَلُوا التَّائِيَّ ^(٤) حَتَّى انْصَرَفُوا . وَجَدَدْنَا فِي السَّيْرِ حَتَّى اتَّهَيْنَا إِلَى حَيِّ الْمُخَفَّرِينَ ^(٥) لَنَا . فَقَالَ الْمُخَفَّرُونَ : قَدْ بَلَغْتَ إِلَى مَنْ تَأْمَنُهُ فَحُطَّ رَحْلُكَ ، فَمَا تَسْتَقِلُّ ^(٦) دَوَابُّكَ الزِّيَادَةَ عَلَى هَذَا السَّيْرِ . فَزَلْتُ وَتَقَدَّمْتُ إِلَى الْغُلَمَانِ فِي إِطْعَامِهِمْ ، وَلَمْ أَجِدْ

(١) صدفوا : صرفوا .

(٢) رعلة : قطعة قليلة من الخيل كالرعيل ، أو مقدمة الخيل ، أو قدر العشرين أو الخمسة والعشرين ؛ جمعها رعال وأرعال وأراعيل .

(٣) يخفروا ذمتهم : يكونوا سببا في نقض عهدهم .

(٤) التائي : في الأصل : التائي .

(٥) المخفرين : خفره بالتشديد : خفره .

(٦) تستقل : تطيق .

للطعام مَسَاغًا من قَرَطٍ مَالِحِ قِنِي من الرَّوْعِ . وَعَمِلت في المُخْفَرين هذه
الآبيات :

جَزَى اللهُ خيراً مَعَشراً حَقَنُوا دِي وقد شَرِعتُ نَحْوِي المُنْقَفَةُ السُّمُرُ
دَرَاهِمُهُمْ مَبذُولَةٌ لضعيفهم وأعراضهم من دونها الغفر^(١) والسترُ
إذا ما أغاروا وأستباحوا غَنِيمَةً أغار عليهم في رحالهم^(٢) الشُّكْرُ
وإن نزلوا قَطْرًا من الأرض شاسعاً فما ضَرَّهُ إلا يَكُونُ به^(٣) قَطْرُ

فَلَحَظَنِي واحدٌ منهم ، وأنا أكتبُها ، فظنَّ أنِّي أكتبُ إلى السلطان ،
فَأَشْتَكِي ما كان من الفُرسان الذين لَقُونَا بقصر الجيزة . فقال :
قد سلَّمك اللهُ من أولئك القوم ، وقد أحسنوا إلينا في حُسنِ الإجابة
لنا ، فلا تكتبُ فيهم بشيء . فقلت والله ما كتبتُ فيهم ولا في غيرهم
إلى السلطان بشيء ! فقال لي شيخ من المُخْفَرين (وقد قُرِبَ مِنِّي) :
فما تكتبُ ؟ قلت : أكتبُ أبياتا مَدَحْتُكم فيها . فقال : وإنَّك

(١) الغفر : السَّتر . وأغلب الظن أنه يريد بالأعراض هنا النساء .

(٢) أغار عليهم الخ : أى هجم عليهم شكر الناس من كل مكان لأنهم يبذلون
ما نالوه من غنائم .

(٣) به : في الأصل بها ، ويمكن توجيهه .

لتقرض الشعر؟ قلت : نعم . قال : أنشدني على اسم الله . فأنشدته
إياها . فقال : بركَ اللهُ ووصلَكَ ! ثم صاح بالثلاثة ، فلما اجتمعوا
أنشدهم إياها فما حرم - شهد الله - حرفاً واحداً ، فعجبتُ من حفظه
لها ، ولم أعد عليه حرفاً منها . وتبينتُ الفرحَ في سائرهم ، وحفظوها
بأجمعهم . ثم صاح بهم الشيخ : ما تنتظرون ؟ ارحضوا ^(١) السؤارة
عنكم ! فأدخلوا أيديهم في جيوبهم ، وجمعوا شيئاً أخذه الشيخ منهم .
ثم قال لي : قد شكرنا صنيعتك ، والله لا نجمعُ بين شعرك ووفرك !
ووضع العشرين الدينارَ بين يديه ، فأكبرتُ ذلك وأعظمته .
فقالوا لي : الصوابُ ألا يعلمَ بها عشيرتنا فيرجعَ عليك منها أكثرُ مما
خفته ممن لقيك بقصر الجيزة ^(٢) ، وركبتُ فسرْتُ مع جمعٍ كثيرٍ منهم ،
وهم يُنشدون تلك الأبيات . فالتمستُ أن يقبلوا مني برّاً فلم أصل
إلى ذلك ، ورأوا أنّ الشعرَ أحسنُ موقعا مما ملكته .

*
* *

(١) ارحضوا : رحض القدر كمنع : غسله وأزاله . كارحضه ، والكلام على
المجاز ، يقول : أزيلوا عنكم العار وهو أن تحرسوا . ال شاعراً قال في مديحك شعرا .
(٢) الصوابُ ألا يعلم الخ . نصحوه ألا يذيع أنه عرض عليهم مالا لحراسته
وإلا آذته عشيرتهم لو علموا بذلك بعد أن شاع مدحه لهم فان مجرد عرض المال
عليهم بعد مدحهم يعدّ أكبر مدقة لهم .

ونزل في حارتنا غلاماً أمرداً تأخذه العين^(١) ، وكنت أسلم^و عليه إذا اجتزت به كما أفعلُ هذا بغيره من جيرتي . فانصرفت يوماً إلى منزلي ، فوجدته قائماً على بابه ، فدفع إلى رُقعةٍ يذكر فيها أنه عباسي من ولد المأمون ، ويسألني فيها برّه . ودخل من كان معي بدخولي ، فقضيت شغلي بالجماعة حتى انصرفوا ، ووضعت المائدة بيني وبين العباسي فأكلنا، وهو يتأملني فلا يجد في شيئاً قدره . فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنائير ، واعتذرت إليه من تقصيري في حقّه وانصرف ، وقد رأيتُ تجميل في حاليق^(٢) عينيه .

فلما كان بعد ذلك بسنّيات^(٣) ، وأنا في ضياعٍ تقبلت^(٤) بها ، ولي فيها غلّةٌ بمالٍ جسيم ، نَحِفتُ أن أدخلَ الفُسْطاطَ

(١) تأخذه العين : تتجه إليه في إعجاب أشدّه جماله .

(٢) حلاق العين بالكسر والضم : له معان منها بياض المقلة .

(٣) سنّيات : سنوات قليلة .

(٤) قبل العامل بالعمل كنصروسمع وضرب قبالة (بالفتح) تكفل به وضمن لإنجازه ، وقبّلت العامل العمل فتقبّله طلبت إليه أن يكفل إتمامه . فقبل الكفالة وتعبير المؤلف (تقبل به) والقبالة في هذا العهد كانت أن يأخذ الرجل أرضاً من السلطان أو غيره على أن يؤدي كل سنة كذا قنطاراً أو كذا إردبا .

فَتَخَرَّبَ الضِّياعُ وتتعطل عمارتها ، فكنت أكنُّ نهاراً في بعض
منازل الفلاحين ، وأظهرُ ليلاً فأعقدُ ^(١) منها ما تهبُّ لي عقده .

فإني لكامنٌ في يوم من الأيام حتى سمعتُ رجَّةً شديدةً ، فدخل
إليَّ بعضُ غلماني . فقال : دخل أصحاب دميانة ^(٢) الضيعة وعمِلوا
على نقلِ الغلاتِ . وأيقنتُ بتلف أكثرِ ما أملكه ، ثم سكنتُ
أصواتهم ، ودخل إليَّ غلام لي . فقال لي : يا مولاي ! كانت هذه
الضياعُ قد أشفَّت ^(٣) على نقل ما فيها ، حتى نظر إليَّ العباسيُّ الذي
كان في جوارنا . فقال لي : ألسْتَ غلامَ أحمد بنِ يوسف ؟
قلت : نعم . قال : فهذه ضياعه ؟ قلتُ : نعم . فصاح بالجماعة
التي دخلت من أصحاب دميانة : ” انرجوا بأسرِّكم عنها ” فخرجوا

(١) أعقد : أجمع من حاصلها .

(٢) هو دميانة البحري ، غلام يازمان . كان من القواد البحريين استدعاه
محمد بن سليمان الكاتب أن يقفل بمراكبه إلى مصر في ولاية شيبان بن أحمد بن طولون .
فوصل إليها في ثمانية عشر مراكباً حريباً مشحوناً بالرجال والسلاح ، وذلك في صفر
سنة ٢٩٢ . وبعد أن دمر كثيراً من قراها ونهب كثيراً من أموالها أمره عيسى
النوشري بالانصراف والرحيل عنها (النجوم الزاهرة) .

(٣) أشفَّت : أشرفت وأوشكت . يقول : كاد أصحاب دميانة يتهبون من نقل
كل ما في الضياع من الغلة .

ثم قال لى : قل لمولائك يا سيدي محلي عند الأمير دميانة محل الأخر،
فاظهر واركب إليه فقد آمنك الله على نفسك ومالك .

فسألت الغلام ما كان زيه؟ فقال : كان عليه كساء صوف مما ينام فيه،
وتحته خفتان^(١) فأحضرت بعض مشايخ الضيعة ، وحملت إليه دراعة
نخز كحليّة ومطرف^(٢) نخز وحمسين ديناراً، وسألته أن يقبل ما يحتاج إليه
من ناحيتي . فقبل الدراعة الخز ورد المطرف والدنانير . وقال لرسولي :
والله لثلاثة الدنانير التي وهبها لى لشرفي لا لشيء مما ظننته به
أحسن موقعا عندي مما رددته إليه ! فكثر الله في الناس مثله !
فلم يزل عضدا لى وسترا على حتى أنصرف دميانة عن الناحية .

* *

وحدثني يحيى بن الفضيل^(٣) عن يحيى بن نجة (وكان هذا الرجل
حسن الكتابة) . قال :

(١) خفتان : ثوب كانت تلبسه الجنود عادة . جاء في سيرة البلوي : وعليهم
الخفتان والمناطق .

(٢) المطرف بصيغة اسم المفعول : رداء من نخز مريع ذو أعلام .

(٣) شاعر مصرى قال في هجاء عبسة بن إسحاق الذى ولى مصر سنة ٢٣٨ :

خارجيا يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعا صوابا

ترددتُ إلى عمر بن فرج الرُّحْجِيِّ^(١) مدةً ، فدخلت عليه في يوم
من الأيام . فقال : قد أنضيناك^(٢) ! قد استتمت في هذا
اليوم سنةً ! ووقع لي بتقليدِ عملي سنيً . واضطربتُ فيما أحتاج إلى
التجهيز به . فلما لم يبقَ عليَّ إلا نص رِكابي^(٣) برزتُ ظهري^(٤)

(١) هو عمر بن فرج بن زياد الرُّحْجِيُّ ، والرُّحْجِيُّ : نسبة إلى رنجج ، كورة
ومدينة من نواحي كابل بأفغانستان . وكان زياد جد عمر من سبي معن بن زائدة
في غزوة رنجج ، كما كان أبوه فرج مملوكاً لخدمونة بنت الرشيد ولحق ولاؤه بالرشيد
فولاه الأهواز ثم عزله عنها وكان عمر وأبوه فرج من أعيان الكُتاب أيام المأمون
إلى أيام المتوكل ، وكان عمر واليا على دمشق للعصم بن الرشيد . ولما توفي الواثق
وتولى المتوكل أمر بحبس عمر هذا سنة ٢٣٣ . وفي هذه السنة توفي عمر
(الوزراء - معجم البلدان) .

(٢) أنضيناك : سببناك الهزال من طول ما سعت وترددت علينا في طلب
عمل لك .

(٣) نص رِكابي : نص الرجل ناقته : استخرج أسرع ما عندها من السير .
والركاب : الإبل واحدها راحلة : يقول إنه تجهز ولم يبق إلا الإسراع بالسفر
إلى مكان عمله .

(٤) الظهر : الإبل .

وَوَقَفْتُ عَلَى بَابِ دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنتَصِرِ^(٢) أَنْتَظِرُ
تَوَدِيعَ عُمَرَ وَالخُرُوجَ إِلَى عَمَلِي ، فَرَأَيْتُ غِلْمَانَ عُمَرَ يَتَسَلَّلُونَ ،
فَسَأَلْتُ عَنِ السَّبَبِ فَقِيلَ لِي : سَخِطَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عُمَرَ ، فَخَرْتُ
وَخِفْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِي فَأَخْسِرَ جَمِيعَ مَا أَنْفَقْتُهُ ، فَأَتَى لِي تِلْكَ
الْحَيْرَةَ حَتَّى نَجَرَ عُمَرُ بْنُ فَرَجٍ وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ .
فَقَالَ لِي :^(٣) أَيْنَ كُلُّ مَنْ كَانَ مَعِيَ ؟ فَقُلْتُ : تَسَلَّلُوا لِلْحَادِثِ !
فَقَالَ : وَقَدْ وَكَّلَ بِي هَذَا الشِّيعِيُّ عَلَى أَنْ يَنْفِيَنِي إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ ،
وَلَمْ أُعِدِّ شَيْئًا وَلَا أُجِدُّ مَنْ يُعِدُّهُ لِي . قُلْتُ : هَذِهِ قُبَّةٌ^(٤) وَظَهَرَ^(٥)

(١) الثقل : متاع المسافر وحشمه .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن جعفر المنتصر . بويغ له بالخلافة بعد قتل المتوكل
في شوال سنة ٢٤٧ وكان عمره إذ ذاك خمسا وعشرين سنة . ومات سنة ٢٤٨ .
وكانت خلافته ستة أشهر . ومما يؤثر عنه أنه تقدم بالكف عن آل أبي طالب بعد
أن كانوا يضطهدون وترك البحث عن أخبارهم وأمر ألا يمنع أحد من زيارة
الحيرة حيث قبر الحسين رضي الله عنه (مروج الذهب) .

(٣) فقال لي : أي عمر بن فرج .

(٤) القبة : هنا رحل له عيدان تنصب وتغطى بالثياب ونحوها لمنع الحر والبرد

(٥) ظهر : ناقة .

تُقَلِّكُ ، وأنا أُضْحِكُ شُكْرًا على ما أسلفتنى من التقليد . فركب القُبَّةَ وأحضر الشيعي قُبَّةً ، وركبنا وأنا أعادله .^(١) ؛ وانتهى المسير بنا إلى نُرَاسَانَ^(٢) ، وكنا لا نُفْضِي من بُدَانِ نُرَاسَانَ إلى بلدٍ إلَّا وجدناه أغلظَ طبعا من البلد الذى فارقناه ، حتى بلغنا بُخَارَى^(٣) ؛ فرأينا قوماً فى نهايةٍ من غِلْظِ الطِّبَاعِ . فقال لى مُذْ رَأَى أتعجبُ منهم : كيف لو رأيتَ التركَ وبلدانهم ؟ يقتلون المستجير بهم ويُغيِّرُ بعضهم على بعضٍ فيهلكُ النازعُ إليهم بينهم . فزادنى هذا القولُ تهيُّباً للسيرِ معه . ثم ملكتُ ما استغربَ^(٤) منى وتماسكتُ ، وجدد بنا السيرُ عن بُخَارَى إلى أرضِ التركِ ، وإنى معه فى القُبَّةِ وهو يحدثنى بشيءٍ قد شغلنى عن تَبَيُّنِهِ ما يُقْلِقُنِي من رُكُوبِ ما أقدمتُ عليه من الخَطَرِ ، حتى سمعنا

(١) أعادله : أجلس فى الجانبِ المعادلِ له .

(٢) نُرَاسَانَ : بلادٌ واسعةٌ ، أوَّلُ حدودها ممَّا بلى العراقَ ، وآخرُ حدودها ممَّا بلى الهندَ ، وتشتملُ على أمهاتٍ من البلادِ ، منها نيسابورٌ وهراتٌ ومروٌ وغيرها . وكانت مروٌ قصبتهما (معجم البلدان) .

(٣) من أعظمِ مدنِ ما وراءِ النهرِ ، بينها وبين سمرقندِ ثمانية أيامَ ، نبعُ منها عددٌ عظيمٌ من رجالِ الإسلامِ فى كلِّ علمٍ وفنٍ .

(٤) ملكتُ ما استغربَ منى : قدرتُ على كبحِ دمعى . يقالُ : استغربَ الدمعُ :

حَلَقَ الْبَرِيدَ ، فَتَشَوَّفْنَا لَهَا ^(١) ، وَوَأَقَى بِهَا رَسُولُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَكُتَابُهُ
بِمَا أَمَرَهُ ^(٢) بِالْحَضْرَةِ مِنَ الرِّضَا عَنْهُ وَرَدَّهُ إِلَى مَرْتَبَتِهِ ، وَيَأْمُرُهُ
فِيهِ بِكَشْفِ مَدَنِ نَخْرَاسَانَ وَتَجْرِيدِ عُقُودِهَا ^(٣) عَلَى أَصُوبٍ مَا اسْتَقَرَّتْ
عَلَيْهِ ، وَاسْتِثَارَةِ التَّوْفِيرِ بِهَا وَالزِّيَادَةَ فِيهَا .

فَلَمَّا اسْتَمَّتْ قِرَاءَتُهُ ، حَمِدَ اللَّهُ وَأَلْقَى الْكِتَابَ إِلَى . وَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ
فِي الْخِلَاصِ وَهَذَاكَ الْمَزِيدَ ! وَرَدَّ إِلَى تَأْمَلٍ ^(٤) مَا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
مِنْ كَشْفِ عُقُودِ النُّوَاحِي .

فَانصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، مَعَ آرْتِهَانَ شُكْرِ الْمُعَامِلِينَ ^(٥)
وَإِحْمَادِ السُّلْطَانِ .



(١) لها : أعاد الضمير مؤنثا على البريد لأنه يريد خيل البريد .

(٢) أمره : المعروف : أمر به .

(٣) بكشف مدن الخ : المراد بكشف المدن هنا : التحقق من مقدار مساحة
الأراضي التي يؤدي عنها الزرع حراجا للخليفة ، والمراد بتجريد العقود : تخليص عقود
القبالات التي التزم الزراع فيها أداء مقدار معين من غلتها إلى الخليفة ، من كل
غش وتدليس .

(٤) ورد إلى تأمل الخ : وكلفني النظر فيما أمر به الخليفة من التحقق من صحة
عقود الزراع ومقدار مالديهم من الأراضي .

(٥) المعاملين : يراد بهذه الكلمة : من يحملون في أرض الدولة على أن يؤدوا
إلى السلطان في كل سنة مقدارا معيناً من غلتها .

وحدثنا أحمد بن يوسف^(١) . قال :

حبس أحمد بن طولون يوسف بن إبراهيم والدى فى بعض داره .
(وكان اعتقال الرجل فى داره يؤيس من خلاصه) فكاد ستره
ينتهك لحوف شمله .

وكان له جماعة من أبناء الستر^(٢) يحمل مؤنهما مقيمة عليه لا تنقطع إلى
غيره . فاجتمعوا وكانوا زهاء ثلاثين رجلاً^(٣) ، فركبوا إلى دار أحمد

(١) حدثنا الخ : يراد بضمير المتكلم : راوى الكتاب وهو عبد الله الفرغانى ،
وأحمد بن يوسف : هو المؤلف .

(٢) أبناء الستر : يراد بأبناء الستر والمستورين : الفقراء الذين يظهرون التجميل
تعقفا ويمنعهم شممهم من السؤال . جاء فى كتاب سيرة أحمد بن طولون للبلوى :
وحدث إبراهيم بن قراطغان ، وكان على صدقات أحمد بن طولون ، قال : قلت للأمر :
أيد الله الأمير ! إننا نقف فى المواضع التى جرت العادة بصدقة الأمير على من فيها من
المستورين والمستورات فتخرج إلينا الكف الناعمة المخضوبة نقشا أو تظاريف
والمعصم الرائع وفى الأصبع الخاتم الذهب . فقال لى : يا هذا ! كل من مد إليك يده
فأعطه ، فهذه هى الطبقة المستورة التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه فقال : "يحسبهم
أبْجَاهِلٌ أَعْزَبَاءٌ مِّنَ التَّعَفُّفِ يَعْرِفُهُمْ بِسِيَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْخَافًا" .

(٣) ثلاثين رجلا ، فى السيرة للبلوى : وكانوا نحو مائة رجل .

ابن طولون ، فوقفوا بباب له يُعرف بباب الجبل ^(١) ، واستأذنوا عليه ، فأذن لهم فدخلوا إليه ، وعنده محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ^(٢) وجماعة من أعلام مستورى مصر ، فابتدروا كلامه بأن قالوا : قد اتفق لنا (أيد الله الأمير) من حضور هذه الجماعة مجاسه مارجونا أن يكون ذريعة إلى ما نأمله . ونحن نرغب إلى الأمير في أن يسألنا عنا ليقف على منازلنا . فسألهم عنهم ، فقالوا : قد عرضت العدالة ^(٣) على أكثرهم فامتنع منها . فأمرهم أحمد بن طولون بالجلوس ، وسألهم تعريفه ما قصدوا له . فقالوا : ليس لنا أن نسأل الأمير مخالفة ما أمر به في يوسف بن إبراهيم ، لأنه أهدى إلى الصواب فيه ، ونحن نسأله أن يقدمنا إلى ما اعتزم عليه فيه : إن آثر قتله أن يقتلنا ، وإن

(١) باب الجبل : باب من أبواب قصر ابن طولون . وكان لكل باب اسم فمنها باب الميدان ، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وسمى باب الصوالة . وباب الخاصة ، وكان لا يدخل منه إلا خاصته . وأما ما كان مما يلي المقطم فسمى باب الجبل .

(٢) صحب الإمام الشافعي بمصر وتفقه عليه ، وحمل إلى بغداد في محنة خلق

القرآن ، وانتهت إليه الرياسة بمصر . توفي سنة ٢٦٨

(٣) العدالة هنا : عمل كانت تقوم به طائفة تشتهر بالصالح والتقوى وحسن

السيرة ، وهذا العمل هو الشهادة عند القاضى وتركية اليهود ونحو ذلك .

آثر غير ذلك أن يسلف^(١) بنا ، وهو في حل وسعة منه . قال :
ولم ذلك ؟ فقالوا : لنا ثلاثون سنة ما فكرنا في ابتياع شيء مما احتجنا
إليه ، ولا وقفنا بباب غيره . ونحن والله أيها الأمير نرتعض^(٢) البقاء
بعده مع السلامة^(٣) من شيء من المكروه وقع فيه . وعجوا بالبكاء بين
يديه .

قال أحمد بن طولون : بارك الله عليكم فقد كفاكم إحسانه ،
وجازيتم إنعامه ! ثم قال : يوسف بن إبراهيم^(٤) . فأحضره . فقال :
خذوا بيد صاحبكم وانصرفوا . فخرجوا معه وانصرف بهم إلى منزله .

*
*

قال : وطالبنى بعض عمال الخراج بمصر بمال زاد على
ما في حاصلتي ، فاحتجت إلى معاملة بعض التجار عليه ، فدلت على
رجل من أهل الشام يعامل برهون ، فصار إلى ، وأنا في بيت المال

(١) يسلف بنا : يقدم بنا .

(٢) نرتعض البقاء ، ارتعض فلان من كذا : اشتد عليه وأقلقه ، فالفعل متعد
بحرف الجر . ونظن المؤلف ضمته معنى : نكره .

(٣) مع السلامة : في الأصل : من السلامة ، وهو تحريف .

(٤) يوسف بن إبراهيم : أي أحضروا يوسف بن إبراهيم .

منه^(١) شَيْخٌ حَسَنُ الصُّورَةِ ؛ جَمِيلُ اللِّقَاءِ . فقال : إلى كم تحتاج ؟ قلتُ إلى مائتي دينارٍ . فأخرج من كُمِّه مالاَ فوزنه ، واستزاد من غلام كان معه دنائيرَ حتى أَكَلَ المائتين ، ثم سلّمها إلى واقضائي خَطًّا بها . وقال : قد كَفَيْتَ مَوُونَةَ الرهن . فقلت : فكيف أَكْتُبُ الخَطَّ ؟ قال : بمائتي دينارٍ ، كما أعطيتُك . فقلت له : سبيلُ المعاملة غيرُ هذا^(٢) . فقال : والله لا قَبِلْتُ منك فيها رِبْحًا ، ولو وهبْتُها لك لكان من أصغرِ حقوقك عليّ . ثم قال لي : تعرفني ؟ قلت : لا . قال : رَكِبْتُ مَرَجًا أريد الفُسطاط من تَنيس^(٣) ، وحملت فيه تجارة لي ما كنت أملك غيرها . حتى إذا بلغت المحلّة ، ووازيت ضياعا كانت

(١) فصار إلى الخ. في قوله فصار إلى منه تجريد. وللؤلف ولع بهذا الأسلوب واستعمله في هذا الكتاب مرات .

(٢) سبيل المعاملة الخ : يقصد أن الطريق في القرض عند أمثال هذا الرجل أن يزداد عليه شيء من الربح .

(٣) تنيس (بكسرتين وتشديد النون) : جزيرة في بحر مصر قريبة من البرّ ما بين الفرما ودمياط ، والفرما في شرقها . وينسب إليها خاق كثير من أهل العلم . وقد اشتهرت قديما بصناعة النسيج (معجم البلدان) .

في يدك ، كُسر بنا ، وغرق جميع ما أملاكه ، وسلبتُ بحُشاشة نفسي .
فخلست على الشَّطِّ أبكى وأنحَبُ ، فأقبلت في جماعة معك ، فسألتنى
عن حالى فأخبرتكَ بها ، فبئثت في حشد من يغوص على المركب
وما فيه ، وحططت^(١) على الشَّطِّ . فأخرجوا بزاً كان لى وتلف
ما سواه ، واستحلفتنى على ما ذهب لى فأخبرتكَ به ، وكانت قيمته
سبعين ديناراً ، فقسمتها لى على وكلائك وتُكَّابك . فلما حصلت لى
أعطيتنى دنانير من عندك ، وقلت لى : هذا أرش^(٢) ما لحقك
في الثياب . وأمرت أن يُكترى [لى] إلى تَنيس ، وكتبت لى إلى
جماعة مُعامليك بتَنيس بما لحقنى ، وبمعونتى على أمرى . فرجع بك
إلى ما أمالك واكتسبتُ جاها بتَنيس تضاعف مالى به ، وحسنت
معه حالى .

وأخذ خَطِّي بالمال وانصرف .

*
* *

(١) وحططت : يريد أقت حتى يتموا عملهم .

(٢) الأرش : التعويض .

وسمعتُ أبا العباسِ أحمدَ بنَ إسَاطم . يُحدِّثُ أبا الطَّيِّبِ
أحمدَ بنَ عليّ . قال :

لَمَّا سَخِطَ الْمُوفَّقُ ^(١) عَلَى صَاعِدٍ ^(٢) وَكَلَّ بِهِ مَنْ يَطَالِبُهُ ،
وَأَقْرَنِي وَالطَّائِيَّ ^(٣) عَلَى مَا كُنَّا نَنْقَلِدُهُ لَهُ . وَكَانَ صَاعِدٌ مُحْسِنًا
إِلَيْنَا ، جَمِيلَ الْعَشْرَةِ لَنَا ، فَلَمْ تَرَكَ شَيْئًا نَصِلُ إِلَيْهِ مِمَّا خَفَفَ عَنْهُ
إِلَّا بَلَّغْنَاهُ . وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّائِيَّ إِحْنَةً ، فَدَعَانِي الْمُوفَّقُ فِي يَوْمٍ
مِنَ الْأَيَّامِ ، وَنَحْنُ بِوَأَسْطِ ^(٤) . وَقَدْ بَلَغَ ^(٥) صَاعِدٌ ، وَاسْتَنْزَلَ الْمُسْتَخْرِجُ ^(٦)
جَمِيعَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْهُ . فَقَالَ لِي : أَحْمَدُ ! ادْخُلْ إِلَى صَاعِدٍ فَقُلْ لَهُ
أَظُنُّكَ أَرْضَيْتَ الْمُسْتَخْرِجَ حَتَّى فَتَرَ فِي مَطْلَبَتِكَ ، وَتَالَلَّهِ لَئِنْ لَمْ تُخْرِجْ
مُحْتَجِّبَكَ ، لِأَتَوَلَّيَنَّ تَعْدِيْبَكَ بِنَفْسِي ! فَدَخَلْتُ إِلَيْهِ وَأَدَيْتُ الرِّسَالَةَ .

(١) هو أبو أحمد طلحة بن الخليفة المتوكل على الله . كان من أجل ملوك بني
العباس رأيا وأسمحهم نفسا وأحسنهم تدبيرا . توفي سنة ٢٧٨ هجرية .

(٢) هو صاعد بن مخلد ذو الوزارتين كاتب الموفق ، انتقلت إليه الوزارة أيام
المعتمد بعد سليمان بن وهب ، ثم غضب عليه الموفق وعلى جميع أهله وأصحابه
ونهب منازلهم . وتوفي صاعد بعد هذا بأيام سنة ٢٧٠ هجرية .

(٣) هو أحمد بن محمد الطائي ، كان يلي للموفق الكوفة وسوادها وطريق خراسان
وسامرا والشرطة ببغداد . (الطبري) .

(٤) مدينة بالعراق ، اختطها المهاجج بن يوسف في سنتين بين الكوفة والبصرة .

(٥) بلغ : أدركه الإعياء والجهد .

(٦) المستخرج : من كلف مصادرة أمواله واستخراجها منه .

فقال لي : يا أحمدُ ! والله ما بقى لي شئٌ وما ملكت قطُّ ما هو أحبُّ
إلي من نفسي ! فتقولُ له : ياسيدى ! والله ما أملكُ على الأرض
ولا فيها ديناراً ولا درهماً ولا جوهراً ! وأنت أولى بالتطوُّل على
خادمك . فانصرفت من عنده ، وأنا أخاف أن يُغريه^(١) ذلك
الجوابُ . ودخلتُ إليه ، وقلتُ له : يقول لك ياسيدى ما أملك
على وجه الأرض ولا بطنها غيرَ مائةِ ألفِ دينارٍ عند الطائى فأمر
بإحضاره ، فلما مثَّل بين يديه . قال له : المائةُ الألفِ الدينارِ التى
لصاعد عندك ، قد بعث إلى يحلفُ أنه لا يملكُ غيرها . فقال له :
هى بمدينة السلام ، فيُنظرُنى الأميرُ مسافةَ الطريق ، وأنا أستسلفُ^(٢)
له ما تيسرُ منها من التُّجَّارِ هاهنا . فقال له : اكتبْ خطَّك بها .
فكتبه وسلّمه إلى الموقِّق ، فسلّمه إلى غلامٍ من خاصّته ، وانصرف
الطائى .

فاستقبحتُ ما صدرَ منى فيه ، وعظمتُ فى نفسى لتصديقه
صاحبه وتركِ مُعارضته بما يدفع به المرءُ عن نفسه ، فدنوتُ من
الموقِّق وقلتُ له : أيها الأمير ! جميعُ ما أديتُهُ إليك عن صاعدٍ منى

(١) يغريه : يغرى الموقِّق .

(٢) وأنا استسلف له : أوذى إليه مقدما .

تقولته، وقد قُبِحَ في عيني ؛ وسيدى الأميرُ مُخَيَّرَ بين الصَّفْحِ عنه^(١) والعقوبة عليه . فقال : أحسنت ، بارك الله عليك ! ثم أمر بردُ الطائيُّ فقال : لمَ لمَ تتقربَ إلى بذكر هذا المال ؟ فقال أيها الأمير ! ينعني ذلك ماتولاه^(٢) من اصطناعي . فقال له : ليس يُنعني إلا أن تحلفَ برأسى على هذا المال ، وفي أى وقت دفعه إليك . فقال : يُعني الأميرُ من ذلك . فقال : والله لا فعلتُ . فقال : وحقُّ رأسِ الأميرِ ماله عندي دِرْهَمٌ واحدٌ فضلاً عنه ! ولكنى لما رأيتُه قد عاذ بالدعوى علىّ ، تيقنتُ أنه لم يبقَ له حيلةٌ في المدافعة عن نفسه ، فعملت على تحمُّلِ هذا المال ، والله ما أملكه ! ورجوتُ أن أصل إليه بجاهى ولطيفِ حيلتى .

فاستحضر الموفق الخطَّ ودفعه إلى الطائيِّ ، فقال له : نحرَّقه . ثم تقدم بإعفاء صاعد من المطالبة .

*
*
*

(١) عنه : الضمير يعود على العمل الذى عمله .

(٢) تولاه : ضمير الفاعل يعود على صاعد .

وكان نجاح^(١) بن سلمة مع ما يؤثر عنه من زعارة^(٢)
أخلاقه ، وقبح تسلطه ، يحب التبسط على طعامه^(٣) ، ويحسن
المكافأة ، عليه^(٤) فحدثني يعقوب بن إسحاق بن تميم^(٥) . قال :

أقام إسحاق والدي ببغداد خمسا وعشرين سنة في رفع حسابه ينقض
الكتاب جماعته ، ويسلطون الإعنة عليه^(٦) . قال لي يعقوب :

(١) هو أبو الفضل نجاح بن سلمة الكاتب ؛ كان على ديوان التوقيع والتبعية
على الهمال . وكان نديما للتوكل ، توفي سنة ٢٤٥ هجرية .

(٢) زعارة أخلاقه : شرستها .

(٣) يحب التبسط الخ : يحب إقبال الناس على طعامه وعدم احتشامهم منه .

(٤) ويحسن المكافأة عليه : أي إنه يكافئ كل من يسره بالإقبال على طعامه .

(٥) هو أبو يوسف الكاتب يعقوب بن إسحاق بن تميم . ممن دخل مصر مع ابن
طولون . وكان باجك قرنه به . ثم غضب عليه ابن طولون في أمر كان بينه
وبين أخيه موسى وتصرف فيه يعقوب بما أغضب ابن طولون فسجنه في المطبق
ثم عفا عنه . وغادر مصر إلى سر من رأى حيث أهلته وأقام بها . وكان على اتصال
بإبن طولون .

(٦) كان إسحاق عاملا من عمال الخليفة وكان عليه أن يؤدي حسابا عما جمعه
من الأموال والغلات . ويظهر أنه أقام هذه المدة ببغداد لتعنت الكتاب في محاسبته
ولأنه كلما أوشك حسابه أن ينتهي مات الكاتب أو عزل ، فابتدئ معه الحساب
من جديد .

فحدثني أبي أن أغلظ الكُتَّاب بأسرهم كان نجاح بن سلمة . قال :
فلما أفرط على سوء تحكُّمه ، جلست في منزلي .

فمر به اسمي ، فقال : قد عزم إسحاق بن تميم على أن يتربص بنا ،
كما كان يتربص بمن كان قبلنا^(١) ! ثم نظر إلى بعض المضمومين
إليه ، فقال : بكر إلى إسحاق بن تميم فأحضره الدار إلى أن أنصرف^(٢) .
قال : فباكرتني فظُّ من الجند لم أملك نفسي معه حتى صار [بي]
إلى دار نجاح . فوجدناه قد ركب فخصَّلتني^(٣) على الباب ، وجلس
معي ، وتعالى النهار ، واشتدَّ جوعي . فقلت له : أمض معي إلى
المنزل لنا كلَّ جميعاً ونرجع ، فأبى . فقلت لحاجب نجاح (ورأيتك متمكناً
من داره) : أصلحك الله ! إنني قليلُ الصبر على الجوع ، وأخافُ
أن يتأخر الأستاذ^(٤) ، وأضعف عن حجتي في حضوره بغلبة الصفرَاء
عليّ ، وقد سألتُ هذا الرجل أن يُطابق لي الذهاب إلى منزلي لا كلَّ

(١) يتربص بنا : ينتظر موتنا أو عزلنا .

(٢) إلى أن أنصرف : أي وأبقه بالدار إلى أن أنصرف من الديوان وأحضر
لأراه .

(٣) خصَّلتني : أي الجندی والأصل في التحصيل الجمع ويريد هنا : حجزني .

(٤) الأستاذ : الرئيس .

وَأَرْجِعَ فَأَبَى . قَالَ : لِمَ لَا تَأْكُلُ هَاهُنَا ؟ وَأَجْلَسَنِي فِي سَاحَةِ ^(١) فِيهَا ^(٢) . وَاسْتَحْضَرَ الطَّعَامَ ^(٣) ، فَأُحْضِرْتُ مَائِدَةً نَجَاحَ بْنِ سَلَمَةَ ، وَلَمْ يَبْقَ حُلُوٌّ وَلَا حَامِضٌ وَلَا حَارٌّ وَلَا بَارِدٌ إِلَّا نُقِلَ عَلَيْنَا . حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ إِلَى الْحُلُوءِ مِنَ الطَّعَامِ دَخَلَ الدَّارَ نَجَاحٌ بِفِطْرٍ فِي الْمَجَالِسِ ^(٤) . وَرَأَى فِي دُخُولِهِ وَمَكَانِي مِنَ السَّاحَةِ ، فَبَعَثَ إِلَى غَلَامَا لَهُ [يَقُولُ] : بِحَيَاتِي اسْتَمَّ أَكْلَكَ ؛ وَلَا تَجُوزُ فِيهِ ^(٥) . فَأَقَمْتُ حَتَّى فَرَغَ الطَّعَامَ ؛ وَجَاءَنِي بِالْغُسْلِ ^(٦) وَالْبَخُورِ ، ثُمَّ قَمْتُ . فَلَمَّا رَأَى ضِحْكَ إِلَى ، وَقَالَ : مِنْ عَلَمِكَ عَلَى هَذَا ^(٧) ؟ قُلْتُ : التَّوْفِيقُ . قَالَ : أَجَلٌ . ثُمَّ قَالَ لِي : ارْفَعْ حِسَابَكَ كَيْفَ شِئْتَ وَأَحْشُهُ ^(٨) فَقَدْ أَمَّنَكَ اللَّهُ مِنْ اعْتِرَاضِكَ بِشَيْءٍ تَكْرَهُهُ .

(١) فِي الْأَصْلِ رَسِمَتِ الْكَلِمَةِ هَكَذَا : (بِنَحْوِهِ) .

(٢) فِيهَا : فِي الدَّارِ .

(٣) وَاسْتَحْضَرَ الطَّعَامَ : طَلَبَ حَضْرَهُ .

(٤) فِي الْمَجَالِسِ : أَيْ فِي الْمَجْرَةَ ذَاتِ الْمَجَالِسِ الَّتِي يَسْتَقْبَلُ فِيهَا زُورَاهُ .

(٥) لَا تَجُوزُ ، لَا تَخْفَفُ .

(٦) الْغُسْلُ : الْمَاءُ يَغْسَلُ بِهِ .

(٧) مِنْ عَلَمِكَ الْخ : أَيْ مِنْ أَرشِدِكَ إِلَى أَنْ خَيْرَ وَسِيلَةٍ لِرِضَايَ وَمَعُونَتِي لِأَيِّ

إِنْسَانٍ أَنْ يَقَاسِمَنِي طَعَامِي .

(٨) وَأَحْشُهُ : أَيْ وَأُضْفِ إِلَيْهِ مِنَ النِّفَقَاتِ مَا شِئْتَ .

قال يعقوب : قال لي أبي : فغدوت إليه بحسابي ؛ فوالله ما زاد على التوقيع في الجماعات^(١) بامضائها وتخليدها^(٢) : ثم قال : متى تعزم على بلدك ؟ فقلت ياسيدي ! إنما انتظر فيه إذنك ، فكلُّ شيء لي مفروغ^(٣) منه . فقال : اجعله بعد صلاة الجمعة . قلت : أفعل . ثم قال لي : تروح إلى لألقاك في حوائج لي ، فقدرتُ أن يجملني في الحوائج غرم الألف الدينار^(٤) .

فلما رحتُ إليه دخلت ، وهو خالٍ . فقال لي : إنك ترجعُ إلى بلد قد يئس منك فيه أهله ، فأدخل الجار من جيرانك الخشبة في حائطك ، والجار في البستان قد تحيف حدودك ، فهب لي ما بينك وبينهم^(٥) . قلت : أفعل . قال : وترى ببلدك جماعة قد ارتفعوا ، أبناء خاملين فلا تنهرهم بدقة أصولهم ، والصدق عما كان عليه سلفهم ،

(١) الجماعات : حواصل الجمع .

(٢) وتخليدها : قيدها في سجلات الدولة .

(٣) مفروغ : اتصلت الفاء بالخبر لإفادة المبتدأ العموم .

(٤) يجملني في الحوائج الخ : يقصد أنه يكلفه أشياء فيها غرم نحو ألف دينار .

(٥) فهب لي الخ : أي تجاوز عن ذلك وسامح فيه لأجلي .

فإنه يزرعُ لك المقتَ في قلوبهم . قلت : أفعلُ . قال : واصحابَ
البريد^(١) ، فاحذر أن يردَ في كتبهم ذِكْرُك بغيرِ ولا شرًّا . قلت :
أفعلُ . ثم أوماً إلى يعانقني . قلت : ياسيدي ! حوائجك ؟ قال : هي
ما عدته عليك . إنك قد حللت منى بانبساطك محلَّ القرابة^(٢) الذي
أسرَّ بصوابه ويغمنى زلله ، فإن حزبك^(٣) أمرٌ في بلدك فلا تعدل به
عني ، وأنا استودعك الله . فانصرفت عنه وأنا على غايةٍ من الشكر .

*
*

وحدثني محمد بن يزيد^(٤) (وكان حسنُ التقشف ، شديدُ الرأى)

قال :

أطلق جماعةً من حبس أحمد بن طولون كانت قد وقعت بهم ظنةٌ
بالتلصُّص ، وكانوا ينزلون كورةً أهناس . فأتى عند بعض أصحاب

(١) أصحاب البريد كان إليهم نقل أخبار الولاة والناس إلى الخليفة . وقد
أشار الامام أبو يوسف في رسالة الخراج التي بعث بها إلى الرشيد إلى وجوب
حسن اختيارهم ، فقال بعد كلام طويل : ومتى لم يكن أصحاب البرد والأخبار
في النواحي ثقات عدولا فلا ينبغي أن يقبل لهم خبر في قاض ولا وال .

(٢) محل القرابة : أي محل ذى القرابة ، وهو استعمال سائق .

(٣) حزبك : نابك واشتد عليك .

(٤) هو محمد بن يزيد الواسطي . كان من البارزين بين علماء الكلام . توفي

الأكسية حتى وافاه غلام أصفر ، خبيث المنظر ، متمكن من نفسه^(١) من الخارجين من الحبس . فرحب به ، وجلس عنده ، وهنأه بسلامته . ثم سأل عن حاله . فقال : خرجت من الحبس كما تراني وما معي نفقة تُبَلِّغني منزلي ! فقلت له : ما اسمك ؟ فقال : مسافر . فقلت له : يا بُنَيَّ قَدِّمَ اللهُ في أمورك ولا تعدل عنه ، فإن الراحة في ظله . فقال لي : ياسيدي ! الحق فيما قلته ، والنفس أمارة بالسوء ، والتوفيق إلى الله دون خلقه . فأعجبني جوابه وقلت له : كم يكفيك إلى منزلك ؟ فقال : دينار ، فدفعته إليه وقلت له : إذا حدثتكَ نفسك بإخافة السبيل فابعث إليّ حتى أُمسِكَ من رَمَقِكَ ، وأُكفِّ فاقَتَكَ .

فما مضى شهر حتى اضطربت ناحية أهناس والبهنسا^(٢) بتسلط رجل من اللصوص ، في جمع كثير على كثير من المواضع وكبسهم الضياع . وكانت لي أسلاف^(٣) بسُمسطا^(٤)

(١) متمكن من نفسه : مغتر بنفسه واثق بها .

(٢) البهنسا : مدينة بصعيد مصر غربي النيل وبظاها مشهد يزار وينسب إليها جماعة من أهل العلم (معجم البلدان) .

(٣) أسلاف : قروض .

(٤) سُمسطا : قرية من الصعيد الأدنى في الناحية الغربية من النيل .

ونواحيها ، ففرجت لَقْبِضِهَا فِي رُفْقَةٍ مِنَ التُّجَّارِ قَدْ حَمَلُوا الْبَزَّ وَالطِّيبَ
وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْأَرْيَافِ . فَإِنَّا بِنَوَاحِي الْمَحْرَقَةِ حَتَّى لَقِينَا قِطْعَةً مِنْ
الْلُصُوصِ فَسَاقَتْنَا بِأَسْرِنَا إِلَى مَوْضِعٍ مَنقَطَعٍ عَنِ الْمَازَةِ ، وَفِيهِ شَابٌّ
أَصْفَرُ رَاكِبٌ فَرَسٍ ، وَمَعَهُ مَقْدَارُ خَمْسَةِ فَوَارِسَ . فَعَرَضَتِ الْجَمَاعَةُ
عَلَيْهِ إِلَى أَنْ بَلَغَنِي فَتَأَمَّلْتُهُ فَوَجَدْتُهُ مَسَافِرًا ، فَأَكَبَّ عَلَى رَأْسِي ،
وَتَحَنَّنَ بِي ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : أَخْطَأَ وَاللَّهِ خَزْرُكُم ! هَذِهِ رُفْقَةٌ
شَيْخِي وَسَيِّدِي ، وَوَاللَّهِ لَا دَخَلَ إِلَى مِنْهَا شَيْءٌ ! وَسَارَ مَعَنَا حَتَّى
أَخْرَجَنَا إِلَى الْأَمْنِ . ثُمَّ قَالَ لِي : أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَأْكُلُ طَعَامِي ،
وَلَا تَقْبَلُ شَيْئًا مِنِّي ، وَقَدْ وَاللَّهِ يَا سَيِّدِي حَبِيتَ إِلَيَّ مَجَانِبَةً مَا أَنَا
بِسَبِيلِهِ ! فَنَشَدْتُكَ اللَّهُ لِمَا ^(١) جَعَلْتَنِي طَرِيقَكَ فِي الرَّجْعَةِ !
فَتَضَمَّنْتَ لَهُ ذَلِكَ .

ودخلنا مدينة أهناس ، فشاع خبر ما أولاني في الناس .
وكان المتقلد لها رجلا من أصحاب أحمد بن طولون يُعرف
بفهم ، متقدما عنده ، أثيراً لديه ^(٢) ، فبعث إلى وعرف مذهبي .

(١) لما : إلا .

(٢) أثيراً لديه : مقرباً عنده محبوباً .

فقال : قد أَحْفَيْتُ^(١) المسألةَ عن هذا الغلام فرأيتُه لا يرى القتلَ ،
ولا هَتَكَ الحريمَ ، وإنما يتعلَّقُ بأطرافِ الأموالِ ولا يبلغُ الاجتياحَ^(٢)
وأنا أسألكَ أن تَسْفِرَ^(٣) بِنِي وبينهم . فَإِنِّي أُوْمِنُهُ وَأُكْرِمُهُ وَأُقَلِّدُهُ سِيَارَةَ^(٤)
البلدِ . فرجَعْتُ في حاجةٍ فَهَمَّ إليهِ ، فألفَيْتُهُ ، والجماعةُ بين يديه ،
فأدْبَيْتُ إليهِ رسالَتَهُ ، وأعلمتُهُ أنَّ هذا الرجلُ صحيحُ الضمانِ . فقال :
يا سيِّدِي ! ما بِنِي وبينه في الأعمالِ إِلَّا أَنَسُ النَّاسِ بِهِ^(٥)
ثم قال لأصحابه : مَنْ يُسَاعِدُنِي على الخروجِ إلى الله (عزَّ وجلَّ)؟^(٦)
فقالوا بأجمعهم : نحن . فسار معي حتى إذا قُرُبْنَا من أهناسٍ وضع
حبلا في عُنْقِهِ ، وقال : أَدْخُلْ بِي في زِيِّ الْأَسْرَى وهذه الجماعةُ^(٧) ،

(١) أَحْفَيْتُ المسألةَ : أكثرت من السؤال وكررت .

(٢) الاجتياح : الاستئصال .

(٣) تسفر : تكون سفيرا ووسيطا .

(٤) سيارة : مصدر من " سار " دالّ بصيغته على الحرفة ، ويظهر أن سيارة
البلد كانت وظيفة في هذا العهد ، يقصد بها حسن السير بالبلد ، وصيانة الأمن
والنظام به . وقد استعمل صاحب " النجوم الزاهرة " هذه الكلمة بهذا المعنى .

(٥) ما بِنِي وبينه الخ ، يقول إنني لا أطلب منه فيما يعمل إلا أن يأنس
الناس به ولا يخافوه على أرواحهم وأموالهم .

(٦) من يساعدنِي الخ : أي من يساعدنِي على التوبة والرجوع إلى الله .

(٧) وهذه الجماعة : معطوف على الضمير في " بي " .

فدخلوا ، والناس يبكون لما اتَّفَقَ لهم من حسن الهداية ، ورأى
الناس مَجَّباً مِنْ سَوَقِ شَيْخٍ مِثْلِي ضَعِيفٍ رَجُلًا قَدْ أَعْجَزَ خَيْلَ
السلطان . فطلب فهِمٌ أَنْ يَقْبَلَ لَهُ خِلْعَةً فَأَمْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَضَافَ
أَصْحَابَهُ إِلَى فهِمٍ . وَأَقَامَ إِلَى وَقْتِ الْحَجِّ فَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ رَاجِلًا ،
ثُمَّ فَقَدَتْهُ .

*
*

وحدَّثني أبو حبيب المقرئ . قال :

ضاقَت أحوالي فلم تُبْقِ^(١) لي إلا جاريةٌ أُحِبُّهَا ، وَمَنْزِلًا أَسْكُنُهُ .
فَبِعْتُ الْمَنْزَلَ بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَخَرَجْتُ إِلَى مَكَّةَ بِالْجَارِيَةِ . فَقُلْتُ لَهَا:
يَكُونُ هَذَا الْمَالُ فِي وَسْطِكَ ، فَكَانَتْ إِذَا نَزَلَتْ فِي مَنْزِلٍ حَفَرَتْ
فِي خَيْمَتِهَا حَفِيرَةً وَأَوْدَعَتْ الْمَالَ فِيهَا وَطَمَّتْهَا^(٢) ، فَإِذَا نُودِيَ
بِالرَّحِيلِ أَثَارَتَهُ وَشَدَّتَهُ فِي وَسْطِهَا .

قال : فَاتَّفَقَ أَنْ رَحَلْنَا عَنْ مَنْهَلٍ ، وَنَسَيْتِ الْمَالَ فِي الْحُفْرَةِ ،
فَأَخْبَرْتَنِي الْجَارِيَةُ بِذَلِكَ . قال : فَخَارَ فِكْرِي ، وَطَاشَ رُوحِي ، وَلَمْ أَدْرِ

(١) فِي الْأَصْلِ : يَبِيقُ .

(٢) طَمَّتْهَا : دَفَنَتْهَا .

ما أعمل . ودخلنا مكة فحدثني نفسي ببيعها فلم يُطعني قلبي . فلما رجعنا ونزلنا المنهل الذي خلفت فيه الكيس ، رأيت صحراء ، وغلاماً على رابيةٍ يرعى غُزَيَاتٍ له ، وأقبلت أدورُ وأنظر إلى الأرض . فقال لي : ويحك ما تطلب ؟ قلتُ : شيئاً أودعته أرض هذا المنهل . فقال لي : صفه لي ، قلتُ : كيسٌ أحمر فيه مأل . فقال : وما لي فيه إن دلتك عليه ؟ قلت : نصفه . قال : ها هو ذاك في الرابية . فلما رأى تحييري^(١) فيه قام حتى أخرجه ، ووضعهُ بين يدي . فحمدت الله وقسمت الكيسَ قسمين وخيرته أحدهما^(٢) . فقال لي : إني أرى قسمي منه كثيراً ، وأنا أكتفي بنصف أحد القسمين ، فقسمته^(٣) قسمين . فقال : تقسمه أيضاً قسمين ، ففعلتُ . فقال : ما أعجب أمرك ! أتركه كله حراماً ونصفه حلالاً وأخذ منه شيئاً ؟ هذا ما لا يكون ، انصرف بمالك . فقلت له : يا غلام أنت حرٌّ أو مملوك ؟ فقال : مملوك . فقلت : لمن ؟ فقال : لشيخ هذا الحى .

(١) تحييري فيه : دهشتي منه .

(٢) خيرته : في العبارة إيجاز أى خيرته في أن يختار أحدهما

(٣) فقسمته : أى قسمت أحد القسمين .

فدخلتُ الحىَّ فألفيتُ الشيخَ ، والناسُ عنده . فقلتُ له : رأيتُ
غلاماً فى المنهلَ يرعى غنماتٍ ، وأسألك أن تبيعه . فقال : اشتريته
بعشرةِ دنانير . فقلت : أنا آخذه بعشرين . فقال : إن لم أبعه ؟ قلتُ
أعطيك به ثلاثين ديناراً . فقال لمن حوَّله : أما تسمعون ما يقول؟
وما يحملك على أن تبدلَ به هذا الثمنَ ؟ فقلت : جمع على ضالةٍ فقدَّرتُ
أن أعتقه ، وأبتاع الغنمَ [التي] ^(١) يراها له وأملكه إياها . فقال : قدَّرتُ
أن تفعل به هذا لفعلةٍ واحدةٍ من الجميلِ أولاكها ، ولنا فى كل يوم
منذ ملكناه حسنةً تقتضى أكثرَ مما نأتيه له ! وأنا أشهدُ الجماعةَ أنه
مُرُوجُه الله ، وأن ما يراه له .

فانصرفتُ عن الشيخ ، وقد بلغ لى ما أملتُه له .

*
**

وقلتُ يوماً لأحمدَ بنِ محمدِ المعروفِ بابنِ أبى عِصمةَ كاتبِ
أحمدَ بنِ طغان ^(٢) . (وكان لى صديقاً مصافياً) : قد كثرَ الناسُ

(١) زدنا ما بين القوسين ليستقيم الكلام .

(٢) يسمى فى بعض كتب التاريخ ابن قراطغان ، وهو من كبار قواد أحمد
ابن طولون . خرج حينما كان أميراً على الثغور على الأمير جيش بن نمارويه
لما ساءت سيرته .

في إصابتك مع بن طغان^(١) . فقال : ما أخطئوا في التكثير، وكان صاحبي سَمْحاً، ولقد أصابني منه في جهة واحدة ثلاثون ألف دينار، فسألته عن تلك الجهة . فقال :

كان لا يُمْسِكُ مالا ، ولا يَعْتَقِدُ ذَخِيرَةً^(٢) ؛ فقال لي يوما : لم يُصْبِحْ في حاصلِي درهم واحدٌ فاستسلف لي شيئا أَنْفَقَهُ . فمَضَيْتُ إلى منزلي فحَمَلتُ إليه ألفَ دينار ، فلَمَّا وَضَعْتُهَا بين يديه ، فتح الكيس وقلَّب ما فيه ، فلها رأى الدنانير صحاحا جيِّدة . قال : ما هذه دنانير صَيْرِي^(٣) فبِحياتي مِمَّنْ أَخَذْتَهَا ! فقلت له : كانت عندي . فقال : ما ظننتُ هذا موضعَكَ^(٤) ، وسكت .

وكان له في كل شهر ألف دينارٍ نُزِلَ^(٥) بِفِعْتِهِ به عند استيجابه إياه . فقال لي : ما هذا ؟ قلتُ : النَزْلُ ، فقال : آفِضْ به دنانيرَ الرجل

(١) إصابتك مع ابن طغان : في نيلك مالا كثيرا وأنت في صحبة ابن طغان وخدمته .

(٢) لا يعتقد ذخيرة . لا يجمع مالا يدخره للحاجة .

(٣) ما هذه دنانير الخ : يظهر أن دنانير الصيارف كانت دائما ناقصة .

(٤) ما ظننت هذا الخ : أي ما كنت أظن أنك تستطيع تقديم هذا المقدار ، أو ما كنت أظن أن منزلتك مني تقتضي أن تقرضني مالا . وقد تجاهل تجاهل العارف لأنه كان يعرف حقا أن المال مال كاتبه .

(٥) النزول : العطاء ، يريد راتباً من قبل السلطان .

ثم جئته به^(١) مرة أخرى بنزل الشهر الثاني فقال : اصْرِفْهُ إِلَى الرَّجُلِ .
قلت : قد قَضَيْتُهُ . فقال : اصْرِفْهُ إِلَيْهِ كَمَا أَمْرُكَ . فلم يَزَلْ يَفْعَلْ بِي
هَذَا حَتَّى مَضَى ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَصَلَتْ فِيهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ .

*
*
*

حدَّثني هَارُونُ بْنُ مَلُولٍ ، قَالَ : حَدَّثَنِي يَاسِينُ بْنُ زُرَّارَةَ ، قَالَ :
كَانَ بَعْضُ أَرْيَافِ مِصْرَ نَصْرَانِيًّا مِنْ أَهْلِهَا كَثِيرُ الْمَالِ ،
فَاشَى النِّعْمَةَ ، سَمَحَ النَّفْسَ ، وَكَانَتْ لَهُ دَارُ ضِيَافَةٍ وَجَرَايَاتٍ وَاسِعَةٌ
عَلَى ذَوَى السِّتْرِ بِالْفُسْطَاطِ . فَهَرَبَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِ^(٢) رَجُلٌ كُنِيَ
عَنْ اسْمِهِ^(٣) ، خَطِيرُ الْمَنْزَلَةِ ، لَمِيلٍ^(٤) كَانَ مِنَ الْمُتَمَصِّرِ إِلَيْهِ ، وَتَبَرَّأَ مِنْ

(١) به : الأولى حذف (به) هذه .

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن محمد هارون . وكان يلقب بالمتصر بالله ، ثم لقب
في اليوم الثاني لبيعته بالمتوكل على الله . بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الواثق
في ذي الحجة سنة ٢٣٢ . وكان عمره اذ ذلك سبعا وعشرين سنة وأشهرًا . ومات
مقتولا سنة ٢٤٧ ، وكانت أيامه أحسن أيام الخلافة العباسية من استقامة الملك
وشمول الناس بالأمن والعدل ورفعته الفتنة التي نشأت من القول بخلق القرآن .

(٣) كنى عن اسمه : أى لم يذكر ياسين بن زرارة اسمه صريحا .

(٤) لميل : متعلق بهرب .

حاشيته ، وليس جبة صوف ، فاتتهى به المسير إلى مصر . فلها دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداد يخاف أن يعرف فنزع إلى أريافها ، فاتتهى به المسير إلى ضياع النصراني . فرأى منه رجلاً جميلَ الأمر ، وسأله النصراني عن حاله فذكر أن الاختلال انتهى به إلى ما ظهر عليه . فغير هيئته^(١) وفوض إليه شيئاً من أمره ، فأحكم ما أسند إليه واضطلع به^(٢) ، ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره . وقام به أحسن قيام . فكان محلاً^(٣) الرجل الهارب من النصراني يفضّل كل ما ذهب له .

وورد على النصراني مستحثٌ بمحمل ماٍ وجب عليه ، [وسأله] النصراني عن خبر الناس بالفسطاط . فقال : ورد خبر قتل المتوكل وتقلد المنتصر ، ووافى رسول من المنتصر في طلب رجل هرب في أيام

(١) فغير : أى النصراني . هيئته : أى زى الهارب الذى كان يدل على الفقر واختلال الحال .

(٢) فى الأصل فاحكمه فيما أسند اليه . ويظهر أن بالعبارة تحريفاً .

(٣) فكان محل الخ : أى إن الرجل الهارب نال من المنزلة والشأن عند النصراني

ما يزيد على ما فقده ببغداد من أموال وضياع .

المتوكل يُعرفُ بفلان بن فلان ، ويُوْعزُّ إلى عمّالِ مِصرَ والشامِ بأن يتلقَّوه بالتكرِّمة والتوسِّعة ، فيلحقَ أميرَ المؤمنين في حالِ تُشْبِهٍ مُحَلَّه عنده . فعَدَلَ النَّصْرانيُّ بالمستَحْتِّ إلى بعضِ مَنْ أنزله عليه ^(١) . وخلا الهاربُ بالنَّصْرانيِّ فقال :

أَحْسَنَ اللهُ جِزَاءَكَ ! فقد أوليتَ غايةَ الجميلِ ، وأحتاجُ إلى أن تأدِّنَ لِي في دخولِ الفُسطاطِ . فقال : يا هذا إن كنتَ استقصرتني فاحتكم في مالي ، فإنِّي لا أَرِدُ أمْرَكَ ، ولا أزلُ عن حُكْمِكَ ، ولا تَنَأُّ عَنِّي . فقال له : أنا الرجلُ المطلوبُ بالفُسطاطِ وقد خَلَّفْتُ شَمَلا ^(٢) جَمًّا ، ونعمةً واسعةً ، وإنما عَدَلْتُ بِي ^(٣) الخوفُ على نفسي ، فقال له : يا سيدي ! فالمالُ في يدك ، وما عندك من الدوابِّ فانتَ أعرفُ به مِنِّي فاحتكم فيه . فأخذ بغِلا وما صلَحَ لمثله ، وخرجَ النَّصْرانيُّ معه . وقَدَّمَ ^(٤) كُتابًا إلى عاملِ

(١) فعَدَلَ النَّصْرانيُّ الخ أي إن النَّصْرانيَّ اتَّجَهَ بالمستَحْتِّ إلى جماعةٍ من عمَّاله لينزلَ بينهم .

(٢) شَمَلا : شِئُونًا وأهلا

(٣) وإنما عدل بِي : أي عن أهلي ومالي .

(٤) وقَدَّمَ : أي العظيمُ البغداديُّ يقول : إنه قبلَ سفره أرسلَ من المكانِ الذي هو فيه كُتابًا إلى عاملِ المعونة .

المُعونة^(١) من مُسْتَقَرِّهِ . فتلَقَّاهُ عامِلُ المَعُونَةِ في بعض طريقيه
ووصَّاهُ^(٢) وجميعَ العَمالِ بالنصرانيِّ . وصارَ إلى الحَضْرَةِ فأصدرَ إليهم
الكتَبَ في الوصَاةِ به^(٣) إلى أنْ قَدِمَ بعضُ العَمالِ المُتَجِرِّةِ^(٤) . فتنبَّع
النصرانيُّ ورامَ الزيادةَ عليه^(٥) فخرَجَ إلى بغداد .

قال لي هارونُ إنَّ ياسيناً قال له : إنَّ النصرانيِّ حدَّثه : أنه دخلَ
بغدادَ فلم يَرِ بها أوفى محلاً ؛ وأكثَرَ قاصداً منه^(٦) . ثم استأذنتُ
عليه ، وعندهَ جَمْعٌ كثيرٌ ، فخرَجَ أكثَرَ غلمانِه حتى استقبلوني ، فلما رأني

(١) عامِلُ المَعُونَةِ : رجلُ الشرطَةِ .

(٢) ووصَّاهُ : أى وصَّى البغدادىَّ العَظِيمَ عامِلَ المَعُونَةِ .

(٣) فأصدرَ إليهم الخ : أى فأصدرَ العَظِيمُ البغدادىَّ إلى العَمالِ الكُتَبَ بالوصَاةِ
بالنصرانيِّ .

(٤) العَمالِ المُتَجِرِّةِ : الذين كانوا يتجرون بمناصبهم ، ويتخذونها أداة للعسف
وابتزاز الاموال .

(٥) رامَ الزيادةَ عليه : كان النصرانيُّ ملتزماً بعض أراضى الدولة في مقابل مال
معيّن فأراد هذا العامل أن يزيد هذا المال ليخرج النصرانيَّ من الالتزام .

(٦) منه : من العَظِيمِ البغدادىِّ .

قام على رجله . ثم قال : مرحباً بأستاذي^(١) وكافلي والقائم بي حين
قعد الناس عني! وأجلسني معه ، وانكبَّ على ولده وشمله^(٢) ، وأنا
أتأمل مواقع الإحسان من الأحرار . وسألني عن حالي في ضياعي ،
فأخبرته خبرَ العامل ، وكان أخوه^(٣) في مجاسه ، فنظر إليه (من
كنى عنه^(٤)) وقال له كنتُ السببَ في تقليد أخيك ، فصار
أكبر سببٍ في مساعتي . فكتب من مجاسه كتاباً إليه بجلية
الخبر^(٥) وأنفذه . وأقتتُ عنده حولا في أرغد عيشة وأعظم ترفه .
وورد على كتب أصحابي فخبروني بانصراف العامل عن جميع ما كان
اعترض عليه في أمرى ، وأخرج أمرُ السلطان في إسقاط أكثر
خراج ضياعي ، والاقتصارِ بي على يسيرٍ من مالها .

(١) الأستاذ : الرئيس في عرف هذا العهد .

(٢) أخوه : أخو ذلك العامل .

(٣) وانكب على ولده الخ : أى نشطوا في إكرامى والحفاوة بي .

(٤) العبارة التي بين قوسين من كلام الراوى ياسين بن زرارَة . وهى بيان
للضمير المستتر فى "نظر" ، والمعنى فنظر إليه العظيم البغدادى الذى كنى النصرانى
عنه ولم يصرح باسمه . وفى الأصل : (من تكأ عنده) .

(٥) بجلية الخبر : أى بوجوب الابتعاد عن التعرض للنصرانى .

قال ياسين : فكتب النصرانيُّ ببغداد مُجَّةً ^(١) أشهدَ فيها على نفسه
أنَّ أسهمه في جميع الضياع التي في يده (وسمّاها وحدّدها) لهذا الرجل
الذي كان هرب ، وصار بها إليه ^(٢) . فقال له : قد سوّغك الله
هذه الضياعَ فإني أراك أحقَّ بها من سائر الناس ، فامتنع الرجل من
ذلك . وقال له : عليك فيها عاداتٌ تُحسِّنُ ذِكْرَكَ ، وتُرَدُّ الأضغانَ
عنك ، ولستُ أقطعُها بقبضِ هذه الضياعِ عنك .

ورجع النصرانيُّ إلى الفسطاطِ بفحْدَدِ الشهادةِ له فيها ، فلما توفِّي
النصرانيُّ أقرّها ^(٣) في يد أقاربه ولم يزلوا معه بأفضلِ حال .

*
* *

(١) حجة : وثيقة تثبت حقًا أو ملكًا .

(٢) وصار بها إليه : وحمل الحجة إليه .

(٣) أقرّها : أقرّ العظيم البغدادى الضياع .

حدثني أحمد بن أبي يعقوب عن أبيه . قال :

كان يحيى بن خالد بن برمك^(١) قد تبنى الفضل بن سهل^(٢)، وأجراه مجرى الولد، ونظر إليه ولده بعين الأخ لهم. فضمه إلى المأمون^(٣). وكان يحيى بن خالد حسن المعرفة بالنجوم ، والفضل بارعاً فيها . فاتفقا على ما توجبهُ النجومُ في مُددِ البرامكة، وتبيننا سعادةً تنتهي إليها حال الفضل ، وكان كلُّ واحد منهما كالمشاهد لما انتهى إليه .

(١) يحيى البرمكي : هو أبو الفضل يحيى بن خالد بن برمك . وكان برمك من مجوس بلخ . وكان يحيى من النبل والعقل وخير الخلال على أكل حال . وكان المهدي قد ضمَّ إليه ولده هارون الرشيد وجعله في حجره . فلما استخلف هارون عرف له فضله ، وولاه الأمر ، ودفع إليه خاتمه ، وجعل لإصدار الأمور وإيرادها إليه ، إلى أن نكب البرامكة ، فغضب عليه وخلده في السجن إلى أن مات فيه .
(ابن خلكان)

(٢) الفضل بن سهل : هو أبو العباس الفضل بن سهل السرخسي ، أخو الحسن ابن سهل . أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ ووزر للمأمون وكان له نفوذ عنده . وكان يلقب بذي الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف ، وكان يتشبع . ولما نقل أمره على المأمون دس عليه غالباً المسعودي الأسود ، فدخل عليه الحمام بسرخس ومعه جماعة فقتلوه يوم الخميس ثاني شعبان سنة ٢٠٢ .
(ابن خلكان)

(٣) المأمون — هو عبد الله بن هارون الرشيد ، ويكنى أبا جعفر ، وقيل أبا العباس ، واسم أمه مراجل . ولي الخلافة وستة ثمان وعشرون سنة وشهران — ومات سنة ٢١٨ — وهو ابن تسع وأربعين سنة ، وكانت أيامه من خير الأيام وأوسعها علماً وحضارة .
(مروج الذهب)

وأوقع الرشيد بالبرامكة فاعتصم الفضل بمجّله من خدمة المأمون ،
وكانت يده تعجز عما يصلح يحيى وولده عند الرشيد . فوجه إليه :
ياسيدى ! قد كرتبى أمرك ، ولست أصل إلى حُسن الدفاع عنك
فأحلّ^(١) ذمامه فى هذه المحنة ، فإنى أرجو أن أقضيه عنك عند انتهائى
إلى سعادتى .

قال ابن أبى يعقوب : فحدثنى أحمد بن أبى خالد الأحول . قال :
اتصل بى من ضيق يحيى ما كدر عيشى . وذكرت إحسانه إلى ،
وحسن صنيعه بى ، فضاق بى العريض . ووجدت ما أمركه أربعة
آلاف دينار ، فقسمتها قسمين . وحمّلت أحدهما ، وتوصّلت إلى
الدخول إليهم فى محبتهم ، فوضعتها بين يدى يحيى بن خالد . فقال لى :
ليس يحسن بنا أن نغرّك من أنفسنا ، ولا أن نعدك عنا ما لا تفى به
الأيام لك ، وقد انتهى أمرنا . فان كنت تُقدّر أنّ أحوالنا
تصلح فأمسك عليك مالك . فقلت : ما ذهبت فى ذلك إلا لقضاء
بعض الحقّ عنى . فأخذ بيضاء فكتب فيها :

(١) فأحلّ ذمامه : حلّ أمر الله : وجب ، وأحلّ فلان الحق : أوجه على نفسه .

فمعنى أحلّ ذمامه : أوجب على نفسه قضاء حق الدفاع عنك .

يا أبا العباس ! أيّدك الله ! هذا رجلٌ خلُص على تجربتنا ،
وأحسن بنا ، مع استحكام يأسه منا ، وأنا أذكرك العهد ، وأرغبُ
إليك في قضاء حقّه عني ، وتخفيف ثِقَله عليّ ، أحسن الله عَوْنَكَ ،
وكفّك ما أعجزك !

ثمّ ثأها وقطعها عَرْضًا قطعتين وقال لي : احفظ هذا النصفَ
معك ولا تُفَرِّط فيه فيفوتك حظٌّ كبير .

ثم فرّق ذلك المال في قومٍ ضعفت أحوالهم بما لحقه ، وأنصرفتُ
من عنده وقد آيسني من رجوع حاله ، وأعطاني نصفَ رُقْعَةٍ
لا أقف على ما توصل إليه . وتَقَضَى أمرهم ، ومات الرشيدُ بطُوس^(١) ،
وغلب الفضلُ بنُ سهل على المأمون بخراسان ، وخلفه على
جميع أمره . وشجّر الأمر بين الأمين والمأمون فظهر المأمون عليه .
وصحّت وزارة الفضل بن سهل للمأمون ، ووردت بادرّة المأمون
بذلك إلى سائر النواحي ، وطالت عطلتي واشتدت فاقتي ، وفقدتُ
مَنْ كان يُؤثرنِي وينحاش^(٢) إلى .

(١) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ . فتحت في أيام
عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبها قبر علي بن موسى الرضا وقبر هارون الرشيد .

(٢) ينحاش إلى : في اللغة انحاش عنه : نفر ، فيكون معنى انحاش إليه :
مال وانحاز .

فأتى لجالس في منزلي في يوم قد أعوزني فيه قوتُ يومى ، وعلى
ثوبٍ خلق ، وليس لى إلا خِلعَةٌ أركب فيها . حتى دخل إلى غلامى
فقال : بالباب جماعةٌ من أصحاب طاهر بن الحسين . فلبستُ ثياب
ركوبى ، وأذنتُ لهم وتقدمهم رئيسٌ لهم تيننتُ إعظامى فى نفسه .
فقال : الأميرُ طاهرٌ يسألك المسيرَ إليه . فنهضت ، فلبتُ دخاتُ
قدمنى وأعظمتنى ، وقال : ورد كتابُ الوزير (أيده الله) على فى حملك
إلى حضرته على حالٍ تكرمية ، ومعك نصفُ الرقعة التى دفعها إليك
يحيى بن خالد ، وأمرنى بدفع ألفى دينارٍ إليك لحمولتك^(١) ومُخلفيك^(٢) .
فقويتُ نفسى ، وانفسح رجائى ، ونحرتُ بعد قبض المال مع
رسول طاهر . فلها دخلتُ إلى الفضل بن سهل ، لِقينى بأجمل لقاء ،
وسألنى عن نصف الرقعة فأحضرتها . ثم أسرَّ إلى بعض خاصته
شيئاً ، فمضى وجاء برُقعة ، فوصلها بها فكلمت^(٣) . فلها استتمَّ قراءتها
بكى . ثم قال : ”رحم الله أبا العباس ! فما كان أعرفه بتصرف الأيام

(١) حمولة : ما يحمل عليه المتاع من الدواب .

(٢) مخلفيك : تعبير شائع فى هذا العهد ، والمؤنَّف يستعمله كثيراً فى هذا
الكتاب ، يراذ به أولاد الرجل ومن يعولهم .

(٣) يظهر أن يحيى بعث قبل وفاته بنصف الرقعة الذى به اسم أحمد الأحول
إلى الفضل بن سهل .

واستدعاء الشكر فيها ، والتَحْيِيزِ من ^(١) الذمِّ بها ! ثم أدخلني إلى
المأمون وواكد أمرى عنده ، حتى بلغتُ معه إلى أخصِّ أحوال
كُتَّابه ، ومن وثق به في مهمِّ أمره .

*
*

وحدَّثني على المنتطبِّ المعروف بالديدان (وكان حسن المعرفة
بكتب أفلاطون ^(٢) ورموزه ، ومبرزاً في الطب) قال :

نحرجتُ مع رجل يُعرفُ بابنِ فَرُوخ ^(٣) من قواد السلطان ^(٤) إلى طرسوس .
فغنم سبياً كثيراً . وكان السبِّيُّ في دارٍ خرابٍ في الموضع الذي نزل فيه .
فدخلت لتأمله . فوجدت في السبِّيِّ شاباً حسن الصورة جميل السمْتِ ،

(١) التحيز : التلوي ، ويتضمن معنى الابتعاد .

(٢) هو أفلاطون بن أرسطو أحد أساطين الحكمة الخمسة . صنّف كتباً كثيرة
في الحكمة والفلسفة . وكان لرغبته في العلم شديد الطلب له كثير الجِدِّ والبحث
منفقاوقته وماله في تحصيل الكتب ، حتى إنه سافر إلى صقلية ثلاث مرّات لاقتناء
الكتب . وتوفي في السنة التي ولد فيها الإسكندر ، وقد أخذ العلم عن سقراط وألف
كتباً كثيرة في الفلسفة ، وعنه أخذ أرسطو .

(٣) في الأصل : مروخ بالميم . ولا يعلم قائد لابن طولون بهذا الاسم ، والمعروف
محمد بن فَرُوخ ، كان أميراً على بركة من قبل ابن طولون .

(٤) السلطان : أحمد بن طولون .

وأكثر السبي حوله . ومكانه منهم مكان المولى من المالك ، يتسرعون إلى جميع ما أوما إليه ، ويكفونه أخذه بنفسه ، فكلمت فيه بعض السبي وسألته عنه ، فقال لي : هذا من ولد أفلاطون . فارتحت إليه لانتفاعي بجده ، ودخلت إلى ابن فروخ فقلت : هب لي من هذا السبي غلاماً ، فقال لي : خذه . فدعوت بغلام يشتمل على أمرى^(١) ووصفت له الشاب الذي في السبي ، وقلت له : إذا سلمه إليك غلام ابن فروخ فأطعمه مما أعددت من طعامي ، وألبسه من فانر ثيابي ، وطيبه ومكّنه من مجلسي إلى أن أنصرف إليكم . وتشاغلّت بأمور ابن فروخ إلى آخر النهار ، وانصرفت فوجدته على الهيئة التي آثرتها ، ورام مني ما يفعله غلاني من الوقوف فمنعته من ذلك . فقال لي بالرؤميّة : يا سيدي ! ما الذي وعدتكم به نفسك عني ؟ فان كان عندي بذلته لك وكنت حقيقاً به ، وإن لم يكن لدي صدقتك عنه ، ولم أتغنم منك ما لا يُشبهني تغنمه^(٢) . فقلت له : قد اقتبسنا من جدك أنواراً حسن بها أثره علينا ، ووجب علينا بها وقايتك بأنفسنا . فقال : والله إن الطباع التي لأسلافنا معنا ،

(١) يشتمل على أمرى : يختص بخدمتي ويقوم بشئوني .

(٢) ولم أتغنم منك الخ : ولم أغنم فرصة عنايتك بادعاء ما لا يليق بي .

ولكنّا شغلناها في رعي الخنازير . فبعُدْتُ بها ممّن قرَّبَتْنِي له ،
وأكرمتني بسببه .

نغيرته بين الدخول معي إلى مصر ، على أن أشاطره ملكي وعيشي ،
أو أحتال له في رده إلى بلده ، فاختر رده إلى بلده . فلطُفْتُ له
بإنفاذ بعض من أثقُ به مع الرسل المتوجهين معه ، حتى وصل إلى
بلده .

*
* *

وكانت تناب^(١) عجايزنا عجوز جميلة المذهب^(٢) ، ضعيفة الحال ، تعرف
بأمّ محمد . فيجتمعن على كلِّ صالحية ، وكنت أخصها بكفايتها .
فلما دخل محمد بن سليمان^(٣) مصر نزل في ظاهرها . واستدعى
الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونية^(٤) ، فاستصفي ماله

(١) تناب : تأتي مرة بعد أخرى .

(٢) جميلة المذهب : تعبير من تعبيرات هذا العصر ، يراد به حسن العقيدة
والوصف بالتدين .

(٣) هو محمد بن سليمان الكاتب . أرسله الخليفة المكتفي بالله العباسي لفتح مصر ،
فلما بعد قتل شيان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢ هجرية . ولم تطل مدته بمصر
حتى قدم عليه كتاب الخليفة المكتفي بالله بولاية عيسى بن محمد الوشري ، فكانت
مدة إقامته بمصر أربعة أشهر . (النجوم الزاهرة) .

(٤) أسباب الطولونية : عمال الدولة الطولونية والمصلون بها .

بالسَّوْطِ ، وَعَظِيمِ الْإِخَافَةِ . فِرَاعِنِي أَمْرُهُ ، وَخِفْتُ أَنْ يَلْحَقَنِي
عَسْفُهُ . فَإِنِّي لَجَالِسٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَنَا خَائِفٌ ، حَتَّى دَخَلْتُ
جَارِيَةَ أُمِّ مُحَمَّدِ الْعَجُوزِ فَسَلَّمْتُ عَلَيَّ ، فَظَنَنْتُهَا وَاللَّهِ تَقْتَضِي بَعْضَ
مَا عَوَّدْتُهَا . فَقَالَتْ : سَيِّدَتِي أُمُّ مُحَمَّدٍ تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَتَقُولُ :
جَاءَنِي السَّاعَةَ رَسُولُ ابْنِ عَمِّي وَسَيِّدِي أَبِي عَلِيٍّ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ يَسْأَلُ
عَنِّي ، فَعَرَفْتُهُ أَتَى كُنْتُ فِي كِفَايَتِكَ ، وَالرَّسُولُ عَلَيَّ الْبَابُ يُرِيعُ^(١)
الْوَصُولَ إِلَيْكَ . فَقُلْتُ : يَدْخُلُ . فَدَخَلَ شَابٌّ حَسَنُ الصُّورَةِ
يُعرفُ بِنَاشِيٍّ . فَقَالَ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ! فَقَدْ وَصَفْتِكَ
ابْنَةُ عَمِّ سَيِّدِي بِمَا أَرْجُو أَنْ يَحْسُنَ أَثْرُهُ عَلَيْكَ . وَدَعَا بِأَصْحَابِ
الْأَرْبَاعِ^(٢) ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ يَمْنَعُوا مِنْ يَعْتَرِضُنِي^(٣) . فَعَرَّضْتُ
عَلَيْهِ بَرًّا . فَقَالَ : وَأَيْ بَرٍّ أَكْثَرُ مِمَّا أَتَيْتَهُ إِلَيْنَا ، وَانصَرَفَ عَنَّا . فَرَجَعَ
إِلَى نَاشِيٍّ هَذَا بَرْقَعَةً بِنَحْطِ ابْنِ سُلَيْمَانَ : ” سِرُّ إِلَيْنَا لِنَنْظُرَ فِي أَمْرِكَ ،

(١) يريغ : يريد .

(٢) دعا : أى ناشئ ، ولعله يريد بأصحاب الأرباع المشرفين على أقسام المدينة
لحفظ الأمن وتنفيذ أوامر السلطان . وقد تستعمل أحيانا بمعنى أصحاب البيوت
بجمع ربيع (بفتح وسكون) .

(٣) يعترضني : فى الأصل من تعترضنى .

ونبلغ فيه محبتك ، فإني أرى لك متقدّم حُرمتك ، ووكيدَ أسبابك ،
إن شاء الله .

وما لحقني منه شيء أكرهه حتى انصرف عن البلد .

*
* *

وكان أبو الفيّاض سَوارُ بنُ أبي شُراعةَ الشاعِرُ صديقاً لي ،
ومائلاً إليّ . فلما اعتزم على الرجوع إلى العراق سألتني أن أكتب له
شيئاً من شعري ، فكتبتُ له مقدارَ خمسين ورقةً منه ، وكان يستحسنه
ويُعجّب به ، فصار إلى بغداد وعرضه على جماعة الأحرار^(١) ،
وأحسن وصفي لهم بسلامة مذهبِهِ وطهارة نبيّته .

ودخل محمدُ بنُ سليمانِ مصر وقد ردَّ البريدَ بها إلى أبي عبيد الله
أحمد بنِ صالح^(٢) فسأل عندَ دخوله إياها عن أحمد بنِ يوسف ،

(١) لعله يريد بجماعة الأحرار : الأشراف وسادة القوم .

(٢) أبو عبيد الله أحمد بن صالح : كان من بطانة العباس بن أحمد بن طولون .

فأخضر أحمد بن يوسف^(١) (كاتباً كان لأحمد بن وصيف^(٢) ولا بن
الخصاص^(٣) بعده) . فقال له : تعرف أبا الفياض ؟ قال : لا .
فقال لهم : ليس هذا الرجل الذي طلبت . فأخضرت ، فلما رأني
استشرف إلى وقال : تعرف أبا الفياض ؟ فقلت : ذكرك الله وإياه
بكل صالحية ! نعم أعرفه وكان خللاً لي . فقال هل أنشدك من شعره :
ظللنا بها نستنزل الدنَّ صفوه * فينزُلُ أقباساً بغير لهيب

(١) فأخضر أحمد بن يوسف : أي شخص غير المؤلف اسمه أحمد بن يوسف ،
ثم وصف المؤلف أحمد هذا بأنه كان كاتباً لأحمد بن وصيف .

(٢) أبوه وصيف المملوك التركي صاحب الكلمة والنفوذ في خلافة المستعين
بالله الذي يقول الشاعر فيه وفي بغا :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قال له كما تقول اليبغا

وكان أحمد بن وصيف مقياً بدمشق نفاه إليها المهتدي ، فلما دخلها أحمد
ابن طولون انضم إليه هو وجماعة قواد ماجور .

(٣) هم الحسين بن عبد الله الجوهري ، كان تاجراً يبيع الجواهر ، وهو
الذي أعد جهاز قطر البندى بنت نهارويه ، وقد صادره المقتدر وأخذ منه أموالاً
كثيرة ، وكان على عظم ثروته سليم الباطن غير حاد التفكير ، توفي سنة ٣١٥

قلت : لا يا سيدي ! ولكنني أنشدته إياه من شعري . فضحك .
وقال : والله لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك .
وكان والله أفضل عونٍ لي على أموري .

*
* *

وحدثني أحمد بن سقلاب^(١) . قال :

كان بمصر رجلٌ من الفقهاء مشهورُ الاسم ، وله حلقةٌ عظيمةٌ
بالجامع . فبينما هو في صدرها إذ وافى علان بن المغيرة ، فلما رآه
مقبلاً نحوه قام إليه على رجليه ، ثم خطا إليه حتى لقيه . فأكثرت
الجماعة قيامَ شيخٍ مثله إلى حديثٍ مثلِ علانٍ وتحفّيه به وعرض
نفسه عليه ، وأنه لم يدع شيئاً يفعلهُ تابعٌ بمتبوع إلا بذله ، وأسررنا
الموجدة^(٢) عليه .

(١) لعله من أسرة سقلاب بن شنية المصري ، الذي كان زميلاً لورش ،
وهو الذي نقل معه قراءة نافع إلى مصر .

(٢) الموجدة : الغضب .

فلما قام إعلان ، قال لجماعتنا : ما اعلّنى بما أضمرتم ! ولكنى أريكم عذرى فيما خرجتُ إليه ^(١) :

كانت عندى ألف ^(٢) دينار وديعةٌ لرجل بالمغرب قد طال مقامها وطالبَ زوج ابنتى بإدخال امرأته عليه . فخلستُ أمها بحضرتى فقلت لى : ما الذى تراه فيما قد ألحّ فيه هذا الرجل ؟ فقلت لها : نستعمل فيه التجوز ^(٣) . فقلت لى : لنا حسادٌ نخافُ شماتتهم ، ولا بدّ من أن تُعيننى على التّجمل . فقلت : إن كان ما تُريدان فى قدرتى لم أبخل به عليكم . قالت : هو فى قدرتك . قلتُ : ما هو ؟ قالت : تمكّنتى من هذه الوديعة ونحتاطُ فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنه فى أى وقتٍ أردناه ^(٤) ، ونُدخلُ هذه الصبية على زوجها ،

(١) فيما خرجت إليه : أى عن المألوف من شدة الحفاوة به .

(٢) الألف مذكر ، وقد يؤنث ، يقال ألف مؤلّفة ، وعلى هذا جرى المؤلف فأنت الفعل وهو " كانت " .

(٣) نستعمل فيه التجوز : أى ندخلها على زوجها مع التقليل من نفقات العرس والجهاز .

(٤) ونحتاط الخ : أى نشترى فى الجهاز الأشياء التى إذا أردنا بيعها فى أى وقت استطعنا ذلك .

فان جاء صاحبُ الوديعة بعنا ما اشتريناه ولم نُوَضِّعْ^(١) فيه إلا ما يسهل علينا غُرْمُهُ . قلت : هذا قبيحٌ عند الله وعند خلقه . فلم تزل تُلحُّ بي وتحتالُ عليَّ حتى أجبتها . فجهَّزْتِ ابنتها بجميع المال وأدخلتها على زوجها . فلم يمضِ بنا بعد ذلك إلا شهران حتى وافى صاحبُ الوديعة يطلبها . فقلت لها ما تفعلين ؟ فقالت : أمضى فأحملُ المتاع وأبيعه . فضت إلى ابنتها ورجعتُ إلى فقالت : لا تشغل نفسك بهذا المتاع ، فقد حلف زوجها بطلاقها إنه لا يخرج منه شيء عن منزله ! فسقط في يدي ، ورأيت الفضيحةَ في الدارين متصديةً لي . فوَضِّعَ إفطاري بين يدي فلم أطعم ، واعتراني ماخفتُ منه على عقلي ، وبِتُّ بليلةٍ مايتُ بمثلها ، وأنا أتیین سهولة ذلك على زوجتي في جنب ما أحرزته لبنتها . ثم انتهت قبل الفجر بمنازل^(٢) ، فصحت بالغلام : أسرج لي . فقام وأسرج وقال : ياسيدي ! أين تمضي ؟ فقلت : ليس لك الاعتراضُ عليَّ .

وركبْتُ وسرْتُ بطُوعِ عَنَانِي ، فلم يزل بغلي يسير حتى دخلتُ زُقاقِ عَلَّانِ بْنِ الْمُغِيرَةِ . فوقفت على باب داره وصاح الغلام

(١) ولم نُوَضِّعْ : ولم نقلل من نمته الأصلي .

(٢) بمنازل : يريد بدرجات زمنية .

بالبواب وعرفه بموضعي . فسمعت حركة في داره ، ثم فتح الباب وأذن لي بالدخول ، فدخلت عليه ، فوجدت بين يديه شمعة ، وهو يكتب جوابات كتب وكلائه . فلما رأني قام إلى وقال لمن حضره من الغلمان : تحووا ، وأقبل علي فقال : والله لو بعثت إلى لسرت إليك ولم أجشمنك السعي إلى ، فاشرح لي أمرك . فغلبتني العبرة ، وحالت بيني وبين الكلام ، فما زال يسكنني حتى نصصت له اتفاق^(١) الوديعة ، وهو مغموم بأمرى . ثم قال : فكم هذه الوديعة ؟ فقلت ألف دينار ! فضحك ، وقال : فرجت والله عني ! ما توسمت أني أمليها . فكان الغم يقع بها ، فأما وهي في القدرة فما أسهلها علي ، وأخفها لدي ! ثم قال لغلامه : جئني بتلك الصرار التي وردت علينا من المغرب في هذا الشهر ، فحساء بأربع صرار فنظر فيما عليها وجمعه وقال : هذه ألف دينار وخمسمائة دينار : ألف للوديعة ، وخمسمائة تصلح بها ما بينك وبين من عندك . ثم قال لي : متى أشكر^(٢) إفرادك إياي بعد الله (عز وجل ذكره) بتأميلي في حادثة

(١) اتفاق الوديعة : أي ما اتفق وحصل لها ، ويجوز أنها محرقة عن إنفاق .

(٢) متى أشكر الخ : أي لا أستطيع في أي وقت أن أشكر الخ .

حدثت عليك فأعاني الله على مكافأتك ! وأضاف إلى من خفرتني
إلى منزلي .

فقال الجماعة : قد سمعنا عذرك ، وعلينا عهدُ الله إن لَقِينَاهُ^(١)
أبداً إلا قياماً .

*
* *

وبعث أحمدُ بنُ طولون في الساعة التي تُوُفِّي فيها يوسفُ
ابن إبراهيم والدي بخدم . فهجموا الدار^(٢) ، وطالبوا بكتبه مقدرين أن
يجدوا فيها كتاباً من ببغداد . فحملوا صندوقين ، وقبضوا على وعلى
أخى ، وصاروا بنا إلى داره ، وأدخِلنا إليه ، وهو فيها جالس ، وبين
يديه رجل من أشرف الطالبين . فأمر بفتح أحد الصندوقين
وأدخل خادمٌ [يده] فوقع^(٣) دَفْتَرُ جِرايَاتِهِ على الأشراف وغيرهم .
فأخذ الدفتر بيده وتصفَّحه ، وكان جيِّدَ الاستخراج^(٤) ، فوجد اسمَ
الطالبيِّ في الجراية ، فقال له ، وأنا أسمع : كانت عليك جراية ليوسف
ابن إبراهيم ؟ فقال له : نعم : يأيها الأمير ! دخلتُ هذا البلدَ وأنا

(١) أن لقيناه : ما لقيناه .

(٢) هجموا الدار : المألوف هجموا على الدار .

(٣) فوقع دفتراخ : فاتَّفَق أن وقع في يده دفتر .

(٤) جيِّد الاستخراج : يحسن فهم الأوضاع الحسابية وطرق استخراج النتائج منها .

مُمَلِّقٌ ، فَأَجْرَى عَلَى فِي كُلِّ سَنَةٍ مَائَتِي دِينَارٍ وَمَائَتِي إِرْدَبٌ قَمِيحٍ أُسْوَةٌ
بِأَبْنِي الْأَرْقَطِ وَالْعَقِيقِيَّ وَغَيْرَهُمَا . ثُمَّ مَتَّتْ ^(١) يَدَايَ بَطُولَ الْأَمِيرِ
فَاسْتَعْفَيْتُهُ مِنْهَا . فَقَالَ لِي : نَشَدْتُكَ اللَّهُ إِنْ ^(٢) قَطَعْتَ سَبِيلاً لِي
بِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ) . وَتَدَمَّعَ ^(٣) الطَّالِبِيُّ .
فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ : ” يَرْحَمُ اللَّهُ يُوسُفَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ ! “ ثُمَّ قَالَ لَنَا
انصرفوا إلى منازلكم لا بأس عليكم ! فانصرفنا فلما حَقَّقْنَا جَنَازَةَ وَالِدِنَا ،
وَحَضَرْنَا الْعَلَوِيَّ ، وَقَدْ أَحْسَنَ مَكَافَأَةَ وَالِدِنَا فِي مُحَلِّفِيهِ ^(٤) .

*
*
*

وَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُصَلِّحٍ . قَالَ : أَنْفَذَ إِلَيَّ حَسَنُ
ابْنِ مُهَاجِرٍ ^(٥) كَاتِبُ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ عَشْرَةَ رِجَالٍ مِنَ التُّجَّارِ ،

(١) متنت : قويت وصلبت . وفي الأصل : امتنت ويمكن توجيهها على تكلف .

(٢) إن قطعت : ما قطعت .

(٣) لم نعتز على هذا الفعل بهذه الصيغة في المعجمات .

(٤) مخلفيه : أولاده .

(٥) كان كاتباً لحسين الخادم . ولما غضب ابن طولون على ابن مفضل
كاتبه استخدمه في كتابته . وقد ولد حسن هذا بالرقة . وكان والده يتوكل لحسين
الخادم في ضياع هناك . ثم كان أن حمد حسين الخادم أمر حسن هذا فضمه
إليه وتولى تنشئته وبقى معه إلى أن استخدمه ابن طولون على البريد ، ولم ينكر منه
ابن طولون إلا شدته على الناس ليحظى بذلك عنده ، وبقى في خدمته حتى مات .

وقال اعتقلهم بمعزلٍ عن المسجونين حتى أعرضهم في غدٍ على الأمير ، فتسلّمتُ منه قوماً تشهدُ لهم القلوبُ بالفضل . فأنستُ وحشَتهم ، وفسحتُ رجاءهم . فقالوا لى : قد شكرنا جميلَ صنيعك ، ولنا إليك حاجةٌ . قلت : ماهى ؟ قالوا : فينا فتى يضعفُ قلبه عن لقاء الأمير فتقبل منا بدلاً به ، ولك علينا مائةُ دينارٍ . قلتُ : أنا أفعلُ إن وجدتم من يُجيب إلى هذا - وكان عندى أنه كالمُتنع - فأخذ شيخٌ منهم رُفعةً وكتب فيها إلى رجل كان قد أولاه عارفةً ، فسأله ذلك ، فأجابه الرجلُ : إني بإثرِ رُفعتى .

قال موسى : فتوهمتُ أن هذا قولٌ لا ثمرةَ له ، فلم أشعُربه حتى وافى . فقال : ما أحرزنى عنك إلا أتى جددتُ وصيةً ، وأحكمتُ ما خفتُ أن يقطعنى عنه ما دعوتنى إليه . وقال : لست أُجيبك إلى ما التمت حتى تكونَ المائةُ الدينارِ من عندى دون جماعتِك ، وأخرجها من كُمه ودفعها إلى ، وصرفتُ الرجلَ ، وأقام هذا مكانه ، فلم أتبئن منه غمًا بهذا ولا قلقًا له . وظلُّوا ليلتهم يتحدّثون ويتناشدون ، والسلامةُ غالبَةٌ على خواطرهم ، حتى أصبحوا وأخرجهم حسنُ بنُ مهاجر ، فعرضهم

على أحمد بن طولون . فتيين تحامله عليهم . فأمره بترك التعرض لهم
فانصرفوا ، وكانت أظافهم ترد على حتى فقدتهم .

*
*
*

وحدثني أحمد بن أيمن^(١) كاتب أحمد بن طولون . قال :
دخلت بالبصرة إلى تاجر - ذهب عني اسمه - فرأيت بين يديه ابنين له

(١) نكبه أحمد بن طولون بعد أن كان له حظوة عنده ، وكان سبب نكبه
ما حكاه عن نفسه فيما رواه البلوي صاحب سيرة ابن طولون قال :

كان لأحمد بن طولون ساع يسعى بالكتاب والمعاملين إليه يعرف بأبي ذؤيب ،
فاجتمعنا يوماً عند أحمد ابن طولون ، فقال أحمد لكنيز المعنى : أنا أشتهى صوتاً
ما سمعته منذ خرجت من سر من رأى ، فقال له : وما هو أيها الأمير ؟ فقال :

ألا سقيتم بنى حزم أسيركم ! * نفسى فداؤك ، من ذى غلة صادى

فقال له : ما أعرفه يا سيدي ، فقلت أنا أحسنه ، ففرح بذلك ، فاندفعت ، فطرب
أحمد بن طولون طرباً شديداً حتى صفق بيديه ، فحملني بخف الطرب إلى أن قت
فوقصت على إزاع اللحن ، فزاد سرور أحمد بن طولون ، وغمزني على أبي ذؤيب أن
أسقط عليه فترالقت على البساط ، وألقيت نفسي عليه فأخذني ، فصاح عليه ابن طولون ،
فقال له : لم يوجعني ما وقع على من جسمه ، وإنما ألمني ما على ظهره من البدر التي
اختانها وحصلها من مال الأمير ، فقال له أحمد بن طولون : أمسك وارفع هذا إلى
الصحو . فما مضت إلا مديدة حتى قبض على أحمد بن طولون وحسنى وأخذ
جميع ما كان لي ، وما خرجت من حبسه إلا بعد وفاته . اهـ بليجاز .

في نهاية من النظافة . فلما رآني أقبل بنظري إليهما . قال لي :
أحبُّ أن تُعوِّذَهما ، ففعلت . وقلت له : استجذت الأمَّ فحسن نسلك !
فقال : ما بالبصرة أقبح من أمهما ولا أحبُّ إلىَّ منها ، ولها معي خبرٌ
عجيب ، فسألته أن يُحدِّثني .

فقال :

كنت أنزل الأبلَّةَ^(١) وأنا متعيش^(٢) ، فحملتُ منها تجارة
إلى البصرة^(٣) فربحتُ ، وحمَلتُ من البصرة إلى الأبلَّةِ فربحتُ .
ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربحُ ولا أخسر حتى كثر مالي ، وتعلم
الناس إقبالي^(٤) ، وآثرتُ السكنى بالبصرة ، وعليتُ أنه لا يحسن بي
المقام بها بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلُّ قدرًا من جدِّ هذين
الغلامين . وكانت له بنتٌ قد عَضَلَهَا^(٥) وتعرض لعداوة خُطابها .

(١) الأبلَّة : (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : بلدة على شاطئ دجلة
أقدم من البصرة .

(٢) متعيش : متاجر يعيش بالقليل الذي يربحه .

(٣) البصرة : ثغر على شط العرب على نحو مائة ميل من مصبه ، ولها تجارة
عظيمة مع بغداد ، ويؤمها كثير من السفن التجارية الآتية من الخليج الفارسي .

(٤) إقبالي : حسن حظي .

(٥) عضلها : حال دون زواجها .

فحدّثني نفسي ببقائه فيها ، فحنته على خلوة . وقلت له : يا عمّ ! أنا
فلان بن فلان التاجر . فقال : ما خني عن محلك ومحلّ أبيك .
فقلت : قد جئتك خاطباً لابنتك . فقال : والله ما بي عنك رغبة ؛
ولقد خطبها إلى جماعة من وجوه البصرة وما أحببتهم ، وإني لكاره
من إخراجها عن حضني إلى من يقومها تقويم العبيد^(١) فقلت :
قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تدخلى في عدك
وتخاطني بشمك^(٢) . فقال : ولا بدّ من هذا ؟ قلت : لا بدّ ،
وهو زائد في فضلك على واصطناعك إياي . فقال :

أغد على رجالك . فانصرفت عنه إلى ملاء من التجار ذوى أخطار ،
فسألهم الحضور معي في غد ، فقالوا : إنك لتحرّكنا إلى سعي ضائع .
قلت : لا بدّ من ركوبكم معي . فركبوا على ثقة من أنه يردهم ، وغدونا
عليه فأحسن الإجابة ، وزوجني وأطعم القوم ونحر لهم وأنصرفوا .

(١) وإني لكاره الخ : بقول : إني أكره أن تقدّر قيمتها على الأسس التي
تقدّر بها العبيد من جمال الوجه وحسن الهيئة .

(٢) بشمك : بأهلك .

ثم قال لي : إن شئت أن تبیت بأهلك فافعل ، فليس لها ما يحتاج إلى التلوم^(١) عليه . فقلت : هذا ياسيدي ما أحبه . فلم يزل يحدثني بكل حسن حتى كانت المغرب فصلاًها بي ، ثم سبّح وسبّحت ، ودعا ودعوت ، إلى أن كانت العتمة فصلاًها بي ، وأخذ بيدي فأدخلني إلى دارٍ قد فرشت بأحسن فرشَةٍ ، بها خدمٌ وجوارٍ في نهايةٍ من النظافة ، فما استقرّ بي الجلوس حتى نهض . وقال : أستودعك الله ، وقدم الله لكما الخير ، وأحرز التوفيق !

واكتفتني عجائز من شمله ، بخلون ابنته على . فما تأملت طائلاً^(٢) وأرخت^(٣) الستور علينا . فقالت : ياسيدي ! إني سرٌ من أسرار والدي كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك وراك أهلاً^(٤) لستره عليه ، فلا تُخفّر^(٥) ظنه فيك^(٦) . ولو كان الذي يُطلب من الزوجة حسن صورته

(١) التلوم : التلبث .

(٢) فما تأملت الخ : أي فما رأيت شيئاً له فضل أو مزية ، يريد أنها كانت

خلوا من الجمال .

(٣) أرخت : الضمير الفاعل يعود على العجائز .

(٤) أهلاً : في الأصل : أصلاً .

(٥) تخفّر : تنقض وتخلف .

(٦) فيك : في الأصل : فيه .

دون حسن تديرها وعفافها العظمتِ محتى . وأرجو أن يكون معي منهما
أكثر مما قصر بي^(١) في حسن الصورة . ثم وثبت بجاءت بمال في كيس .
فقلت : ياسيدى ! قد أحلَّ الله لك معي ثلاثَ حرائرَ وما آثرته من
الإماء ، وقد سوَّغْتُك^(٢) تزوج^(٣) الثلاثَ وابتاعَ الجوارى من مال
هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتِك ، ولستُ أطلبُ منك
إلا سترى فقط .

فقال لى أحمدُ : خلف لى التاجر إنها ملكت قلبى ملكا لم تصل إليه
حَسَنَةً^(٤) بحُسْنِها . فقلتُ لها : جزاء ما قدمته ما تسمعينه منى : والله
لا أصبتُ^(٥) من غيرك أبداً ، ولأجعلَنَّكَ حظى من دنياى فيما يُؤثره
الرجلُ من المرأة ! وكانت أشفقَ النساءِ وأضبطهنَّ وأحسنهنَّ^(٦) تديراً
فيما تتولاه بمنزلى ، فتبينتُ وقوعَ الخيرة^(٧) فى ذلك ، ولحقتنى السنُّ

(١) قصر بى : لم يوصلنى إلى الغاية .

(٢) سوَّغْتُك : فى الأصل : سوَّغك .

(٣) تزوج : فى الأصل : تزويج .

(٤) حسنة : أى امرأة حسنة .

(٥) أصبت : مفعول أصبت محذوف أى حاجة أو غرضاً .

(٦) فى الأصل : وأضبطهم وأحسنهم .

(٧) الخيرة : حسن الاختيار .

فصارت حاجتي إلى الصواب أكثر وشكر الله لي
تلقيت به جميل قولها ، وحسن فعلها ، فرزقني منها هذين الابنين
الرائعين لك . ونحن منقطعون إلى جوده فينا ، وإحسانه إلينا .

*
* *

حدثني أحمد بن أبي يعقوب قال :

أنكر المهدي^(١) على هرثمة بن أعين^(٢) تحككه بمعن بن زائدة^(٣) ،
وأمر بنفيه إلى المغرب الأقصى ، فكلمه الرشيد فيه واستل سخيمته

(١) المهدي : هو محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس ، ويكنى
أبا عبد الله ، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن سهم بن أبي مرثد من
ولد ذى رعين من ملوك حمير . ولد سنة ١٢٧ هـ وولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ
وكانت وفاته سنة ١٦٧ هـ

(٢) هرثمة بن أعين أحد أمراء الرشيد وخواص قواده . كان شجاعا مقداما
مهيبا ، فولاه مصر سنة ١٧٨ هـ ولم تطل مدة ولايته فقد عزله الرشيد بعد
شهرين ونصف شهر لأنه كان يندبه للهمات الجسام . وأرسله إلى المغرب وبق على
المغرب سنتين ونصف سنة وكانت وفاته سنة ٢٠٠ هـ .

(٣) هو أبو الوليد معن بن زائدة . كان جوادا شجاعا جزيل العطاء . وكان
مروان بن أبي حفصة الشاعر خصيصا به ، وأكثر مدائحهم فيه ، وكان معن أيام
بني أمية متنقلا في الولايات ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقين .
ولما آل الأمر إلى العباسيين وقتل يزيد تبعة المنصور ثم عثر به وصفح عنه وجعله
من خواصه ، ثم ولى سجستان . فلما كانت سنة ٢٥٨ هـ اندس بعض الخوارج بين
صناع يعملون في داره وقتلوه .

عليه^(١) ومات مَعْنُ وزادت حَالُ هَرَمَةٌ ، وشكر للرشيد ما كان منه ،
وأفضت الخِلافةُ إلى موسى الهادي^(٢) . فتمكّن منه هَرَمَةٌ ،
وحدّث الهادي نفسه بِخَلْعِ الرشيد وجمَعِ الناسِ على تقليد ابنه العهدَ
بعده ، وعَلِمَ بهذا هَرَمَةٌ ، وتذكّر عارفة الرشيد فمارض .

وجمَعِ الهادي الناسَ ودعاهم إلى خَلْعِ الرشيد ونَصَبِ ابنه مكانه ،
فأجابوه وحلفوا له ، وأحضر هَرَمَةٌ . فقالوا^(٣) له : تباع يا هَرَمَةٌ !
فقال : يا أمير المؤمنين يمّني مشغولةٌ ببيعتك ، ويسارى مشغولةٌ
ببيعة أخيك ! فبأى يدٍ أباع ؟ والله يا أمير المؤمنين لا أكّدت^(٤)
في الرقاب من بيعة ابنك أكثر ممّا أكّده أبوك لأخيك في بيعته .
ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى ، ولولا تأوّل هذه الجماعة
بأنها مكرهة ، وإسرارها فيك خلاف ما أظهرت لأنسكت عن هذا .

(١) استلّ سخيّمته عليه : أزال ما في نفسه من الحقد والفضب عليه .

(٢) الهادي هو أبو جعفر موسى بن محمد الهادي . بويع له بالخِلافة سنة ١٦٩
وكانت سنة أربع وعشرين سنة وأشهرًا . وتوفى سنة ١٧٠ . وكان موسى قاسيا .
وكان مع هذا كثير الأدب محبا له شجاعا سخيا .

(٣) فقالوا له : أى قال له أنصار الهادي .

(٤) ينفي "بلا" في المستقبل ، وقد أدخلها على الماضي هنا لأن النفي لا يقتصر
على الماضي ، ولكنه يمتد للمستقبل أيضا .

فقال لجماعة من حضر: "شاهت^(١) وجوهكم" ! والله لقد صدقني
مولاي وكذبتوني ، ونصحتني وغششتوني !
وسلم إلى الرشيد ما قدره^(٢) الهادي فيه .

*
*
*

وسمعت يوسف بن إبراهيم والدي . يقول :
لم يتمكن أحد من أحد تمكن أبي يوسف القاضي^(٣) من الرشيد .
ولقد سألت إبراهيم بن المهدي عن السبب في ذلك . فقال كان
يستحق هذا منه لما حدثني به مسرور الكبير^(٤) قال :

(١) شاهت وجوهكم : قبحت وجوهكم .

(٢) ما قدره الهادي فيه : أي سلمت ولاية العهد للرشيد التي كان الهادي
قد نوى وقرر خلعها منها .

(٣) أبو يوسف القاضي : هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد ، لزم
أبا حنيفة فتفقه عليه وطلب عليه الرأي ، وكان المهدي صيره مع ابنه موسى وهو
ولي عهده ، وقد تولى قضاء بغداد للرشيد إلى أن مات سنة ١٨٢ في خلافة هارون .

(٤) هو أبو هاشم مسرور الخادم . وهو الذي وجه الرشيد مع هرثمة بن أعين
للفزو في الصائفة وولاه النفقات وجميع أمور العسكر في هذا الجيش ، ما خلا
الرياسة فانها كانت لهرثمة .

كنت في خدمة المهديّ وكان الرشيد حَفِيًّا^(١) بي ، محسِنًا إليّ ،
فلما انتقل أمرُ الخلافةِ إلى الهادي . قال لي الرشيد : إنّ أُنحَى قَوْيُ
الشَّرَاسَةِ وأنا أخافُ إيقاعَه بي ، وجمَعَ الناسَ على بَيْعَةِ ابنه بعده .
وأنا على غايةٍ من الثقة بك ، فأعدِلُ^(٢) إليه ، وكن لي عَيْنًا عليه .
فتقدّمت عند الهادي حتّى تولّيت سِتْرَ بَيْتِ خَلْوَتِهِ . وكان المهديّ
قد قرَنَ أبا يوسف بالهادي فتمكّن منه ، وقبِلَ في مهماته مَشُورته ،
فلما حَلَا بقلبه^(٣) شاوره في ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ! لا تحمل
نفسك على قطيعة رَحِمِكَ ، وأولياءك على الحِنثِ بِأَيْمَانِهِمْ ،
وأستدعِ من الله زيادته بما يُرضيه عنك ! فتوقّف بعض
التوقّف . وسُعيَ إليه بالرشيد ، وقيل له إنّه [عامل] على أن
يغتالك ، فدعا بأبي يوسف وأخبره بما تأدّى إليه . فقال :
يا أمير المؤمنين ! لا تسمع هذا ، وأنا الضامن لك حسنَ طاعته ،
ووكيدُ موالاته . فكنت أنهي جميعَ ذلك إلى الرشيد فيشتدُّ سروره به ،
ويرغبُ إلى الله في معونته على مكافأته .

(١) حَفِيًّا : كثير العناية والاهتمام .

(٢) فاعدل إليه : فمل إليه واعمل على التقرب منه .

(٣) حلا بقلبه : أحبه .

فلما أفضت الخلافةُ إليه دعا به وقال له : يا يعقوب ! لو جاز
لى إدخالك فى نَسَبى ، ومشاركتك فى الخلافة المفضيةِ إلىّ ،
لكنتَ حقيقاً به . ألسْتَ القائلَ لأنحى وقتَ كذا : كذا . فقال :
يا أمير المؤمنين ! من أنبأكَ بهذا ؟ فوالله ما كان معنا ثالثٌ .
فضحك الرشيدُ وقال : مسرورٌ كان يتولّى سِتْرَ بَيْتِ خَلْوَتِهِ ، وكان
يُنهى إلىّ جميعَ ما صدرَ عنه .

قال مسرورٌ : فوالله ما برحتُ بى عنايةُ أبى يوسف حتى بلغتُ
مع الرشيد هذا المبلغَ .

*
*
*

وحدّثنى أحمدُ بنُ أبى عمْرانَ الفقيهُ أنّ ابنَ التَّلَجِيّ^(١) حدّثه
أنّ بشرًا المريسيّ^(٢) (وكان متزهدًا) قال :

(١) هو عبد الله بن أبى شجاع كان فقيه العراق فى وقته ، وكان من أصحاب
الحسن بن زياد اللؤلؤى ، وكان مولده سنة ١٨١ ، وتوفى سنة ٢٦٦ هجرية (الأنساب
للسمعانى) .

(٢) هو بشر بن غياث بن أبى كريمة أبو عبد الرحمن المريسيّ مولى زيد
ابن الخطاب . كان أبوه يهوديا يسكن بغداد . وتفقه على القاضى أبى يوسف ،
وبرع فى علوم كثيرة ، وتوفى سنة ٢١٨ هجرية .

ما اشتهيتُ من مراتب السلطان إلا مرتبةً رأيتُ أبا يوسف بلغها .
في عَشِيَّةٍ من العَشايا كنتُ اجتزتُ به مُسلماً عليه ، فقال لي : تُقيمُ
عندي العَشيَّةَ لتتناظر في طائفة من العلم . فإني جالسٌ عنده ، وقد ابتدأ
فيما آثرناه ، حتَّى وافى إليه رسولُ أميرِ المؤمنين الرشيدِ . فقال لي :
انتظرني . ومضى فغاب عني مقدارَ ساعتين ورجع ، وخلفه غلمانٌ يحملون
مالاً ، فوضعه بين يديه وانصرفوا . فقال : دُفِعَتْ الليلةُ إلى عجائب .
قلتُ : ما هي ؟ قال : دخلتُ إلى دار أمير المؤمنين فاتتهى بي رسوله
إلى سِتْرِ مُسَبَّلٍ على بابِ مسرورٍ الكبيرِ يُمسِكُهُ . فقال لي : سلِّمِ على
أمير المؤمنين . فسَلَّمْتُ . فقال : وعابك [السـلامُ] يا يعقوب ،
أَدْخُلْ وَحَدِّك ، فَرُفِعَ السِتْرُ حتَّى دخلتُ . فألقيتُ عنده محمد بنَ
جعفرِ بنِ المنصورِ مولى الجاريةِ المعروفةِ ببَدَل^(١) ، ووجهُ كلِّ واحدٍ
منهما محوَّلٌ عن صاحبه . وبين يَدَيِ الرشيدِ سيفٌ مشهور .

(١) بَدَل : كانت مولدة من مولدات المدينة ، وربيت بالبصرة ، وكانت
جميلةً ظريفةً . وكانت أحسن الناس غناءً في دهرها . رغب في التزوج بها وجوه
القواد والنجاب فابت ، وأقامت على حالها حتى ماتت .

فقال لى : يا يعقوب هذا الرجل يُديرنى ^(١) مُذِ الظُّهْرِ على قَتْلِهِ .
فقال ^(٢) له : تَرْضَى بِهِ حَكْمًا بَيْنَنَا ؟ قال : نعم . قال : أَلَيْقِ هَذَا
السِّيفَ عَنْ يَدِكَ ، وَأَرْضَ بِالْحَقِّ لَكَ وَعَلَيْكَ . واستدارا جميعا حتَّى
جلسا مَجِاسَ الْخُصُومِ بَيْنَ يَدَيَّ . ثم قال الرجل : سألتنى أمير المؤمنين
أن أبيعهُ جاريةً علىَّ فيها أَيْمَانٌ مُحْرِجَةٌ لا كَفَّارَةٌ لها أَلَّا أبيعَهَا ولا
أَهَبَهَا . قال ، فقلتُ له : فتسمحُ بها لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إنْ أُنْحَرَجْتُكَ
من يَمِينِكَ ؟ قال إِي والله ، وَإِنَّ ذَلِكَ لَسَهْلٌ عَلَيَّ ! فقلت : هَبْ
لى نِصْفَهَا ، وَبِعْهُ نِصْفَهَا . فقال : قد أَجَبْتُ ، وجعلتُ ثَمَنَ النِّصْفِ
هِدِيَّةً لَكَ . وتعانقا جميعاً ، وانصرفتُ إِلَيْكَ وَلِحِقْنِي هَذَا الْمَالُ .

فوجدنا الْمَالَ الْمَحْمُولَ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا . فقلتُ فى نَفْسِي :
أَحْيَا نَفْسًا ، وَأَصْلَحَ بَيْنَ خَلِيفَةِ وَابْنِ عَمِّهِ فى مِقْدَارِ سَاعَتَيْنِ مِنَ النَّهَارِ .
قال بِشْرٌ : فواللهِ مَا فَرَعْنَا مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ حَتَّى ابْتَدَرْنَا الْغِلْمَانَ يَحْمِلُونَ
مَالًا وَبِرًا وَطِيبًا ، وَمَعَهُمْ جَارِيَةٌ حَصِيفَةٌ . فقالت : تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامُ

(١) يديرنى : يوجهنى ، يجهانى .

(٢) فقال له : قال محمد بن جعفر للرشد .

سَيِّدَتِي وَتَقُولُ لَكَ : أَجَازَنِي سَيِّدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا حَمَلْتَهُ إِلَيْكَ
بِفَعْلَتِهِ ثَوَابَ الْفُتْيَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ وَصُولِي إِلَيْهِ . فَكَانَ الْمَالُ مِنْهُ
خَمْسَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا .

*
* *

حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي أَبُو يَعْقُوبَ
عَنْ جَدِّي وَاضِحٍ مَوْلَى الْمَنْصُورِ^(١) . قَالَ :

كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْ الْمَنْصُورِ وَقَدْ أَحْضَرَ رَجُلًا كَانَ مِنْ رِجَالِ هِشَامِ بْنِ
عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَهُوَ يُسَأَلُهُ عَنْ سِيرَةِ هِشَامٍ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُعْجِبُ الْمَنْصُورَ . فَكَانَ
الرَّجُلُ يَتَرَحَّمُ عِنْدَ كُلِّ جَارٍ مِنْ ذَكَرِهِ ، فَأَحْفَظُ^(٢) ذَلِكَ جَمَاعَتَنَا .
فَقَالَ لَهُ الرَّبِيعُ^(٣) : كَمْ تَتَرَحَّمُ عَلَى عَدُوِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ! فَقَالَ الرَّجُلُ

(١) الخليفة المنصور : هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي
ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، بويغ له بالخلافة سنة ١٣٦ هجرية وهو ابن
إحدى وأربعين سنة . وكان مولده سنة ٩٥ هجرية في اليوم الذي مات فيه الحجاج .
وكانت أمه أم ولد يقال لها سلامة بربرية . وكانت وفاته سنة ١٥٨ هجرية .

(٢) أحفظ : أغضب .

(٣) هو الربيع بن يونس ، من موالى بني العباس ، اتخذه المنصور حاجباً ثم
استوزره ، وكان مهيباً محسناً لإدارة الشؤون . عاش إلى خلافة المهديّ وتوفي سنة ١٦٩

للربيع : مجلسُ أمير المؤمنين (أيده الله) أحقُّ المجالس بشكر
المحسن ، ومجازاة المُجمل ، ولهشام في عنقِ قلادةٍ لا ينزعها إلا غاسلي .
فقال له المنصور : وما هذه القلادة ؟ قال : قلّدتني في حياته ،
وأغناني عن غيره بعد وفاته . فقال له المنصور : أحسنت بارك الله
عليك ! وبحسنِ المكافأةِ تُستحقُّ الصنائع ، وتزكو العوارف ، ثم
أدخلا في خاصته .

*
**

وقد مثل بعضُ الفلاسفة : لحسنِ المكافأةِ بحسام الصيقل^(١)
الذي يحدث له وقوعُ الشمس عليه أنبعث شعاعٍ منه يجلو غياهب
الأمكنة المظلمة ، ويكونُ وفورُ شعاعه على حسب صقالته .

وقال أفلاطون : من حسنت مكافأته^(٢) لم تغضبه خيبته فيما
التسه ، لأنه يُقيم العوارف^(٣) مقام دُيون يتحمّلها لا يسعه إغفالُ

(١) حسام الصيقل : الصيقل شحاذ السيوف وجلأوها ، وإنما خص حسام
الصيقل لأنه يواليه بالصقل والجلأ .

(٢) من حسنت مكافأته : من كان من طبعه أن يحسن المكافأة على ما أدى
إليه من صنيع .

(٣) العوارف : جمع عارفة ، المعروف والمكرمة .

قضاؤها . وإثما يغضبُ من المنع^(١) : من آثرَ تحصيلَ العارفة ،
وإغفالَ المكافأةِ عليها . ولأنَّ المرغوبَ إليه إذا كان يحتاج إلى
مُطالعة^(٢) حُسنِ المكافأةِ للإحسانِ فيثابِرُ عليه ، وسوءَ المكافأةِ
على الإساءةِ فيتأخَّرُ عنه ، كان الراغب محتاجاً إلى أن يكون
في خَلده^(٣) من أخبارِ مَنْ أساء الصَّنيعَ فساءت مكافأتهُ ، ما يوازي
ما أثبتناه من حُسنِ المكافأةِ للإحسانِ^(٤) .

(١) المنع : منع الناس معروفهم عنه .

(٢) مطالعة : تصوّر .

(٣) خَلده : باله ونفسه .

(٤) يقول على كلِّ من المرغوب في إحسانه وطالب الإحسان أن يذكرنا حسن
المكافأة على الفعل الحسن ، وسوء المكافأة على الفعل القبيح ، حتى يكون ذلك
حافزاً للأول على المثابرة على الإحسان ، ودافعاً للثاني على إنابة من يحسن إليه .

المكافأة على القبيح

حدثني أحمد بن يوسف بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جدّه مولى عبد الله بن المقفّع^(١) أنّ عبد الله حدّثه . قال :

كان فيما ترجمته من سير الفرس ، أن فيروز^(٢) لما تقلد مملكة فارس حدّثه نفسه باجتياز بلد الهياطلة^(٣) . وكان به

(١) هو أبو محمد عبد الله بن المقفّع أحد فحول البلاغة . وكان من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب . وكان أبوه المقفّع يعمل في جباية الخراج لولاية العراق من قبل بني أمية . وولد له ابنه هذا حوالي سنة ١٠٦ هجرية . ولما ذاع فضله استكتبه في عصر بني أمية داود بن يوسف بن هبيرة . ثم كتب في عصر بني العباس لعيسى بن علي عم المنصور في أثناء ولايته على كرمان . وعلى يديه أسلم وتسمّى (عبدالله) ثم اتصل بالمنصور ثم قتل بالبصرة سنة ١٤٢

(٢) هو فيروز بن يزيد جرد بن بهرام آل إليه الملك بعد قتله أخاه هرمز . وبقى فيروز ملكا إلى أن هلك على يد ملك الهياطلة بمرور الروع من بلاد خراسان . وكانت مدة ملكه سبعا وعشرين سنة .

(٣) بلاد الهياطلة اسم لبلاد ما وراء النهر: بخارى وسمرقند وما بينهما . وفي تاريخ أي الفداء : أنّ سبب محاربة فيروز لملك الهياطلة أنّ فيروز خطب ابنته فلم يجبه .

للِهِبَاطِلَةِ مَلِكٍ صَحِيحِ الرَّأْيِ ، حَسَنُ الْجَوَارِ ؛ بَجَمْعِ ذَوِي الرَّأْيِ
فِي بَلَدِهِ وَسَأَلَهُمْ عَمَّا يَرَوْنَ ، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَمْوَالَهُمْ وَالْخُرُوجَ مَعَهُ
بِجَزَائِهِمْ خَيْرًا^(١) وَانصَرَفُوا .

وَخَلَا بِهِ وَزِيرُهُ (وَكَانَ عَلَى السَّنِ) . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ !
إِنَّ يَسِيرَ الْحِيلَةِ رَبَّمَا بَلَغَ أَوْفَى مَنَازِلِ الْمُكَافَأَةِ ، وَالَّذِي
عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ أَنْ تُظْهِرَ السُّخْطَ عَلَيَّ ؛ فَتَقَطَّعَ يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ وَتَنْفِيئِي
إِلَى أَقْصَى عَمَلِكَ ؛ وَتَكْتُبَ إِلَى عَامِلِكَ هُنَاكَ فِي حَبْسِي ، وَتُظْهِرَ
أَنَّكَ تَبَيَّنْتَ مِنِّي مَيْلًا إِلَى فَيْرُوزَ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ حُسْنَ الْحِيلَةِ إِتْمَا يَقَعُ
بِغَيْرِ إِضْرَارٍ يَلْحَقُ صَاحِبَهَا^(٢) ؛ وَإِذَا بَلَّغْنَا بِكَ هَذَا فَقَدْ جَاوَزْنَا بِكَ
مَا تَخَافُهُ مِنْ فَيْرُوزَ لَوْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ .

فَقَالَ : أَنَا مُذْ تَكَامَلْتُ تَمْيِيزِي أَحْسَبُ مَالِي وَعَلَيَّ ، فَاذَا وَهَبْتُ لِي
نِعْمَةً عَلِمْتُ أَنَّ عَلَيَّ فِيهَا مِحْنَةٌ ، وَأَنَّ الرِّغَابَ بِالنَّوَابِ ، وَقَدْ
عَشْتُ فِي سُلْطَانِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ فِي هَذِهِ السَّنِ الْعَالِيَةِ عَزِيزَ الْجَانِبِ ،
خَصِيبَ الْأَفْنِيَةِ ، وَشَمْلِي فِي نِهَائِهِ مِنْ رَفَاعَةِ الْعَيْشِ^(٣) وَلَيْسَ مِنْ

(١) جَزَاهُمْ خَيْرًا : قَالَ لَهُمْ جَزَيْتُمْ خَيْرًا .

(٢) أَنْتَ الضَّمِيرُ الْعَائِدُ عَلَى حَسَنِ الْحِيلَةِ بِاعْتِبَارِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ .

(٣) رَفَاعَةُ الْعَيْشِ : سَعَتُهُ وَخَصْبُهُ .

الجميل أن أُمِسِكَ عن قضاء حقِّ النعمةِ على لسلطاني وشملي وأهلي
وولدي ، وصِيَابَتِهِمْ مِمَّا عَدَاهُمْ بِنَفْسِي . وَأَعْلَمُ أَنِّي لَوْ خَدَمْتُ^(١)
السلامةَ لِنَفْسِي لِمَاتِ ذِكْرِي بِمَوْتِي ، وَلَمْ أَبْقِ شَرَفًا لِأَهْلِي ، وَلَعَلَّ
أَجْلِي قَرِيبٌ فَأَفُوزَ بِحَسَنِ الذِّكْرِ فِيمَا أَتَيْتُهُ ، وَقَضَيْتُ بِهِ حَقَّ سِوَالِ
الْإِنْعَامِ عَلَيَّ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيَّ . وَإِنَّمَا اعْتَمَدْتُ^(٢) هَذَا الْأَمْرَ الْفَظِيعَ
لِأَعْدَلِ بَفِكْرِ فَيْرُوزَ عَنِ الْحِيلَةِ^(٣) ، وَأَضْطَرَّهُ إِلَى السُّكُونِ إِلَيَّ .
فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ عَمَّا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ ، دَعَا بِهِ وَقَطَعَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ،
وَنَفَاهُ إِلَى آخِرِ مَسَاحِلِهِ^(٤) فَكَانَ مَحْبُوسًا هُنَاكَ .

وَجَدَّ فَيْرُوزَ فِي سَفَرِهِ فَوَافِيَ الْمَوْضِعَ الَّذِي فِيهِ الْوَزِيرُ فَوَجَدَهُ خَالِيًا
مِمَّنْ كَانَ فِيهِ ، وَلَمْ يَرَبْهُ غَيْرَ رَجُلٍ مَقْطُوعِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجَالَيْنِ ؛ فَسَأَلَهُ
عَنْ حَالِهِ فَقَالَ : كُنْتُ وَزِيرًا لِهَذَا الْخَائِنِ ؛ فَاسْتَشَارَنِي فَأَشْرَتْ عَلَيْهِ
أَلَّا يَنَاهِضَكَ ، وَأَنْ يَسْأَلَكَ إِقْرَارَهُ فِي الْبَلَدِ ، وَحَمَلَ نَحْرَاجَهُ إِلَيْكَ ،
فَاسْتَشَاطَ وَسَوَّأَتْ لَهُ نَفْسُهُ مُنَاوَأَتَكَ . وَقَدْ جَمَعَ جَيْشًا لَهُ كَثِيرَ الْعَدَدِ

(١) خدمت : يريد راعيت وعلها محترفة عن قدمت

(٢) اعتمدت : قصدت .

(٣) لأعدل بفكر الخ : لأبعد عن فكره أني أحتال عليه للإيقاع به

(٤) مساحله : جمع مسلحة ، وهي المكان من المملكة المحصن بالسلاح .

قوى النكاية ، وقدّر أن يلقاك في هذه الطريق . وعندى حيلةٌ
أجازيه بها على سوء صنيعه .

واستجلى فيروز الوزير فقال له : إن عدلت عن هذه الطريق
وتجشمت قطع برية يُقيم السائر فيها يومين ، تحتاجُ إلى حمل الماء
إلى مسيرة يومٍ منها ، ثم تُفِضِي إلى مياه متدفقة . فاذا قطعتها وصلت
إلى بلد الهياطلة ، وهو وجمعه في الطريق الذي آثر سلوكها^(١) ، فتدخلُ
البلد بغير حرب .

حَمَلْتَهُ الْأَسْتِنَامَةَ إِلَيْهِ بِمَا رَأَاهُ بِهِ عَلَى تَصْدِيقِهِ ، وَلِحِجِّ^(٢)
فِي الْبَرِّيَّةِ بِجَمِيعِ جَيْشِهِ (وقد كان واطاً [الوزير] الملك على تكمين
جمع له آخر في البرية) . فسار يومه وبعض غده في قفر لا يوجد به
ماءٌ ولا نبتٌ ، فتساقطت الدوابُّ ، من العطش ، وافترق الجيش لطلب
الخلاص ، ونرج عليه منسراً^(٣) من جيش الهياطلة ، فأبروا عليهم^(٤) ،

(١) وهو وجمعه الخ: أى بينما يكون هو وجمعه في الطريق التي نهيتك عن السير
فيها والتي كنت تريد سلوكها .

(٢) لحج : دخل .

(٣) منسر : قطعة من الجيش تمزقها الجيش الكثير .

(٤) أبروا عليهم : زادوا عليهم وفاقوم في القوة . وفي الأصل : فأثروا عليهم ،
وهو تحريف .

وأخذوا فيروزَ أسيراً ، فمنَّ عليه ملكُ الهياطلة بالإمساك عن قتله ،
وجمعَ وجوهَ بلده ، وأضاف إليهم وجوهاً من عسكر فيروزَ ، واستحلفَ
فيروزَ بحضرتهم أنه لا يجاوزُ حجراً جعله فصلاًً مشتركاً بينه وبينه .
وأثبتَ المفارقة^(١) في صحيفة بخطِّ فيروزَ وأشهدَ عليه الجماعةُ ، وأطلقه
على غاية من التبجيل والإكرام .

فدخلت فيروزَ نجلةً من رُجوعه إلى مملكته بعد أسرِ ملك
الهياطلة له وتعييره^(٢) به ، وحدثته نفسه بمعاودة قتاله . فخرج إليه
وسوّلت له نفسه أنه إن حمل الحجرَ حتى يدخلَ به بلدَ الهياطلة لم يحنث
في يمينه . فحمله بين يديه وسارَ بجمعٍ كثيرٍ ، وخرجَ إليه ملكُ الهياطلة
فالتقيا في منتصفِ طريقهما ، فلها تراءى الجمعانِ أنفردَ ملكُ الهياطلة
عن جمعه ، وسألَ فيروزَ موازاته ليسمعَ منه شيئاً . فبرزَ فيروزُ . فقال له :
أنا وإياك في قبضةٍ من حنثٍ في اليمينِ به ، وهو (عزٌّ وجلٌّ) يشكرُ

(١) وأثبت المفارقة : أى الاتفاق الذى فارق كل منهما صاحبه عليه .

(٢) فى الأصل : تمعيه ، ويمكن توجيهها بتكلف . يقال معرت وجهه إذا

غيرته غيظاً .

للحسن وإحسانه ، ويعاقبُ المسيءَ بإساءته ، وقد أنعمتُ عليك ،
وأحسنتُ إليك ، وأنا أخوفُك اللهَ وأحذرُكَ سَطَوَاتِهِ ، فَإِنِّي أَعْلَمُ
أَنَّ حَيَاءَكَ مِمَّا جَرَى عَلَيْكَ هُوَ الَّذِي رَدَّكَ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
استحيائك من الله (عز وجل) أشدَّ من استحيائك من خلقه .
وليس يُخْرِجُكَ من يَمِينِكَ حَمْلُ هَذَا الْحَجَرَيْنِ يَدَيْكَ ، لِأَنَّ الْيَمِينَ
تَكُونُ عَلَى نِيَّةِ الْمُسْتَحَافِ لِأَعْلَى نِيَّةِ الْمُسْتَحْلَفِ ، فَتَدْبِرُ قَوْلِي ، وَأَعْلَمُ
أَنَّ مَنْ سَمِعَكَ ^(١) من أصحابي على غايةٍ من الثقة بالله في نصره ، ومن
سَمِعَكَ من أصحابك على دُغْمٍ من أن تهلك بِحَوْبِكَ ^(٢) فقال له : لستُ
أرجع عن قتالك .

فأمر أن تُرْكَبَ الصَّحِيفَةُ عَلَى أَطْوَلِ رِمْحٍ فِي الْعَسْكَرِ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ
فَهَزَمَ جَيْشُ فَيْرُوزَ وَقَتِلَ فَيْرُوزُ فِي الْمَعْرَكَةِ ^(٣) .

*
*
*

(١) من سمعك : أى وأنت تقسم اليمين .

(٢) الحوب : الاثم .

(٣) قالوا : إنه تردى مع بعض جماعته في خندق حفره الهياطلة وغطوه

وسمعت أبا جعفرٍ محمد بن هَرثمة . يقول :

كان محمد بن عبد الملك الزيات^(١) يسعى على المتوكل في أيام الواثق^(٢)
ويحرضه عليه . فتغيرت عليه نيته حتى أذاه ذلك إلى حبسه عند محمد
ابن عبد الملك .

فسمعت المتوكل يقول (في اليوم الذي تقدم في إدخاله إلى التنور
الحديد) : لم يئن أحدٌ بمثل ما منيتُ به من ابن الزيات ! ضيق
على محبسي ، ومنعني مما اقتضتني عادتِي . وكنتُ قد رببتُ وفرة^(٣)
فلم يُطلق [لي] تنظيفها ، فكثرت الدوابُّ فيها . وتأدى ذلك إلى

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات
وزير المعتصم . وكان جدّه أبان من قرية يقال لها الدسكرة يجلب الزيت من مواضعه
إلى بغداد . واستوزر المعتصم ابن الزيات بعد ما علم فضله وحزمه وبسط يده . وكان
مع الكتابة شاعرا . ولما مات المعتصم وولى الواثق أقره على ما كان عليه . ثم لما
ولى المتوكل كان في نفسه منه شيء ، وأغراه به أحمد بن أبي دواد فقبض عليه
واستصفى أمواله ، ثم وضعه في التنور فمات ، وذلك سنة ٢٣٣ هجرية .

(٢) الواثق : هو هارون الواثق بالله بن أبي إسحاق . بويع له بالخلافة يوم قبض
أبوه . وأمه قراطيس أمة . وتوفى الواثق سنة ٢٣٢ هجرية وكانت خلافته خمس سنين
وتسعة أشهر وأياما .

(٣) الوفرة : الشعر المتجمع على الرأس .

والدتي ؛ فكتبت إلى الواثق رُقعةً . فقال لمحمد بن عبد الملك :
أطلق لجعفر طم^(١) شعره ؛ وتنظيف ثوبه وتطيبه . فانصرف كالمغيظ
وضرب الموكل بي ؛ وقال : تركت محبس جعفر شارعا^(٢) من الشوارع
حتى سهل شكوى أمه ! ثم أمر بإخراجي فخرجت فوجدت أمارات
الغضب في وجهه . فوقفت ساعة لا يرفع فيها وجهه إلى .
ثم قال : نطع^(٣) . فأوهمني أن الواثق أمر بضرب عنقي ، فبسط بين
يديه : ثم أومأ إلى الغلمان بإدخاله فيه^(٤) ولم أشك في القتل ، ثم قال :
الحجّام . فقلت أظنه يخلع أضراسي قبل قتلي ، وأنا في سائر هذا قائم ؛
فلما وافي الحجّام . قال أحلق شعره . فأجلستني يحاق شعري . فآليت
على نفسي إني لا استبقيته لحظة إن ظفرت بالخلافة ، فات محمد
ابن عبد الملك بالتثور في اليوم الثالث .

*
* *

(١) طم شعره : جز شعره .

(٢) شارعا : مسلوكا يدخله من يشاء ويخرج منه من يشاء .

(٣) نطع : بساط من الأديم كان يفرش لمن يراد قتله ليسقط عليه الدم .

(٤) بإدخاله فيه : يقصد وقوفه عليه أو جلوسه عليه . وهو تعبير غريب .

وحدثني نسيمٌ "خادمُ أحمدَ بنِ طولون". قال :

صار إلى ابنِ سليمان بنِ ثابت . (وكان سليمان^(١) هذا يكتب لخادمٍ يُعرفُ بشُقَيْرٍ^(٢) يتقلدُ الطراز^(٣) من خَدمِ السلطان؛ ثم عمل سليمان بعد ذلك لأحمد بنِ طولون على أملاكه) ومعه رُقعةٌ . فقال توصلها لي إلى الأمير، فقرأتها فكان يذكرُ فيها أن شُقَيْرًا أودع أباه أربعاًة ألف دينارٍ . فلما قرأها الأميرُ قال : انظر ما تقول^(٤) وأصدُقني عنه . فقال الأمرُ واللهِ على ما وصفتهُ للأمير ! فقال : أمسك عن هذا ، وأطو مجيئك إلى عن أبيك وعن سائر الناس ، وانصرف مكلوئًا .

فقال : فكثرتُ تعجبي من إمساكه عن ذكرِ هذا لأبيه ، فلم يَمِضْ حَوْلُ حتى مات سليمان بنُ ثابتٍ ، فأظهر^(٥) عمَّا به وتَفَجَّعًا عليه . ثم دعا

(١) وكان سليمان : في الأصل وكان ابن سليمان وهو تحريف بالزيادة .

(٢) شقير : شقير هذا غير شقير الخادم صاحب البريد أيام ابن طولون الذي تأمر مع ابن مدبر على الوشاية للخليفة بابن طولون فأحضره ابن طولون بلحده فأخذه الزعر فسات في يومه .

(٣) الطراز : الثياب الجيدة وكانت لها إدارة لضبط ما برد منها للسلطان وما يرسل منها إلى دار الخلافة وغيرها .

(٤) انظر ما تقول : أى تأمل جسامة التهمة التى ناقها على أبيك .

(٥) فأظهر : أى أحمد بن طولون .

بأبنة الرافع للرقعة ، فردَّ إليه ما كان بيد أبيه من أملاكه ، وضمَّ إليه من الرجال من تقوى به يده ، وأقام به ^(١) شهورا ، ثم دعاه ، وأنا قائم بين يديه ، فقال له : كيف حالك مع مخلفي أبيك ؟ وهل أنكرت شيئا منهم ؟ فقال : قد أعزَّ الله جازي بالأمير ومنع مني . ^(٢) فقال له : احمل إليَّ الأربعمائة ألف التي عندكم لشقيير الخادم ، فلجلج ^(٣) . فردَّ أمره إلى أحمد بن إسماعيل بن عمار ^(٤) ، وأمره بمطالبتة بالسوط ، فضربه خمسين سوطا ، واصطفى ^(٥) ما كان له ، فلم يجد عنده بعض ما تقوله على أبيه ، وعاود مطالبتة فضربه مرة أخرى فمات .

(١) وقام به شهورا : في سيرة ابن طولون للبلويّ : وتركه شهرا .

(٢) منع مني : قواني وحصّني .

(٣) فلجلج : تردّد في الكلام ، وفي السيرة للبلويّ : فتجلجج .

(٤) هو المعروف بسبع شعرات : قدم إلى أحمد بن طولون من الشام فقلده الأملاك وما خرج عن الخراج ، وصرف به الحسن بن سليمان بن ثابت . وكان أحمد بن إسماعيل قد أشار على ابن طولون بمشورة فلم يعمل بها فبسط لسانه فيه على جهة الإشفاق عليه ، وقال : ليس هو ممن تمرن في الرياسة ، وفيه لجاج لا يؤمن عليه منه . فبلغ ذلك ابن طولون فخبسه في المطبق حتى مات .

(٥) اصطفى : هنا بمعنى أخذ .

فقال لى : فعجبتُ من هلاكه بهذا المقدار^(١) من الضرب . فأخبرتُ
أنّ هذا المضرّوب كان يستزيرُ الفؤاسدَ من النساءِ فى وفورِ حاله ، فزارته
أمرأةٌ كانت ربيطةً^(٢) لجلادِ بالسوّط ، وعلمَ الجلاّدُ بذلك فبكرَ إليه
ووقفَ له ، حتى إذا نرجَ انكبَّ على نِخْذِهِ وقبّله^(٣) . ثم قال : ياسيّدى ؟
قد أغناك الله بمساعتى^(٤) بما بسطه من الرزقِ عليك ، وظاهره^(٥)
من الإحسانِ لديك ، وكانت مهجتي عندك البارحة ، فإن رأيتَ أن
تهبها لى فلكَ منها عَوْضٌ وليس لى عنها معدلٌ ! فصاح فى وجهه
وأمرَ بإبعاده . فلما شدَّ بالعقابينِ^(٦) تقدّمَ الجلاّدُ فضربه ضربَ القتلِ
فأتى على نفسه .

*
* *

(١) بهذا المقدار : أى اليسير .

(٢) ربيطة : الربيط الملائم ، والمراد كانت صاحبة لجلاد ملازمة .

(٣) نخذه : المعروف أن الفخذ مؤنثة .

(٤) بمساعتى : الباء بمعنى عن .

(٥) وظاهره : قواه وكثره .

(٦) العقابان : خشبتان يشدّ بينهما الرجل ويضرب ويعذب .

وحدثني نسيم الخادم أيضاً :

أنَّ أحمدَ بنَ طولون كان مذعوراً من خروج أبي عبد الرحمن العمرى ،
فوافاه الخبيرُ بقتل غلبانِ أبي عبدِ الرحمنِ إِيَّاهُ ، وانتشار أمرِهِ ^(١) .

ثم صار إليه جماعةٌ تُقَارِبُ العَشْرَةَ ومعهم رأسٌ . فقالوا : نحن
غلبانُ العُمَرى ، وهذا رأسُهُ . فجمع الخاصَّ والعامَّ وأدخلهم
إليه ، واستحضر قوماً استأمنوا إليه ^(٢) ، فسألهم عن الرأسِ .
فأجمعوا على أنَّه رأسُ أبي عبدِ الرحمنِ ، وأنَّ الغلبانِ من خاصَّته .

فقال أحمدُ بنُ طولون لهم : هل كان مُسَيِّئاً إليكم ؟ قالوا : لا واللهِ
ولقد كان محسناً إلينا ، ومُفَضِّلاً علينا ! قال : فما حملكم على قتله ؟
قالوا : طلبنا الحُطْوَةَ عندك ، والمكانةَ منك . فقال : قتلتم مولاكم
المحسنَ إليكم بالتَطْرُفِ ^(٣) إلى المزيد !

(١) انتشار أمره : تفرق قوته .

(٢) استحضر قوماً الخ : في السيرة للبلوى : فداً بجماعة من أهل الصعيد ممن
يعرف العمرى .

(٣) التطرف : في الأصل أن ترعى المشاية أطراف النبات ، وأطلق على تجاوز
الحد في الرأي أو العمل ، أى قتلتم سيديكم بسبب مجاوزة الحد في طلب المزيد ،
وفي الأصل التطرب .

ثُمَّ أَمَرَهُمْ فَشَقَّ عَنْ جَمَاعَتِهِمْ ^(١) ، وَأَخَذَتْهُمْ السَّيَاطُ حَتَّى
سَقَطُوا ، وَضُرِبُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالشَّادُوخِ ^(٢) حَتَّى مَاتُوا جَمِيعًا ، وَأَمَرَ
بِدْفَنِ رَأْسِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ .

*
* *

وَسَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاضِي يَحْدُثُ . قَالَ :
كَانَتْ لِي بِوَأَسِطَ حِصَّةٌ أُودِيَ عَنْهَا إِلَى السُّلْطَانِ نَخْرَجًا .
فَقَدِمَ عَلَيْنَا عَامِلٌ قَدْ جُمِعَ ^(٣) مِنَ الظُّلْمِ ، وَسُوءِ التَّسَلُّطِ ، وَفِظَاطَةِ
الطَّبِيعِ . فَجُمِعَ الْمُعَامِلِينَ بِأَسْرِهِمْ عَلَى التَّحْيِيلِ لَهُ بِمَا لَا يُوَصَّلُ إِلَيْهِ ^(٤)
مِنْ أَمْلاكِهِمْ ، وَلَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهِمْ . فَضَرَبَ قَوْمًا ، وَأَسْتَخَفَّ

(١) فشق عن جماعتهم ، أى فشقت الثياب عنهم ، وهو تعبير مألوف
في هذا العهد .

(٢) الشادوخ : يظهر أنه اسم آلة للضرب والتعذيب ، والشدخ : الكسر .

(٣) جمع : كُتُونٌ وَخَلِيقٌ .

(٤) على التحيل له الخ : أى على الاحتيال على مرضاته بإعطائه الأشياء
والأموال التي كانت لا يستطيع الوصول إليها .

بآخرين . فقال له رجل ممن حضر : إن رأيت أن تؤخرني إلى نصف
النهار ! فقال له : لعلك ممن يقول إن من عمود إلى عمود فرجاً !
فقال له الرجل : أنا والله أعتقد أن من لحظة إلى لحظة فرجاً يُرجى
من الله . فتضحك من كلامه .

فوالله ما مضت ساعة حتى دخلت إلينا في الموضع الذي كان فيه
رُعلة^(١) من الخوارج^(٢) وهي تقول : السُّلَيْطِينَ السُّلَيْطِينَ^(٣) !
فقطَعته بأسيافها وخرَجَتْ ، ولم تقتل غيره ، ولا طلبت شيئاً
لأحد . فعلت أنهم عقوبةً أعمدته^(٤) .

*
* *

(١) رُعلة : قطعة من الخيل .

(٢) الخوارج ؛ جمع خارج أو خارجي ، وهم جماعة خرجوا على نظم الحكومة
في الإسلام فلا يوافقون على حكومة حاكم أو خلافة إمام . وقد كانوا يطلقون
في هذا العهد اسم الخوارج أيضاً على القرامطة ، الذين ظهروا بسواد الكوفة
سنة ٢٧٨ ، واشتد أمرهم سنة ٢٩٠ ، واستمرت شرورهم إلى نحو سنة ٣٦٠

(٣) السُّلَيْطِينَ : التصغير للتحقير .

(٤) أعمدته : قصده .

وحدثني عمرُ بنُ يزيدَ البرقيّ (وكان جميلَ المذهب^(١)) . قال :
حضرتُ مُصدِّقا^(٢) شديدَ الاستحلالِ ، بعيداً من الرأفة ،
وهو جالس على رابية وبين يديه حواء^(٣) يحتازُ به ما يحصل له
من الإبل .

قال : فعرضتُ نعم رجلٍ حسنِ الطريقة ، متعالم^(٤) بعفافِ
الطعمَةِ . فتخير^(٥) عليه المصدِّقُ ما آحتازه من إبله ، وأستعمل من
سوء التحكُّم عليه ما لا يصبرُ عليه غيره ، فأمسك^(٦) . ثم نظر بعد

(١) وكان جميل المذهب : متدينا حسن العقيدة .

(٢) مصدقا : المصدق جامع الصدقات (الزكاة) .

(٣) حواء : الحواء : المكان الذي يحوى الأشياء .

(٤) متعالم : تعامل الناس الخبر : علموه .

(٥) فتخير عليه : تخير : انتقى واختار ، و" عليه " هنا تفيد التسلط والغلبة ، أى

اختار على الرغم منه .

(٦) فأمسك : أى لم يتكلم ولم يبد اعتراضا .

أنفصال ما بينهما إلى فصيل سمين كان في إبله . فقال لغلمانه :
خذوا هذا الفصيل حتى يصلح لنا غداءً . فقال صاحب الإبل
له : قد أخذت زيادةً على حَقِّك ، فما هذا ؟

قال : لا بد لي من أخذه . قال : فإني لا أُسَلِّمُه . فأمر^(١) يوجئ
عنقه ، وأخذت مقادته من يده^(٢) ، فصاح بأعلى صوته : ” كلُّ
هذا بعينك يا جبار^(٣) ” ! فخلف لي عمرائه جاء من الحواء فخل
ونرج منه وهو يرغو ؛ فأخذ بعضده ولم يزل يضرب به الأرض
حتى قتله ، وأنصرف الرجل بفصيله .

*
* *

(١) وجأ عنقه : ضربه بالسكين .

(٢) أخذت مقادته : أى أخذ زمام الفصيل من يد صاحبه .

(٣) كل هذا الخ : الخطاب لله عز وجل والمعنى أيصنع كل هذا جهارا يارب
وأنت الجبار المنتقم فلا تعاقب عليه ؟

وفيا أخبر به الهيثم بن عدي^(١) قال :

كان عدي بن زيد^(٢) قد تقدم عند كسرى أبرويز^(٣) في ترجمة
العربي إلى الفارسي . وكان رجلاً جاراً^(٤) للنعمان بن المنذر^(٥) ، فرام
منه النعمان أن يكون عيناً له على كسرى ، فامتنع من ذلك ولم يرض
بهذه السجية ، فتركه النعمان حتى أطمأن إليه ثم سأله أن يزوره .

(١) هو الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الطائي الكوفي ، كان مؤرخاً عالماً
بالأدب والأنساب ، ومن كتبه "خطط الكوفة" و"ولاة الكوفة" و"طبقات
الفقهاء والمحدثين" توفي بقم الصلح سنة ٢٠٧ هـ (الأعلام جزء ٣)

(٢) هو عدي بن زيد بن حماد التيمي : نشأ بالحيرة ، وكان يحسن العربية
والفارسية ، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى وقد اتصل بالنعمان
ابن المنذر وصاهره ، ثم وثى به إلى النعمان فسجنه وقتله في سجنه (الأعلام جزء ٢)
(٣) هو ابن هرم بن أنوشروان ملك الفرس حكم نحو ثمان وثلاثين سنة
ومات في نحو السادسة من الهجرة .

(٤) وكان رجلاً جاراً : أي وكان عدي ، قبل اتصاله بكسرى ، جاراً للنعمان
أي في كنفه وتحت رعايته .

(٥) هو النعمان بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي من أشهر ملوك الحيرة
في الجاهلية ، وهو ممدوح النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وحاتم الطائي ، ملك الحيرة
إرثاً عن أبيه سنة ٥٨٥ م تقريباً وأقزته كسرى فاستمر نيفاً وعشرين عاماً ونقم عليه
كسرى أبرويزاً مراً فعزله وسجنه إلى أن مات سنة ٨ قبل الهجرة تقريباً (الأعلام جزء ٣)

فكلم كسرى وسأله أن يأذن له في زيارته شهراً واحداً، ونصب عدى
أبنة مكانه. (وكان حلو الشاهد، مضطرباً بما يسند إليه) فأذن له،
فلما حصل في يد النعمان قتله، وكتب إلى أبنة يخبره بأنه مات حتف
أنفه، وأنه على غاية من الأسى عليه. وتأدى خبر عدى إلى أبنة
على الصحة، فلم يحرق^(١) فيه. وأقام يتتبع غوائله^(٢) ويعمل الحيلة
في اقتراض وتره^(٣).

بجفري في يوم من الأيام ذكر الجوارى بين كسرى وبين ابن عدى،
وكان أبرويز مستهتراً بهن^(٤). فقال ابن عدى: أحسن النساء حرقه
بنت النعمان. فكتب أبرويز إلى النعمان كتاباً يأمره فيه بحمل حرقه
ابنته إليه. فعظم هذا على النعمان، وكتب إليه كتاباً يذكر فيه قشف
تربية العرب لأولادها^(٥)، وتقصيرهم ببداذة الهيئة^(٦)، ووسخ

(١) فلم يحرق فيه: حرق من بابي فرح وكرم: حمق وطاش، والاسم الحرق
(بالضم) أو الحرق (بالتحريك).

(٢) يتتبع غوائله: يتربص ما يمكن أن ينزل به من الدواهي.

(٣) اقتراض وتره: الوتر: النار، والاقتراض: انتهاز الفرصة.

(٤) مستهتراً بهن: المستهتر بالشيء المولع به لا يبالي ما يفعل ولا يأبه لما يقال.

(٥) قشف: القشف سوء الحال.

(٦) بداذة الهيئة: رثاتها.

المِهْنَةَ، وَأَنَّ فِي عَيْنِ^(١) الْعِرَاقِ عَوْضًا مِنْهُمْ. وَأَنْفَذَ الْكِتَابَ إِلَى كَسْرَى.
فَأَمَرَ كَسْرَى ابْنَ عَدِيٍّ أَنْ يَقْرَأَهُ عَلَيْهِ ؛ فَأَمَرَهُ عَلَى طَرْفِهِ ثُمَّ أَلْقَاهُ
وَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى جَبِينِهِ . وَقَالَ : ” ابْنَتِي لَا تَصْلُحَ لَكَ
. “ فَغَضِبَ كَسْرَى وَأَنْفَذَ رُسُلًا إِلَيْهِ فَأَشْخِصَ
فَلَمَّا قَرُبَ مِنْ مَقَرِّ كَسْرَى أَخْرَجَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ جَارِيَةً بِالْحُلِيِّ وَفَاحِرِ
الْكُسُوفِ وَأُذُنٍ لَهُ . ثُمَّ قَالَ لَهُ بِالْفَارْسِيَّةِ : ” يَا كَلْبُ !
. “ وَأَمَرَ بِشَدِّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ؛ وَأَلْقَاهُ فِي الْأَرْضِ ؛
وَأَطْلَقَ الْفِيلَةَ عَلَيْهِ فَوَطِئَتْهُ حَتَّى مَاتَ تَحْتَ قَوَائِمِهَا .

*
* *

وَفِيهَا جَاءَ بِهِ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ^(٢) . قَالَ : اجْتَاَزَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ
الْمَدِينَةِ بِمَرِيضٍ مُلْتَقٍ عَلَى كُنَّاسَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَنْزِلِ رَجُلٍ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ^(٣)

(١) عين : جمع عينا ، والفعل عين كفرح عينا (بالتحريك) وهو اتساع العين
مع اشتداد سوادها . ويريد بعين العراق نساء الجميلات الواسعات العيون .

(٢) هو أبو عبد الله الزبير بن بكار القرشيّ الأسديّ المكيّ من أحفاد الزبير
ابن العوام . كان عالماً بالأنساب وأخبار العرب وقد ولد بالمدينة وتولى قضاء
مكة ، وبها توفى سنة ٢٥٦ هجرية (الأعلام جزء ١)

(٣) الأولياء : يريد أولياء الأمور أي عمال الوالي . وهذا التعبير مألوف في هذا

اختلّت حاله^(١) ومريض ولا قيمّ عليه^(٢) وتبرّم به رفقائه فأخرجوه من منزلهم ، وهو مُلقًى في الطريق . فأمر الشريف بجمّله إلى منزله وتقدّم إلى أبنه عمّه في حسن القيام عليه بحشمها ، وأن تُرفّه عيشه إلى أن تنقضي عِلّته ، فابتدره كلُّ من في منزل الشريف بالخدمة حتى تكاملت صحته ، وصار في منزلهم كأحدهم ، وقفل إلى دمشق . فلما كان في الوقت الذي توجه جيش يزيد^(٣) للحرة^(٤) وافي فوقف على باب دارهم ، فظنّوا به أنّه وافي لحمايتهم ، وحسن المدافعة عنهم ليقضيمهم سوائفهم لديه ، فدخل الدار ومعه ثلاثة غلمان . فلما تمكّن منها أخذوا في جمع الأثاث ، فقال لهم الشريف : ما هذا؟ فقال : إني استوهبتُ دارك بما فيها من الأمير ووهبها لي ، وكنتُ

(١) اختلّت حاله : الجملة نعت لكلمة رجل السابقة .

(٢) ولا قيمّ عليه : ليس له من يدبرشئونه أو يشرف عليه .

(٣) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأمويّ ، ثاني خلفاء الدولة الأموية ، ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥٦٠ هـ وفي زمنه قتل الحسين وفتح المغرب الأقصى ، توفى بجوارين (من أرض حمص) سنة ٥٦٤ هـ (الأعلام جزء ٣)

(٤) الحرة : أرض بظاهر المدينة وبها كانت وقعة الحرة في ذى الحجة سنة ثلاث وستين حين أمر يزيد عسكره من أهل الشام ، بعد التغلب على أهل المدينة ، بنهبها والتنكيل بأهلها .

أحقَّ الناسِ بها ، إذ كانت الأحوالُ بيني وبينكم وكيدةً ، فقال له الشريف : رجعت يا ابن الخناء^(١) إلى لُؤمِ أصلك ، وفسادِ مَرَجِك !^(٢) ثم علاه بسيفه ، وفرَّ الغلمانُ ، وهدأتْ وَقْدَةُ الفِتنَةِ ، وُطِّلَ^(٣) دمه .

*
*
*

وحدَّثني نافعُ بنُ مَصْقَلَةَ الحِمْصِيُّ قال : سَمِعْتُ أَبِي يقول : رأيتُ مشايخنا مجتمعين على أمرٍ لحِقَه أسلافُهُم :

أنَّهُ كان يَسْكُنُ بِمَحْصَ شابُّ من أهلِ العِراقِ حَسَنُ الصُّورَةِ ، لِينِ العَريكةِ ؛ فأقامَ معهم مَدَّةً ، ثم صارَ الأمرُ بعدَ ذلك إلى بنى العِباسِ ، فتقلَّدَ ذلكَ الفَتى حِمَصَ ، وكانَ مَوْلَى من مَوالى أبي العِباسِ . فلما دخلها فصدَّ إلى دارِ رَئيسِها كانَ بها من أصحابِ بنى أميةٍ فذَبَّحَهُ فيها وجماعةً من غلمانِهِ . ثم نَحَرَ فأحسَنَ السِيرةَ ، وألانَ الجانِبَ . فقيلَ له : ليس يُشِبُّهُ ما أنتَ عليه ما فرَطَ منك إلى الرَّجُلِ الذي ذبَّحْتَهُ وشَمَلَهُ ! فقال : اسمعوا مني ما جرى على عَلْتِهِ^(٤) : اجتزْتُ به ، وقد نَطَّفْتُ أثواباً

(١) ابن الخناء : لثيم الأم .

(٢) فساد مَرَجِك : كناية عن فساد الطرق وسوء الوسائل .

(٣) طلَّ دمه : ذهب هدرا بلا مطالب .

(٤) على علته : كما هو بماله وما عليه . وفي الأصل علنة .

لا أملك غيرها ، وقد دُعيتُ إلى أمرٍ لا يسعني التأخر عنه ، أحتاجُ فيه إلى حُسنِ الهيئَةِ وإظهارِ التَّجَمُّلِ ، ومعى رسولٌ من أسْتَحْضَرَنِي . وهو قاعدٌ على الباب ، فرائتُ دابتى بحيثُ تقعُ عينُهُ ^(١) من رَحْبَةِ مَبْلَطَةِ لِدَارِهِ ، فَأَمَّصَنِي ^(٢) وَأَمَرَ الْغُلَّامَانَ بِتَرْجِيلِي وَضَرَبَنِي ، فَرَكِبْتَنِي أَيْدِيَهُمْ . ثم حَلَفَ أَلَا أُبْرَحَ حَتَّى أَكُنَّسَ رَوْثَ دَابَّتِي بِيَدَيَّ فِي كَمِّي ^(٣) وَأَحْمِلَهُ فِي ثُوبِي وَجِجْرِي ، وَأَخَذْتُ بِجُرْرَتِي إِلَى ذَلِكَ . ولم تَزَلْ حَاشِيَتُهُ تَضْحَكُ مِمَّا نَزَلَ بِي .

فَحَدَّثْتُ مَوْلَايَ فَاسْتَحْلَفَنِي بِحَقِّهِ عَلَى غَلِيظٍ مَا أُتَيْتُهُ إِلَيْهِ ^(٤) .

*
* *

(١) بحيثُ تقعُ عينُهُ الخ : أى إن الدابة راثت في مكان تقع عليه عينه حين يكون أمام الباب جالسا في رجة مبلطة . وفي الأصل : تقع عليه ، وهو تحريف .

(٢) أمصه : قال له يامصّان وهو شتم قبيح ، ومن معانى المصّان : اللثيم الذى يمصّ ضرع الناقة أو نحوها حتى لا يقع شيء من اللبن عند الحلب .

(٣) فى كميّ : أى دون أن أرفع كميّ لتجنب القدر .

(٤) فاستحلفنى الخ : أى جعلنى أحلف على أن أنتقم منه الانتقام الشديد الذى

أوقعته به .

ومما قرأته من سير العجم :

أن جماعة المنجمين حكموا لبعض الأكاسرة أن ابنه يقتله ويتولى ملكه . فعمد كسرى إلى سُموم وحيّة^(١) فجعلها في قوارير وختمها وكتب عليها : دواء الشربة مثقال . وكانت وزنة قيراط تقتل من تلك السُموم . وقال : إن كان الأمر كما حكاه المنجمون فسأخذ بطائلي^(٢) منه ، فعدا عليه ولده وقتله ورأى تلك القوارير فشرّب مثقالاً فمات .

*
* *

وحدثني أحمد بن أبي يعقوب ، قال حدثني أبي عن جدّي واضح قال : سمعتُ خالد بن سَهْمٍ يحدثُ المنصورَ ، وكان هذا الرجل خاصّاً بمرّوان بن محمد الجعدي^(٣) . فطلبَ منه مروانُ جاريةً له كان يُحبّها .

(١) وحيّة : مريعة التأثير .

(٢) بطائلي : بئارى .

(٣) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي آخر خلفاء بني أمية ، تولى الخلافة سنة ١٢٧ هجرية ، وفي أيامه قويت الدعوة الدباسية وزحف جيش قطبة بن شبيب الطائي يريد الإغارة على الشام ، فنازله مروان بعسكره بالقرب من الموصل فهزم مروان وفتز ، وانهى إلى بوسير (من أعمال مصر) فقتل فيها سنة ١٣٢ هجرية (الأعلام ج ٣) .

وتجرّم^(١) عليه فأطال حبسه ، وأخذ الجارية منه . وكان ذا رأيٍ ونجدة ،
فلما استفحل أمرُ أبي مسلمٍ وكسرَ عساكرَ مروانَ أخرجهُ من الحبس
ووعده جميلاً .

قال خالد : كان مروانُ يضحكُ من ذوى المسوِّدةِ^(٢) ويقول :
لو أسرناهم ما بلغنا بهم ما بلغوا بأنفسهم من التشوية والشهرة . فلما
أضطرُّوا إلى مكابحتهم وواقعتهم ، رأيتُهُ قد تهيَّبَ معاركتهم فقال لى :
يا أبا يزيد ! (وما تكانى قبل ذلك اليوم) إني قد ارتعتُ ، فهل
ذلك بيني فيّ ؟

قلت : بلى يا أمير المؤمنين ! وكنتُ أداجنه^(٣) ويسرُّنى حُؤولُ
أمره . فقال ؛ ما أجد قلبى يطيقُ مواععتهم . فقلتُ : إن كان
هذا فتحصَّنَ منهم بالانهزام ، فإنَّ خيلك أنجى^(٤) من خيلهم .

(١) تجرّم عليه : ادعى عليه الجرم ولم يجرم .

(٢) المسوِّدة : العباسيون لأن السواد كان لباسهم وشعارهم .

(٣) أداجنه : أداهنه وأظهره غير ما أبطن .

(٤) أنجى : أسرع .

فانهزم وتوقف أصحابُ أبي مُسلمٍ عن طلبه. فلما بلغ إلى سواده (١)
قال لي : قد عزمْتُ على الدخول إلى بلد الروم (وكان من أصوب
تدبير له) فنفسْتُ عليه بالرأى (٢)، واستعملتُ مغالطته فقلت : تدخلُ
بأحداثٍ من وِلْدِكَ وشَمْلِكَ مستجيرين بكافرٍ قد أمنَ سِرْبُهُ (٣) ،
واستقام أمرُهُ ! ولعلَّ وِلْدَكَ يروُقُهُم ما يروونه في مملكته فيحملهم
ذلك على التنصُر، ولأنَّ تَمَادَى (٤) في مَسِيرِكَ حتَّى تدخلَ مَصْرَ فتجدَ
فيها الرجالَ والسُّكْرَاعَ والمالَ ، وتملكَ بها اختيارَكَ [خيرُك (٥)] .
فركنَ إلى قولي فسرنا ، فلما دخلنا مَصْرَ خرجَ إلى صَعِيدِهَا واستأمنتُ
إلى عامرٍ ، لحالٍ كانت بيني وبينه ، وقتل ببوصير الأشمونين .

*
* *

(١) السواد : مجتمع العسكر .

(٢) نفست عليه بالرأى : المعروف نفست عليه الشيء : لم أره أهلاً له .

(٣) سربه : نفسه .

(٤) تمادى : تَمَادَى .

(٥) خيرك : زيدت ليستقيم الكلام .

ولما قدم أحمد بن طولون إلى مصر متقلداً بها عمل المعونة^(١) أهدى إليه أحمد بن محمد بن مدبر من دق^(٢) مضر ودوابها والرقيق المجلوب إليها ما مقداره عشرة آلاف دينار . فرد ذلك عليه ، وذكر أنه لا حاجة له بشيء منه . فثقل ذلك على ابن مدبر . وقال : ما ينبغي أن يثق السلطان^(٣) بمن لم يكن لعشرة آلاف دينار في عينه قدر على طرف من أطراف مملكته .

ولما مضت أيام بعث^(٤) إليه : قد كنت أنفذت إلى طائفة من برك فرددتها عند وقوع الاستغناء عنها . وقد

(١) عمل المعونة : يراد به معونة الخليفة في حكم مصر ، وذلك أنه لما تولى المعتز بالله وقتل المستعين قلد المعتز بالله باجك ولاية مصر على أن يلتمس من يخلفه عليها ، فقبل له إن أحمد بن طولون هو الثقة الأمين فقلده خلافة وضم إليه الجيش . ورحل ابن طولون إلى مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رمضان سنة ٢٥٤ مقلداً للقبصة دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها مثل الاسكندرية وغيرها .

(٢) الدق : الدقيق ، ويراد به كل بديع الصنعة محكمها .

(٣) السلطان : الخليفة .

(٤) بعث إليه : أى بعث أحمد بن طولون إلى ابن مدبر .

بلغني أن عندك مائة رجلٍ من مَوْلَى الغور^(١) وبي إليهم أمس حاجة . قال ابن المدبر : قد ظهرت في هذا الرجل علامة أخرى !
يرد الأعراض والأموال ويستهدى الرجال .

وكان حسين بن شعرة^(٢) مضحك المتوكل على الله^(٣) قد أنضوى^(٤)
إليه فحَمَى به ضياعه وأملاكه . ووقف على آسنتقال ابن مدبر لأحمد
ابن طولون ، وأخرج حكايته في تزمته وكلامه^(٥) فيضحك ابن مدبر ومن
حضره . فاتصل ذلك بابن طولون فأحضره ثم قال له : بلغني أنك تناد^(٦)

(١) الغور : جبال وولاية بين هرات وغزنية ، وهي بلاد واسعة موحشة .
وفي سيرة أحمد بن طولون للبلوي في وصف مجيئه إلى مصر : ونظر ابن طولون
بين يدي أحمد بن مدبر مائة غلام من مولدى الغور قد انتخبهم وجعلهم عدة وجمالا
وكان لهم خلق حسن وطول أجسام وبأس يعرفون به شديد .

(٢) سماه البلوي الحسن بن شعرة .

(٣) في البلوي . وكان يعنى أيضا .

(٤) انضوى . انضم .

(٥) وأخرج حكايته الخ ، الترتت : الوقار ، أى وأخرج التشبه به ومحاكاته في
مبالغته في وقاره وتصنعه في كلامه مخرج الهزء والسخرية .

(٦) تنادربى : تسوق النوادر للسخرية منى ، وتعمل على أن يتفكك الناس
بالضحك على . وكثيرا ما يستعمل الأدباء هذا الفعل وهو ليس في المعجمات بهذا
المعنى ، والذي في التاج : فلان يتنادر علينا أى يأتينا أحيانا .

بي، ولك في الناس مندوحةٌ فاحذرنى، فأنتك إن وقعت لم ينفك ابن المدبرِّ ولا غيره . فحَدَّ هذا واعتذر إليه منه . ثم أنصرف إلى ابن المدبرِّ وقال : ياسيدنى ! لو شاهدتَ أحمدَ بنَ طولون يُؤنَّبى ! فقال : ما قال لك ؟ قال : اضبرِّ حتى أريك حكاية صورته ومعاتبته . ثم تلبس^(١) وجلس يحكيه ويقتص^(٢) ما لقيه به . ثم اتصل ذلك بأحمدَ بنِ طولون فأمسك عنه وتبعَ غوائله^(٣) .

واضطربت الرعية لنزاع السعير^(٤)، وقد بلغ ثلاثة أرباب حنطة بدينار . فركب^(٥) وتقدم بعقوبة القماحين ، وازدحمت النظارة من السطوح عليه . فوقع مركن^(٦) فيه ريحان إلى الأرض بمزاحمة من

(١) تلبس : تلبس بالثوب اختلط به ، والمراد التف بثيابه على هيئة تشبه هيئة ابن طولون . وفي السيرة للبلوى : فلما عاد إلى ابن مدبر دخل خزنة الكسوة ولبس منها مثل ما كان على أحمد بن طولون .

(٢) يقتص : يقص ، ففي التاج : اقتص الحديث : رواه على وجهه .

(٣) تتبع غوائله . ترقب ما ينزله به من الدواهي .

(٤) نزاع السعير : ارتفاعه .

(٥) فركب : أى ابن طولون .

(٦) مركن : آنية كبيرة كالإجانة تغسل فيها الثياب وترزع بها الرياحين .

تَشَوَّفَ إِلَيْهِ مِنَ النِّسَاءِ . فَسَحَّ كَفَلَ دَابَّةً ^(١) أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ .
فَسَأَلَ عَنِ الدَّارِ : لِمَنْ هِيَ ؟ فَقَالُوا لِحُسَيْنِ بْنِ شَعْرَةَ ! فَأَخْضَرَهُ
وَضْرَبَهُ ثَلَاثَةَ سَوِّطٍ ^(٢) ، وَطَافَ بِهِ ^(٣) . وَكَانَ مَا أَوْقَعَهُ بِهِ مِنْ أَجْلِ
مُتَقَدِّمِ سَوَالِفِهِ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يُفْلِحِ الْحُسَيْنُ بْنُ شَعْرَةَ بَعْدَهَا .

وزاد أمرُ أحمد بن طولون في القوَّةَ وزيادة المال ووفور الكفاية حتى
تَهَيَّبَهُ ابْنُ مَدْبَرٍ ، فَخَدَّثَنِي أَبُو الْعَبَّاسِ الطَّرْسُوسِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ
يَقُولُ لَهُ ^(٤) : يَا أَبَا الْحَسَنِ ! أُنْشِدُكَ اللَّهَ إِنْ تَعَرَّضْتَ ^(٥) لِي ، وَلَا تَرَسَّمْتَ
عِدَاوَتِي ^(٦) ، فَقَدْ آجَهَدْتُ فِي آسْتِصْلَاحِكَ فَلَمْ أُصِلْ إِلَى ذَلِكَ .

(١) فسح الخ : في السيرة للبلوي : فوثب الفرس ووتره من سرجه ولولا ثبوته
في ظهره لرماه على الأرض .

(٢) ثلاثه : في السيرة للبلوي : نحسائة .

(٣) وطاف به : أي أمر بأن يطاف به في الأسواق تشهيراً له .

(٤) له : لابن مدبر .

(٥) إن : ما .

(٦) ترسمت عداوتي : ترسم الأثر اقتفاه وتبعه ، وفي الأصل : بعداوتي .

فقال له ابن مدبر : والله ما أردُّ أمرك فيما أتقلده ، وإني فيه كالمقيم من قبلك ، فأى شيء أنكرت عليّ حتى أتجنّبه ؟ فقال : أنكر عليك المكاتبَةَ إلى الحضرة ^(١) وقد قلد ^(٢) بك البغي . فحلف له ابن المدبر أنه لا يكتبُ إلا بشكره . وصرف ابن المدبر عن مضر بأبي أيوب ابن أخت أبي الوزير ، فلما أجمع ^(٣) الشُّخوص عنها ، قال له أحمدُ ابنُ طولون : يا أبا الحسن ! لو أردتُ بك سوء القدرتُ عليه ، وأحتاجُ إلى أن تجددَ تلكَ اليمينَ ، فحلف له بالمخرجاتِ إنّه لا يألو حرصاً في تزيين آثاره ، وتطبيب أخباره ، وأشهد عليه الله بذلك ، ونرجع عن مضر متقلداً للشام ، فأقام مع ماجور ^(٤) .

فحدّثني نعتُ مولاةِ أحمد بن طولون وأمِّ ثلاثِ بناتٍ كنَّ له ، فقالت : كنتُ عند مولاى بائنةً فسمِعتهُ يحلمُ في نومه ، فخفتُ أن

(١) الحضرة : دار الخلافة .

(٢) قلد بك : جمع بك .

(٣) أجمع : عزم على .

(٤) ماجور : المشهور أما جور التركي وكان متقلدا أعمال الشام .

أَنَّهُ فُيْنَكَرَ عَلَيَّ هَذَا ، فَانْتَبَهَ وَجَلَسَ وَمَسَحَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ : ” خَيْرٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ “ ، فَسَأَلْتُهُ عَمَّا رَأَى ، فَقَالَ : رَأَيْتُ ابْنَ مَدْبَرٍ قَائِمًا
فِي وَسَطِ بَرِّيَّةٍ ، وَمَعَهُ قَوْسٌ مَوْتَرَةٌ وَسِهَامٌ ، وَأَنَا تَجَاهَهُ قَائِمٌ ، وَمَعِيَ
جَمِيعُ السِّلَاحِ إِلَّا الْقَوْسَ ، وَبَيْنَنَا نَهْرٌ ، فَكَأَنَّهُ يُسَدُّ السَّهْمَ نَحْوِي
وَيَرْمِي فَأَخْطَأَنِي ، وَكَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ : لَوْ رَمَاكَ يَوْمَهُ كُلَّهُ لَمَا أَصَابَكَ
بِهِ لِأَنَّهُ عَاهَدَكَ ، وَمَا يَضُرُّ هَذَا الْفِعْلُ غَيْرَ نَفْسِهِ ، فَكَأَنَّهُ أَشْتَدُّ
عَلَيَّ أَنَّهُمَا كُهُ فِي الرَّمِي لِي ، وَلَيْسَ فِي يَدِي غَيْرُ سَيْفٍ وَشَرِّحَ .
أَشْبَهَهُمَا ، لَا تَعْمَلُ فِي الْبُعْدِ . وَقَدْ حَالَ النَّهْرُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْعُبُورِ إِلَيْهِ .
فَأَنَا عَلَى هَذَا ، حَتَّى نَضَبَ النَّهْرُ فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ قَطْرَةٌ ، فَعَبَّرْتُ إِلَيْهِ ، فَكَأَنِّي
كَلَّمَا كُنْتُ قُرْبْتُ مِنْهُ يَصْغُرُ حَتَّى صَارَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ تُوَارِيهِ الْكَفُّ ،
فَأَخَذْتُهُ بِيَدِي أَسْتَطْرِفُهُ^(٢) ثُمَّ أَلْقَيْتُهُ مِنْ قَامَتِي عَلَى رَأْسِهِ فَمَاتَ . فَنَأَوَّلْتُ
سِهَامَهُ الْمَكَاتِبَةَ فِي النَّحْرِ يَضُّ عَلَيَّ ، وَالنَّهْرَ الَّذِي مَنَعَنِي مِنْهُ مَقَامَ مَا جَوَرَ
بِدِمَشْقَ ، وَنَضُوبَهُ مَوْتَ مَا جَوَرَ ، وَصَغْرَهُ قَدْرَتِي عَلَيْهِ ، وَأَحْتِيَازَهُ

(١) شرح : الشرخ النصل لم يركب عليه قائمه .

(٢) استطرفه : أجده غريبا طريفا .

في كفى قَبِضِي عليه ، وقولَ القائل في السِّهامِ إنها تُحْطِئُكَ أن اللهَ
لا يُعِينُهُ عَلَيَّ ^(١) .

فَحَدَّثْتُ هَذَا الْحَدِيثَ سَعْدًا الْفَرَّغَانِيَّ غَلَامَ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ فَقَالَ لِي :
مَا سَمِعْتُ بِهَذَا إِلَّا مِنْكَ . وَالَّذِي عِنْدِي مِنْ خَبْرِهِ مُطَابِقٌ لِهَذِهِ الرَّوْيَا .
وَذَلِكَ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ مُحَمَّدٍ ^(٢) بَرَمَ ^(٣) بِكَيْدِ الْكُتَّابِ وَانْتِقَاضِ الْأَوْلِيَاءِ ^(٤) ،

^(١) كان ابن طولون يؤمن بصدق رؤياه . حكى القاضي التنوخي أن محمد بن
سليمان قال : نزلت إلى مصر وأنا في زى صغار الأتباع ، فاتصلت بلؤلؤ الطولوني
فأجرى علي دينارين في كل شهر وصيرني مشرفا في إصطبله ، فلما كان في بعض
الأيام أحضرنى وقال : ويحك من أين يعرفك الأمير ؟ يعني أحمد بن طولون .
فقلت : والله مارآني قط . فقال دعاني الساعة فقال : معك رجل أشقر أشهل
يقال له محمد بن سليمان فأبعده عنك ، فاني رأيتة البارحة وفي يده مكنسة يكذس
داري بها . فتوق ويحك ولا تتعرف إلى أحد من حاشيته . ومضت بعد ذلك شهور
ثم دعاني ثانية فقال : ويحك ماذا بليت به منك ؟ دعاني الأمير فقال : أليس أمرتك
بصرف محمد بن سليمان فأخرجه من البلد الساعة فاني رأيتة في النوم أيضا وفي يده
مكنسة وهو يكنس بها دوري ومجري .

ومحمد بن سليمان هذا هو الذي أزال ملك الدولة الطولونية .

^(٢) كان من وزراء الدولة العباسية ، وكانت صلته وثيقة بابن طولون ، ثم نفاه
الخليفة إلى الرقة متهما إياه بالإساءة إلى الأولياء والكتّاب ، فكتب إلى ابن طولون
كتابا يرغب فيه في المقام عنده .

^(٣) برم : سَمَّ ومَلَّ .

^(٤) الأولياء : أولياء الأمور ، العمال .

فكتب إلى أحمد بن طولون يذكر له رغبته في المقام بمصر. فكتب إليه أحمد بن طولون: إنما أنا وليك^(١)، ومقام صنيعة من صنائعك. وصوب رأيه فيما آثره. فحج من بغداد وثنى عنائه إلى مضر فمنعه صاحب البذرة^(٢) فأنفذ كتباً إلى أحمد بن طولون فكان أول ما صدر منها إلينا أربعين كتاباً جميعاً بخط ابن المدبر، يُعظم فيها أمر أحمد بن طولون. ويقول: إنه قد عزم على أن يجلس خليفة، ويصفه بكل غدر. فعجب منها ابن طولون. ثم مات ماجور، واحتاز دمشق والشام، وأنفذني إلى الرملة فقبضت عليه وأشخصته إليه، فأقام مدة في حبس ضيق وجفوم مما جرت به عادته حتى ذهب بصره ومات^(٣).

*
* *

(١) الولي: المحب والنصير.

(٢) البذرة: الخفارة، والمراد هنا خفارة حدود المملكة.

(٣) في السيرة للبلوي: فحبسه في حجرة من داره مكرماً، ولم يدر ابن مدر ما عرّفه به الحسن بن مخلد، وقزّره له عنده.

وحدثني سهل بن شنيف ، قال :

رَجَعْتُ [مَرَّةً] مع أحمد بن محمد بن مدبر إلى داره فاستقبلته امرأة ، فقالت أيها السيد ! نحن مائة عيّل على فلان المتقبل^(١) ، وقد ضاع شمله لحبسه ، فأتت دعوة تعرج إلى الله منا فيك ! فقال وهو متهزئ : إذا عزمتم على هذا فليكن الدعاء في السحر فإنه أنجع له . قال لي سهل : فارتعت من الكلمة ؛ فما مضى له شهر حتى تقلد محمد بن هلال^(٢) الخراج وصرّفه عنه .

واجتمعاً عند أحمد بن طولون فاهتدى محمد بن هلال إلى ما لم يُظنّ أنه يقف عليه ، لأنه أوّل ما ناظره قال : رزق الخراج كذا وكذا ، وأرزاق الدواوين^(٣) المضافة إليه كذا وكذا، فهل قبضت جملة هذه

(١) المتقبل : هو الذي يتقبل عملاً أو تادية مال للسلطان في مقابل أجر معين .

(٢) قال البلوي : وكان ابن هلال قد تقرب من قلب أحمد بن طولون وتعبد له ، وكان له بمصر محل ونبل ، فسأله أن يكتب إلى الحضرة يطلب له الخراج ، فلموضعه منه ولما في نفسه من ابن مدبر سارع إلى ذلك فوردت عليه الكتب بتقليد ابن هلال .

(٣) وأرزاق الدواوين : يراد بالدواوين أنواع الضرائب الأخرى غير خراج

الأرزاق؟ قال ابن المدبّر: نعم! ما حضرني كتاب أمير المؤمنين
باطلاق جميع الرزق لك، لأنه يجوز أن يكون استعملك على جميع
الأعمال برزق الخراج وحده. فانقطع^(١) [إلى] ابن المدبّر وطالبه
بالمال. فقال: ما يلزمني. ورد^(٢) إلى يد محمد بن هلال، فأليس
جبةً كانت على بعض الساسة^(٣) وأقيم في الطريق على كُفاسة،
وختمت^(٤) الجبة في عنقه.

فكان أوّل من وافاه المرأة التي قال لها يكون دعاؤك في السحر
هو أنجع له. فقالت: جزاك الله يا أبا الحسن خيراً! فقد نفعتنا
بأكثر مما ضررتنا! لأننا جربنا ما أشرت به فوجدناه أنجع شيء
يُتمسّس، فبكي ومن حوله من المتوكّلين به، وأنصرفت المرأة
داعيةً له.



(١) انقطع: أي عهد بن هلال.

(٢) ورد: أي ابن المدبّر إلى ابن هلال مرّة أخرى.

(٣) الساسة: خدام الخليل ونحوها.

(٤) ختمت: لعلهم في هذا الزمن كانوا ينختمون المجرمين بخاتم خاص.

وكان محمد^(١) بن أبي الساج ، قد هادن نِخمارويه بن أحمد ابن طولون ، وحلف بأُخْرِجاتِ إِنْه لا يشاقه ولا يُجْهزُ إليه جيشاً أبداً ، وخلف عنده ابنه المعروف بداد رهينةً ، فسكن نِخمارويه إلى هذا . ثم تواترت الأخبار بنجيشه عليه ، وما آثره من المسير إليه ، فدعا بآبئه وقال : قد نقض أبوك ما بيني وبينه . فقال : ياسيدي ! ما أعرف لي أباً غيرك ، فرق له وأجازه وأقرَّ أثرته^(٢) ثم توجه إلى ابن أبي الساج فالتقى بالثنية .

(١) هو محمد بن أبي الساج ، ولي إمرة الأهواز وحرب صاحب الزنج من قبل الخليفة المعتمد سنة ٢٦١ هـ وقد رغب في ضم الشام إلى ملك بني العباس عقب وفاة أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ ولكنه لم يوفق في مسلكه : خالف إسحاق بن كنداج وحاربه وكانا متفقين على فتح الشام معا . ثم خرج على الخليفة العباسي ودعا لنِخمارويه وهادنه ، ثم انتهى أمره بالهرب من نِخمارويه بعد وقعت جرت بينهما فأكرمه الموفق وخلع عليه بعد أن قبل توبته وأخرجه معه لحرب الخارجين من أهل الجبل ، وقد توفي بأذربيجان سنة ٢٨٨ هـ .

(٢) هو أبو الجيش نِخمارويه بن أحمد بن طولون ، ولي مصر بعد وفاة أبيه وله من العمر عشرون عاماً ، وقد اتسع الملك في أيامه فكان له من الفرات إلى بلاد النوبة . قتل بدمشق سنة ٢٨٢ هـ (الأعلام جزء ١ —)

(٣) أقرَّ أثرته : وافق على إيثاره إياه على أبيه . وفي الأصل ، (وافرأ بره) هكذا بدون نقط .

خَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
بْنِ طَبَّاطَبَا (١) [وَكَانَ مَعَهُ] . قَالَ :

لَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ أَمَرَ بِالْقَاءِ حَصِيرِ الصَّلَاةِ فَأُلْقِيَتْ ، وَنَزَلَتْ مَعَهُ
فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، فَلَمَّا اسْتَمْتَمَهُمَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي خُفِّهِ فَأَخْرَجَ مِنْهُ خَطًّا
ابْنِ أَبِي السَّاجِ الَّذِي حَلَفَ فِيهِ بِوَكَيْدِ الْإِيمَانِ إِنَّهُ لَا يُجَارِبُهُ . فَقَالَ :
اللَّهُمَّ إِنِّي رَضِيتُ بِمَا أَعْطَانِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِكَ ، وَوَقَّيْتُ بِكَفَايَتِكَ
إِيَّايَ غَدْرَهُ ، وَ [إِنَّ] (٢) بِحَلْفِهِ وَأَجْتَرَانِهِ عَلَى الْحِنْثِ بِمَا أَكَّدَهُ لِي اغْتِرَارًا
بِحَلْهِكَ عَنْهُ ، فَأَدَلَّنِي عَلَيْهِ (٣) .

ثُمَّ رَكِبَ فَرَأَيْتُ مَيْمَنَةً يُحَارَوِيهِ قَدْ أَنْهَزِمَتْ وَتَبِعْتَهَا مَيْسَرَتُهُ ،
فَحَمَلَ فِي شِرْذِمَةٍ يَسِيرَةٍ عَلَى جَيْشِ ابْنِ أَبِي السَّاجِ ، وَهُوَ فِي غَايَةِ مِنَ
الْوَفُورِ ، فَانْهَزَمُوا بِأَسْرِهِمْ ، فَوَقَفَ عَلَى نَشْرِ (٤) وَأَطْفَتْ وَمَنْ حَضَرَهُ
بِهِ ، فَاسْتَأْمَنَتْ إِلَيْنَا عِدَّةٌ كَثِيرَةٌ (٥) . فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ مَقَامَنَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَعَ

(١) هو الشريف الحسنی، كان سيِّداً فاضلاً جواداً، وكان له جاهٌ ومنزلةٌ، توفى
سنة ٣١٥ . (النجوم الزاهرة) .

(٢) ريدت (إن) على الأصل ليستقيم الكلام .

(٣) فأدلتني عليه : المعروف : أدلتني منه أي أجعل لي الغلبة عليه .

(٤) نشز : مكان عال .

(٥) فاستأمنت الخ : أي جاء إلينا عدد من جيش العدو يطلب الأمان .

هذه الجماعة خَطَرٌ . فأمرني بالمسير بهم إلى مُسْتَقَرِّ سَوَادِهِ^(١) فسرتُ معهم ، وأنا على رَقَبَةٍ من طمَعٍ فِيهِ أُوَكِّدُ لَهُ ، فبلغوا نهراً احتاجوا إلى عُبُورِهِ ، فرأيتهم قد خلعوا الخفاف وحطّوا الرِّحال وسلَكوا سلوكَ المَطْمَينِ فَأَنْسَتُ إِلَيْهِمْ .

* * *

وكان في حارتنا شابٌ قد قَدِمَ مِنَ العِراقِ ذِكِيُّ الرُّوحِ هادئٌ السَّعْيِ^(٢) ، يذُكُرُ أَنَّهُ قَرَابَةُ لابنِ يَعْفَرَ القَائِمِ كانَ باليمنِ^(٣) . وكان بمصرِ في دُونَ قومه^(٤) . فأشار عليه مَنْ شاهد ابنَ يَعْفَرَ وَسَعَةَ أمرِهِ بالخروجِ إِلَيْهِ ؛ فَأَخَذْتُ لَهُ حِجَّةً^(٥) مِنْ بَعْضِ أَهْلِنَا ، وَأَضَفْتُ إِلَيْهَا بَرًّا يَنْبَغِي بِحُمْلِهِ ، وَنَجَحْتُ فَلَقِي بِمَكَّةَ عَجُوزًا يَمَانِيَّةً جَلِيلَةً القَدْرِ فِيهِمْ ، فَعَرَفَهَا مَوْضِعَهُ فَقَالَتْ : أَنَا أَتَكْفَلُ بِمُؤَنَّتِكَ وَتَحْمَلِكِ وَأَغْنِمُ هَذِهِ اليَدَ عِنْدَ الأَمِيرِ . وَحَمَلْتَهُ حَتَّى صَارَتْ بِهِ إِلَى عَشِيرَتِهَا ، فَقَالَتْ لَهُمْ :

(١) سواده : معظم جيشه .

(٢) هادئ السعي : متأن قليل النشاط .

(٣) القائم كان باليمن : تعبير مألوف في ذلك العهد : أى الذى كان قائماً باليمن

(٤) في دون قومه : غريباً .

(٥) فأخذت له حجة : جمعت له نفقت حجة .

إِنَّ ابْنَ يَعْفَرَ قَتَلَ مِنَّا فِي الْعَامِ الْمَاضِي رَجُلًا ؛ وَمَعِيَ قَرَابَةٌ لَهُ
فَاقْتُلُوهُ بِهِ . وَاجْتَمَعَ الْحَيُّ وَتَسَلَّمَهُ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ . فَلَمَّا جَرَّدَ السِّيفُ
أَضْطَرَبَ وَبَكَى . فَقَالَ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ : مَا نَرْضَى أَنْ نَقْتُلَ هَذَا
بِصَاحِبِنَا ! صَاحِبِنَا شَجَاعٌ ، وَهَذَا جَبَانٌ . فَبَعَثُوا بِهِ إِلَى ابْنِ يَعْفَرَ وَقَالُوا
لِرَسُولِهِمْ إِلَيْهِ : إِنَّا لَا نَرْضَى أَنْ نَقْتَادَ مِنْ هَذَا .

فَلَمَّا وَافَى ابْنَ يَعْفَرَ دَعَا لَهُ بِالسِّيفِ وَالنِّطْعِ لِيُقْتَلَ ، وَقَالَ : هَتَكْتَنِي
فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْعَرَبِ ! فَقَالَ لَهُ وَزِيرُهُ : إِنَّ هَذَا الْفَتَى خَرَجَ مِنْ فِائِدَةٍ
وَأَمِنَ إِلَى مَوْقِفٍ تُضْرَبُ فِيهِ عُنُقُهُ فَأَضْطَرَبَ ، وَإِنَّمَا يَقْتُلُ الْأَمِيرُ مَنْ
قَادَ الْجِيُوشَ وَتَطَعَّمَ بِجَلَاوَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِيهِ ^(١) وَتَمَكَّنَ مِنَ الرِّيَاسَةِ
ثُمَّ عَدَلَ بِهِ طَبَعُهُ إِلَى الْخَوَرِ . وَالَّذِي أَرَاهُ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَعْقِدَ لَهُ الرِّيَاسَةَ عَلَى
جَمَاعَتِهِ وَيُنْفِذَهُ إِلَى مُهِمَّاتِهِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْفَضَائِلِ إِنَّمَا تَظْهَرُ
بِحَسَنِ الْارْتِيَاضِ . فَفَعَلَ الْمَلِكُ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ وَزِيرُهُ .

فَخَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَامِرِ الْيَمَانِيُّ : أَنَّهُ دَرَجَ بِهَذَا التَّنْدِيرِ
فَظَهَرَ مِنْ شَجَاعَتِهِ مَا لَمْ يَرِ فِي آلِ يَعْفَرَ مِثْلَهُ ؛ ثُمَّ غَزَا الْحَيَّ الَّذِي
كَانَتْ تِلْكَ الْعَجُوزُ مِنْهُمْ فَقَتَلَ أَوْلَادًا كَانُوا لَهَا وَأَقْفَرَ بِهِ ذَلِكَ الْحَيُّ .

*
* *

(١) فِيهِ : الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْمَنْصِبِ الْمَفْهُومِ مِنَ السِّيَاقِ . وَالْأَوَّلَى حَذَفَ (فِيهِ) .

وحدّثني يُوْسُفُ بنُ إبراهيم [والدي] . قال :

حدّثني إبراهيم بن المهديّ أنّه دخل على الخيزران^(١) أمّ الرشيد فوجدها جالسة في الدار المعروفة بها (وصارت إلى أمّ محمد بنت الرشيد بعدها) على نمط إرمينيّ^(٢) والنمط على بساط إرمينيّ، وعن يمين النمط ويساره نمارق^(٣) إرمينية، وعلى أعلى نمرقة منها زينب بنت سليمان بن عليّ، وعلى يسار النمارق أمهات أولاد المنصور ونسوة من نساء بني هاشم، إذ وقفت امرأة على طرف البساط فسلمت ثم قالت: يا زوج أمير المؤمنين أنا مريمّة زوج هشام بن عبد الملك ثم مروان بن محمد من بعده، نكحها الزمن وزلت بها النعل، حتى أصارها إلى عارية ما تستتر^(٤) به ممّا عليها. فتبينت الدموع تدور في عين الخيزران، وخافت زينب أن تدخلها

(١) الخيزران: زوج المهديّ العباسيّ وأمّ الهادي والرشيد، يمانية الأصل، أخذت العلم عن الأوزاعي، توفيت في عهد الرشيد سنة ١٨٣ هـ.

(٢) نمط إرمينيّ: النمط ظهارة الفراش، وإرمينية وقد تشدّد الياء أربع كور متصل بعضها ببعض ببلاد الروم، يقال لكل كورة منها إرمينية، والنسبة إليها أرمني بفتح الهجزة. ولكن المؤلف جرى في النسب إليها على القياس لا على المسموع.

(٣) نمارق: النمرق والهرقة مثلثة النون: الوسادة الصغيرة.

(٤) ما تستتر: ما موصولة فاعل أصار. والمعنى أن الذي تستتر به من الثياب ممزق خلق صيرها كالعارية.

رَقَّةٌ ، فَقَطَعَتْ عَلَى مُرَيَّةَ الْكَلَامَ بِأَنَّ قَالَتْ : يَا أُمَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ !
اتَّقِ اللَّهَ أَنْ يَدْخُلَكَ رَأْفَةٌ بِهَذِهِ الْمَلْعُونَةَ فَتَبَوِّئِي مَقْعَدَكَ مِنَ النَّارِ !
ثُمَّ التَّفَتَتْ إِلَى مُرَيَّةَ فَقَالَتْ لَهَا : بَكَ فِدَامِ مَا أَنْتِ فِيهِ يَا مُرَيَّةُ !
كَأَنَّكَ نَسِيتِ دَخُولِي عَلَيْكَ بِحَرَانَ^(١) وَأَنْتِ جَالِسَةٌ بِصَخْنِ دَارِ مَرْوَانَ
عَلَى هَذَا النَّمَطِ ، وَتَحْتَهُ هَذَا الْبِسَاطُ ، وَعَنْ يَمِينِ نَمَطِكَ وَيَسَارِهِ هَذِهِ
النَّمَارِقُ ، وَعَلَيْهَا أُمَّهَاتُ أَوْلَادِ جَبَابِرَتِكُمْ ، وَقَدْ مَثَلْتُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ
الَّذِي أَنْتِ فِيهِ مَائِلَةٌ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ فِي اسْتِيْهَابِ جُثَّةِ
إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ^(٢) مِنْ مَرْوَانَ^(٣) لَثَلًا يُمَثِّلُ بِهِ ، وَقَوْلِكَ وَأَنْتِ
كَالْحَلَّةِ^(٤) فِي وَجْهِ : مَا لِلنِّسَاءِ وَالِدَخُولِ فِي أُمُورِ الرِّجَالِ ! ثُمَّ أَمَرْتُ

(١) حَرَانَ : مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَهِيَ قَصْبَةُ دِيَارِ مِضَرَ . فَتَحَتْ أَيَّامَ
عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ، عَلَى يَدِ عِيَاضِ بْنِ عُثْمَانَ ، وَبِهَا قَبْرُ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامِ . قَالَ سَدِيفُ :

قَد كُنْتُ أَحْسَبُنِي جَلْدًا فَضَعُضُنِي قَبْرَ بَحْرَانَ فِيهِ عَصْمَةُ الدِّينِ

(٢) هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، زَعِيمُ الدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .
انْتَشَرَتْ دَعْوَتُهُ وَوَجَّهَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخُرَّاسَانِيَّ وَالْيَا عَلِيَّ شَيْعَتَهُ بِخُرَّاسَانَ ، ثُمَّ قَبِضَ
عَلَيْهِ مَرْوَانَ بْنُ مُحَمَّدٍ وَسَجَّنَهُ بِحَرَانَ وَقَتَلَهُ فِي الْحَبْسِ .

(٣) وَقَوْلِكَ : مَعْطُوفٌ عَلَى دَخُولِي عَلَيْكَ .

(٤) كَالْحَلَّةِ : عَابَسَةٌ .

بإخراجي من دارك بغاظة ، فلجأتُ إلى مروان فوجدته على حالٍ أشدَّ تعظفا على رَحِمِهِ مِنْكَ . وقال لي : لقد ساءتني وفاة ابن عمي وما دَبَّرْتُ المِثْلَةَ^(١) [به] وقد خيّرني بين إطلاقِ تجهيزه له وبين تسليمه إليّ ، فاخترتُ تسليمه ، وأمر له بجهازٍ فقبلته منه .

قال إبراهيم : فالتفتتُ مريّةً إلى زينب فقالت لها : كأنك يا بنت سليمان حمدتِ لي عاقبةَ أمرى في قطيعتي رَحِمِي ، فأردتِ أن تزيني قطيعةَ الرَّحِمِ لأمِّ أمير المؤمنين ! ثم التفتت إلى الخيزران فقالت : قد صدقتِ زينبُ فيما ذكّرتِ عني ، وذلك الفعلُ مني أحلّني هذا هذا المحلّ . والسعيدُ من اتعظ بغيره . وانصرفت .

فبعثتُ إليها الخيزران ما أعاد إليها [حالها] وكفَّ اختلالها .

* *

وحدثني يوسفُ بنُ إبراهيم والدي ، أنه سمع بطوس رجلاً^(٢) يُحدِّث إبراهيم بن المهدي : أن نَقْفُورَ^(٣) الملك لما تأدّى

(١) المثلة : التمثيل بالقتيل والتنكيل به .

(٢) رجلا : سياني في هذه القصة أن اسم هذا الرجل بطرس .

(٣) كان أبي أن يدفع الخراج إلى الرشيد فخار به الرشيد وخزب بلاده ثم صالحه على خراج يحمله إليه في كل سنة ، ومات نقفور سنة ١٩٣ بعد أن حكم سبع سنين .

إليه الخير بوفاة الرشيد ، جعل ذلك اليوم عيداً للروم ، ثم جعل عيداً
أعظم منه في اليوم الذي تأدى إليه وقوع الشرين محمد الأمين^(١)
والمأمون ، ثم عيداً ثالثاً في الوقت الذي بلغه خروج أبي السرايا^(٢) ،
ثم خرج إلى البرجان^(٣) ليحاربهم فقتل . فسأل بطارقة^(٤) الروم

(١) هو محمد الأمين الخليفة العباسي ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه الرشيد
سنة ١٩٣ هـ وبمهد منه ، وقد أعلن سنة ١٩٥ خلع أخيه المأمون من ولاية العهد
فكان هذا سبباً في وقوع حرب بينهما انتهى أمرها بتغلب المأمون وقتل الأمين
سنة ١٩٨ هـ

(٢) أبو السرايا : هو السرى بن منصور ، كان في أول أمره يكرى الحمير ، ثم
قوى حاله بجمع عصاة لقطع الطرق ، فلما حدث فتنة الأمين والمأمون اشترك
فيها قائداً وخوطب بالأمير ، ثم شق عصا الطاعة في عهد المأمون واستولى على
بعض البلاد ، ولم يزل شره يعظم وأمره يستفحل إلى أن قتله الحسن بن سهل
وبعث برأسه إلى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠ هـ (الأعلام جزء ١)

هذا ، وفيما يذكره المؤلف خطأ تاريخي لأن نقفور مات في السنة التي مات فيها
الرشيد ، فلم يكن حياً حينما وقع الشر بين الأمين والمأمون سنة ١٩٥ ، ولم يكن
حياً حينما خرج أبو السرايا على الدولة العباسية سنة ١٩٩

(٣) البرجان : صنف من الروم .

(٤) بطارقة : جمع بطريق : القائد من قواد الروم .

بطريقهم^(١) اختيار رجل ليقبّل مملكتهم فاتفق معهم على رجل من أبناء العرب يقال له اليون، فلكوه^(٢). وكان ذانكاية^(٣) فدفع عنهم وقدة^(٤) البرجان، وقوى اليون على ضبط المملكة، وكانت الروم في أيامه أعزّ منها في أيام نقفور، إلا أنهم أنكروا عليه بسط اليد بالهبات والعفو عن أسرى المسلمين.

ثم اجتمعت البطارقة الاثنا عشر في مجايس على نبيذ لهم، فتذاكروا أمره واستشنعوا فعله. وكان أغلظهم كدحا عليه^(٥) ميخائيل البيطريق^(٦) الذى ملكهم وملكهم امرأة بعده^(٧). فبلغ اجتماعهم وما قالوا

(١) بطريقهم : يراد به القائد الأكبر .

(٢) لم يكن اليون من أبناء العرب . والذى تزعمه الروم هو أن نقفور من أبناء العرب .

(٣) نكاية : فتك وكيد .

(٤) وقدة : حدة ، بطش .

(٥) كدحا عليه : سعيًا فى الكيد له .

(٦) مات سنة ٢٠٩ بعد أن حكم تسع سنين .

(٧) الذى ملك بعده ابنه نوفيل، ولما مات فى سنة ٢٢٧ ملكت الروم زوجته وابنها ميخائيل .

اليون . فوجه في يوم سبتٍ إلى ميخائيل فأحضره ثم دعا بتليس^(١) من شعر بطول ميخائيل فأدخل رجلاه في قرارة التليس ، ثم أمر بالتليس فرفع وأقيم ميخائيل فبلغ رأس التليس إلى رأسه . ثم أمر أن يُحشى رَملاً حُشِي ، فبلغ الرملُ فَمَّ التليس . ثم أمرَ نَحِيْطُ بِشَعْرِ جَمَّةٍ^(٢) ميخائيل ، ودعا الطباخين فأمرهم أن يُعدوا له طعاماً كثيراً مثل ما يُعدُّ في الأعياد ، ثم قال للبطارقة ، وميخائيلُ بين يديه على تلك الحال : إذانحن تقربنا^(٣) في غدٍ أَلَقَيْتُ ميخائيلَ في البحر . ثم تغدينا وجعلناه يومَ سرور . قال بطرسُ : فاجتمع البطارقةُ بعد أنصرفهم من عنده ، وقالوا : هذا العربيُّ قد امتدت يده إلى ميخائيل ، ونحاف أن يجترئ على كافتنا . فأجمعوا على الأشتمال على سيوفهم ، والدخول إليه وقتله . ففعلوا ذلك . ثم جلسوا للشاورة فيمن يُنصبُ بمكانه ، واستشرف كلُّ واحدٍ منهم إلى أن يكون ملكاً . فقال أحدهم لسائر الجماعة : الصوابُ أن تملكوا ميخائيل ، فإنه يرى أنكم أنعمتم عليه بالحياة . فاستشرفوا إلى ذلك ، وراوا موضعَ السداد منه ، فأخرجوه من التليس وغسلوه ،

(١) تليس : كيس .

(٢) جمَّة : مجتمع شعر الرأس .

(٣) تقربنا : قدّمنا القرابين .

وأحضروا البَطْرِيقَ ^(١) وثيابَ المَلِكِ فألبسوه إياها ، وأعلموه أن اليونَ قد قُتِلَ ومَلَكوه عليهم .

ثم صاروا إلى مجلسِ الملكة والموائدُ منصوبةٌ ، فقالوا له : تَعَدَّ أيها الملكُ بالطعام الذي دبرَ اليونُ أن يأكله بعد قَتَلِك ! فقال ميخائيلُ : عارُ بالملكِ أن يَطْعَمَ طعاماً ، وفي عنقه يدٌ لإنسان من أوليائه ورعيته ، قبل أن يكافئته عنها ، وقد أحييتموني بعد موتي ، ولستُ أظعمُ طعاماً حتى يُجِبَّرنِي كلُّ إنسانٍ منكم بجميع حوائجه في مُدَّةِ عُمُرِهِ . فقال كلُّ واحدٍ منهم ما تناهى إليه أمله ممَّا يصل ميخائيلُ الملكُ إليه . فقضى جميعَ حوائجهم . وسألوه الأكلَ ، فقال : قد فرغنا ممَّا يجب لكم ، وبقي [ما] لله وللملكِ اليون ، ولا يَحْسُنُ بي أن آكُلَ حتَّى أفعلَ ما يجب لهما . ثم قال للبَطْرِيقِ ^(٢) : ما جزاءُ من منع ما كُنا عليه من شَمِّ النسيمِ وروحِ الحياة ؟ قال البَطْرِيقُ : يُمنَعُ النسيمُ وروحُ الحياة . فقال لهم : قد حَكَمَ عليكم البَطْرِيقُ بما لا يجوزُ خلافُهُ . وأمر بضرب أعناقهم وابتدأ بطعامه .

*
* *

(١) البَطْرِيقُ : أى البَطْرِيقُ الأكبر .

(٢) للبَطْرِيقِ : لعله يريد كبير البطارقة .

ومما نقله ابن المُقَفَّع عن الفُرس وتعالَمه ^(١) العربُ : أنَّ
ملك الحبشة لما غلب على مملكة سيف بن ذى يزن ^(٢) خرج إلى
كسرى مستصرخاً إليه مستجيراً به عليه . وكان ملك الحبشة يُجْرى
على ترجمان كسرى رزقا مُثيباً على تحريف دعوى المتظلمين منه .
وكان لكسرى يوم في كل شهر يركب فيه ويقرب من عامته ، ومن
لا يصل إليه ممن انتجعه ^(٣) . فتوختى سيف بن ذى يزن ركوبه في ذلك
اليوم ، فلما رآه قال : أسعد الله الملك ، أنا سيف بن ذى يزن ،
أغار على مملك الحبشة بفرط تعديهِ وسوء جواره فأخرجني من مملكة
عمرتها أنا وآبائي مذ أكثر من مائتي سنة ! وأنا أسأل الملك أن يُنجدني
عليه ويردني بطوله ^(٤) إلى مملكتي ومملكة آبائي .

(١) تعالَمه : علمه .

(٢) من ملوك اليمنيين ودهانهم ، ولد ونشأ بصنعاء ، ولما غزا بلاده
ملك الحبشة مسروق بن أبرهة استنجد بقيصر ملك الروم فلم يلتفت إليه ، فقصد
النعمان بن المنذر فأوصله إلى كسرى أنوشروان فساعده ونصره على الحبش ، وأبقى
سيف جماعة منهم لإشفاقا عليهم فأتمروا عليه وقتلوه بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة .

(٣) انتجعه : قصده .

(٤) بطوله : الطول ، الفضل والقدرة والغنى والسعة .

فسأل التَّرجُمانَ عن قوله ؛ فقال يقول : أنا رجل من جِلَّة^(١) العرب
وقد اختلَّت حالي ؛ واضطرب شملي لشدة الفاقة ؛ وقد قصدتُ
الملك مُستتراً به^(٢) ؛ ومُستميراً منه . فأمر له بجائزة ، فرأى سيفُ بن
ذى يزنَ ما لا يُشبهه ما ابتدأه به . وصبر إلى اليوم الذى يسهل فيه كلامه ،
وانتظره فيه . فلما رآه قال : أنا (أيد الله الملك) ذو نعمة وكفاية ،
وإنما وفدت على الملك لأقتبس من عزه ؛ وأنتصر بقوته . فسأل
التَّرجُمانَ عما قال . فقال : يقول أمرت بما يقصر عن حاجتى . فأمر
له بجائزة أخرى . فوقف على تحريف التَّرجُمان لكلامه ؛ فانتظره
فى اليوم الثالث ، فلما رآه قال : أيد الله الملك ! إنَّ الغادر . . . !
فأدى^(٣) إليه هذا الحرف فقال^(٤) الخائن . فرأى فى وجه
الملك الاستفهام . فقال : الكذاب . فأشار إليه الملك بيده : مَنْ
هُوَ ! فأوماً إلى التَّرجُمان . فأحضر الملك تَرْجُماناً آخرَ فقص عليه قصته
فضرب عنق التَّرجُمان وأحسن تلقى سيفِ بنِ ذى يزنَ لما تبين منه

(١) جلة : يقال : جليل من جلة ، ويقال قوم جلة أى عظماء سادة
ذوو أخطار .

(٢) مستترا به : محتما به .

(٣) فأدى : أى الترجمان .

(٤) أى سيف بن ذى يزن .

في التأتى لإفهامه . ثم أحضره مجلسه . فسأل عن مقدار حاجته .
وما الذى يؤثره من أصناف الناس . فقال له : أسألُ الملكَ أن يُطلقَ
لى من محابسه الكهولَ ، فإنهم أصبرُ فى المعارك ، واسمُحُ بالنفوس .
فأطلق له جملةً من [فى] الحبس كهُولاً بأسرهم ، فحملهم فى مراكبَ
وركب معهم حتى وافى مملكته . فلما نزل جميعهم أحرقت المراكب
واعتمد ^(١) ذلك سراً منهم ، فلما نظروا إلى المراكب قد احترقت .
قال للرجال : إنه لا يحسنُ بكم التعذيرُ ^(٢) فى القتالِ فتهلكوا ، ولكنْ
جدُّوا جدًّا من لانبجاة له فى البحر . بفرد الجيش العنائة ، وصدقوا حتى
برزوا ^(٣) على من أقام بمملكته ، واحتازوا له طائفةً كبيرةً من أرض
الخبشة ، وقهر ملكها واتقى جانبه .

*
* *

(١) اعتمد : قصد .

(٢) التعذير : مدَّرت تعذيراً : لم يثبت له عذر ، والمعنى لا يحسن بكم محاولة اعتذار
لا يفيد .

(٣) برزوا عليهم : غلبوهم وفاقوهم ، وفى الأصل : بزوا .

وحدثني هارون بن مئول . قال :

تقلد أبو الوزير خال أبي أيوب^(١) الخراج على حال اضطراب من الأولياء^(٢) ، واستعمل من فرط الاستقصاء على أرباب الخراجات ، وإنحراج البقوط^(٣) عليهم^(٤) ما ثقلت به وطأته على الناس . وكان له كاتب (ذهب عنى اسمه) فى النهاية من الجزالة^(٥) والضبط ، وكان يُعزى إليه أكثر صنيع أبي الوزير . فقال لى هارون : فقصدته جماعة من الأولياء فأحس بالشر فيهم ، فأغلق الباب عنهم ، ثم تأملهم حتى عرفهم فكتب بفحمة " ياسيدى ! قتلنى فلان وفلان " وسمى جماعة رؤسائهم . وكسروا الباب ودخلوا إليه فقتلوه .

(١) هو أحمد بن محمد وآلاه ابن طولون الخراج فى أول عهده بمصر .

(٢) الأولياء : من يتولون أعمال الوالى .

(٣) البقوط : جمع بقط "كسهم" وهو أن تعطى الرجل البستان ليزرعه على أن يكون له الثلث أو الربع من غلته .

(٤) عليهم : أى الباقية عليهم .

(٥) الجزالة : حدة العقل وإصالة الرأى .

وركب أبو الوزير حتى شاهده ثم تأمل حائط مجاسه ، فوجد
الكتاب بالفحمة فقبض عليهم فصدّ قوه ^(١) ، وقتلوا به .

*
* *

وكان لرجلٍ من جِلَّةِ كُتَّابِ الجِيشِ بمصر يُعرَفُ بابن الأبرد
رغبةً في وصفه بالنصح في أعمال السلطان . ولا بسَهُ ^(٢) محمدُ
ابنُ أبا [القائد] ^(٣) فقدم العناية به والتعصب له ، ومكّن له عند نُحمارويه
محلًّا ردّ إليه بعض أعماله من الخراج ؛ وأحتاج فيه إلى كاتبٍ يحملُ
عنه ، فارتاد رجلاً يُعرَفُ بنصر بن القاسم يُخلف [ابن الأبرد] ^(٤) فيما
أُسند إليه . فكان ^(٥) يسعى به إلى كاتب نُحمارويه ، فكتب يوماً

(١) فصدّ قوه : في الأصل فصدقوا عنه .

(٢) لابسه : خالطه ، وعرف باطنه .

(٣) كان محمد بن أبا من كبار قواد ابن طولون ، أرسله مع جماعة من قواده
إلى الاسكندرية لينصح ابنه العباس حينما نخرج عليه ، وكان أحد القواد الذين
وصى ابنه أبا الجيـش بطاعتهم عندما استخلفه على البلد وذهب إلى الشام للقاء
الخليفة المعتمد ، وبقى محمد بن أبا على إخلاصه وولائه لابن طولون إلى أن مات .

(٤) هنا إظهار في مقام الإضمار ، والمأوف أن يقول : يخلفه فيما أسند
إليه .

(٥) فكان : أي نصر بن القاسم .

رُفْعَةً تَشْتَمِلُ عَلَى مَا كَرِهَهُ ابْنُ الْأَبْرَدِ مِنَ التَّغْمِيزِ بِهِ ^(١) وَالِانْتِقَاصِ لَهُ . وَيَشِيرُ فِيهَا بِأَشْيَاءٍ تُفْسِدُ مَحَلَّهُ ! وَبَعَثَ بِهَا إِلَى كَاتِبِ نَحْمَارِيهِ ؛ فَعَرِطَ الْغَلَامُ وَجَاءَ بِهَا إِلَى ابْنِ الْأَبْرَدِ ، فَاسْتَعْرَضَ فِيهَا أَشْيَاءَ قَبِيحَةً وَفَارَقَ الْكَاتِبَ .

وَرَأَى ^(٢) الْكَاتِبُ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ بِمَا أَتَاهُ مِنَ السَّعَايَةِ مَكَانَةً عِنْدَ كَاتِبِ نَحْمَارِيهِ . وَقُتِلَ نَحْمَارِيهِ وَثَبَّتَ يَدُ كَاتِبَةِ عَلَى الْأَمْرِ ؛ فَرَامَ نَصْرُ بْنُ الْقَاسِمِ أَنْ يَدْخُلَ فِي جَمَلَتِهِ ؛ فَامْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : مَنْ سَعَى إِلَيْنَا سَعَى بِنَا . فَمَاتَ نَصْرُ بْنُ الْقَاسِمِ كَمَا .

*
* *

وَسَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ ^(٣) يَقُولُ : وَجِدْتُ فِي أَخْبَارِ مِصْرَ الْمُسْنَدَةَ ؛ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ^(٤) عِنْدَ تَغْلِيهِ عَلَى

(١) التغميز به : غمز (بالتخفيف) بالرجل سعى به شرا .

(٢) ورأى الكاتب : وظن الكاتب .

(٣) في الأصل : سعيد بن عبد الله بن الحكم .

(٤) عمرو بن العاص : هو أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم ، وكان له شأن عظيم في الخلاف بين علي ومعاوية ، توفي بالقاهرة سنة ٤٣ هـ (الأعلام جزء ٢)

مصر، كان يتنكر ويخرج وحده متشبهًا بالرجل من عامته ليرى ما عليه القبط من النية للسلمين . فتمادى به السيرُ راجلاً حتى لحق بطرفٍ من الفسطاط فرأى جماعةً قد التأمّت على سوءٍ فيه^(١) . فقال لها : اعملوا بي كلّ ما تُؤثرون من سوء ولا تردوني إلى يد الأمير ! فإني هربت منه . فقال بعضهم ردّوه إلى يد الأمير فإنه يقتله ويكون لكم بذلك عارفةً عند الأمير . فساقوه إلى دار الإمارة فأخذ يتصوّر^(٢) ويتأبى في سياقته حتى قُرب من الدار ، فقام إليه الشرط^(٣) فقال : لا يفوتكم منهم أحدٌ ! فجمعوا له فأتى على آخرهم ولم يعاود التنكر .

* * *

وكنّت أعرف شيخاً في أيام نُمارويه ، حلّو النادرة ، ملبح الألفاظ ، يعرف بالدفاني . وكان معاشه من التوصل بكتب الولاية إلى معاملهم^(٤) . فحدثني أنه نرج بكتب إلى الشرقية ، فالتقى مع رجلٍ في زى بعض المانية^(٥) من الأطباء ، وهو على حمارٍ

(١) فرأى جماعة الخ : أى فرأى جماعة التفت حوله لإيقاع الشربه .

(٢) يتصور : يتلوى ويضطرب .

(٣) الشرط : هم أعوان الوالى وحفظة الأمن الواحد شرطى .

(٤) معاملهم : من يعملون تحت إمرتهم .

(٥) المانية : هم أتباع مانى بن فاتك ويقال لهم الماتوبة أيضا .

بُخْرَجِينَ ، وكنْتُ عَلَى حِمَارٍ ، فَاسْتَخْبَرْنِي عَنْ صِنَاعَتِي ، فَتَحَسَّنْتُ
عِنْدَهُ ^(١) بِأَنْ قُلْتُ : أَنَا تَابِعٌ فِي الْغَلَاتِ . فَطَمَعَ فِيَّ ، وَكَانَ مُبَنَّجًا . فَقَالَ
لِي : هَذَا مَوْضِعٌ طَيِّبٌ ، فَلَوْ أَكَلْنَا فِيهِ ! فَقُلْتُ . ذَاكَ إِلَيْكَ .
فَأَخْرَجَ مِنْ أَحَدِ نُحْرَجِيهِ رَغِيفِينَ مَشْطُورِينَ ^(٢) ، فَوَضَعَ أَحَدَهُمَا بَيْنَ
يَدَيَّ وَالْآخَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ . ثُمَّ أَخَذَ كَوْزًا مَعَهُ وَمَضَى يَسْعَى بِهِ . فَشَرِهَتْ
نَفْسِي إِلَى الرَّغِيفِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَبْدَلْتُهُ حَتَّى صَارَ بَيْنَ يَدَيَّ ،
وَصَارَ رَغِيفِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَاءَ بِالْمَاءِ ، وَابْتَدَأَ بِالْأَكْلِ فَمَا ابْتَلَعَ لُقْمَةً
حَتَّى شَخَّصَ بَصْرَهُ وَتَمَدَّدَ . وَاجْتَازَ بِنَا جَمَاعَةٌ فَقَالُوا : مَالِصَاحِبِكَ
قُلْتُ : لَا أَدْرِي وَاللَّهِ ! فَقَالُوا لِي : أَنْتَ مُبَنَّجٌ ^{وَرَوَى} بَنَجَتْ هَذَا الْمَسْكِينُ !
وَسَاقُونِي .

فَكَانَ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ أَنَّ خَلِيفَةَ لِمُوسَى بْنِ طُونِيقَ ^(٣) كَانَ بِلَدِهِمْ
وَيُجَاوِرُنِي ^(٤) يَتَقَلَّدُ الْمَعُونَةَ ، فَسَاقَنِي الْقَوْمَ إِلَيْهِ ، وَالرَّجُلُ مَحْمُولٌ مَعْنًا ،

(١) فتحسنت عنده : أظهرت حسن حالتي .

(٢) مشطورين : المشطور والشطير الخبز عليه الكاخ .

(٣) في النجوم الزاهرة ابن طرنيق بالراء . وموسى هذا كان على شرطة مصر آخر
عهد الدولة الطولونية وقد قبض عليه حين زال ملكهم مع من قبض عليهم من
بني طولون وأتباعهم وسبق في الحديد إلى حلب .

(٤) يجاورني : يعطف عليّ ويواسيني .

وهم يقودون الحمارين ، وقالوا له : هذا مَبْنِجٌ وجدناه! فلما رأني ضحك إلى وقال : متى تعلمت التبنيج ؟ قلت : اليوم ، وقصصت عليه خبري ، وأخرجت كتاب موسى بن طونيق في برِّي ، ففتش نرجه فوجد فيه شطائر تبنيج وشطائر خالية ، ووجد معها أوتاراً للحنق وأجاراً للشدخ ، فشدخ رأسه بها ، وخنقه بتلك الأوتار حتى فاظ^(١) .

وإذ وقينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقيح ما رجونا أن يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب العارفة في الحسن . وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سورة الانتقام^(٢) في القبيح . وقد قالوا : الخير بالخير والبادئ أخير ، والشر بالشر والبادئ أظلم ؛ رأيت أن أصل ذلك (حفظك الله) بطرف^(٣) من أخبار من ابتلي فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبى ، لأن النفس إذا لم تعن عند الشدائد بما يجدد قواها تولى

(١) فاظ : مات .

(٢) سورة الانتقام : حدته وشدته .

(٣) بطرف : جمع طرفة ويصح أن تقرأ بطرف (بالتحريك) أى بجزء .

عليها اليأس فأهلكها . وقد علم الإنسان أن سُفُورَ الحَالَةِ عن ضِدِّهَا
حَتْمٌ لَا بَدَّ عَنْهُ . كما علم أن أنجلاء الليل يُسْفِرُ عن النهار . ولكن
خَوَرَ الطَّبِيعَةَ أَشَدُّ مَا يَلْزِمُ النَّفْسَ عِنْدَ نَزُولِ الكَوَارِثِ ، فَإِذَا لَمْ
تُعَالَجْ بِالدَّوَاءِ اشْتَدَّتِ العِلَّةُ ، وازدادتِ المِحْنَةُ . والتفكُّرُ في أخبار
هذا الباب ممَّا يُشجِّعُ النَّفْسَ وَيُبَعِّثُهَا عَلَى مُلَازِمَةِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ
الأدبِ معِ الرَّبِّ (عَزَّ وَجَلَّ) بِحُسْنِ الظَّنِّ فِي مَوَاتَاةِ الإِحْسَانِ
عِنْدَ نِهَآيَةِ الامْتِحَانِ .

والله وليُّ التوفيقِ .

حُسنُ العُقبي

[ومما سمعته أن ابني عمّ الأخباري لما مات أبوهما، وكان من رجال دولة المتوكل، همّ المتوكل بمصادرة أمواله . فعزّما أن يجعلها وديعةً عند شيخ كانا يريان فيه الصلاح وحسن المذهب، فكانا يبعثان إليه^(١) بالشئ بعد الشئ مما تخلف عن تلك الوديعة . وبجوز^٢ تختلف^(٢) بذلك، لها ولد يتشطر^(٣) ويلعب بالحمام . فوردت عليهما بكرة^(٤) دراهم، وقد انتهى بهما السعي في الإيداع^(٥) . فقالا للعجوز: صيرى بها إلى ابنك مع هذا الغلام حتى تُودعها لنا عنده، فمضت بها، والغلام معها .

(١) أضفنا العبارة التي بين قوسين ليتسق نظام الحكاية، وقد كان في موضعها بياض بالأصل .

(٢) تختلف : تردد .

(٣) يتشطر : يعمل عمل الشطار، وهم اللصوص .

(٤) بكرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم .

(٥) انتهى بهما السعي في الإيداع : كان هذا آخر ما يريدان إيداعه .

[قالاً^(١)] فحدثنا الغلام قال : صرنا إليه ، وقد فتح باب البرج وأخرج فراخاً زغباً ، وهو ينظر إليها ، فأدبنا الرسالة إليه . فقال : ليس لي خزانة ولا صندوق ، ولكن أجعلها في هذه المحضنة^(٢) الخالية من البرج . قال : ففعلت وانصرفت . فأجمعنا^(٣) على أنه يُمزقها مع الغلمان وسباق الحمام .

ثم صلح ما كان التآ^(٤) من أمرنا ، واطمأنت نفوسنا مما كان أخافنا ، فبعثنا فيما كنا أودعناه الشيخ ، فقال للغلام : غلظت بي ، وليست الرسالة إلى . فلما رجع بالجواب إلينا تحيرنا وركبنا إليه ، فاستمر في الجحود وتضاحك مما لقيناه به ، ورجعنا وقد لحقنا من فقد الودعة أكثر مما كنا نخافه من النكبة^(٥) . وميلنا^(٦)

(١) زدنا ما بين القوسين ليتسق الكلام .

(٢) المحضنة : المكان الذي يحضن فيه الطائر البيض .

(٣) فأجمعنا : في الأصل جمعنا .

(٤) التآ : اختلط واضطرب .

(٥) النكبة : أى في أموالنا بمصادرتها .

(٦) ميلنا : ميل بين الشئيين ومايل : وازن .

بين مُطالبته بما نُذبهُ به ^(١) على مقدار ما أودعناه ، ونُطمعُ من خِفناه ،
وبين الإمساك عنه ، وتربّص ^(٢) الأيام به ، فمالت نفوسنا إلى الإمساك
لما اجتمعت لنا الضمائرُ المغادرة للعدل ^(٣) . واجتازت بنا العجوزُ
فقلت : قد ردّدنا ما أودعناه ^(٤) وبقى أبني . واقتضتْنا ^(٥) الغلامُ
يحملُ البدرَةَ ، فبعثنا به معها .

فحدّثنا الغلامُ قال : وافيناه بين يديّ البرج فأدّت العجوزُ إليه
الرسالة . فقال للغلام : ادخلُ نُخذها من المحضنة التي خلفتها فيها .
فصار بها إلينا الغلامُ ، وعليها ذرَقُ ^(٦) الحمام ، فوزناها فوجدناها

(١) بما نذبه به : الباء للتصوير أى بين مطالبته المصوّرة بأنها تؤدي الى تنبيه
الخليفة الى ما أودعناه خفية .

(٢) تربص : انتظار .

(٣) لما اجتمعت لنا الضمائر الخ : يقول آثرنا الإمساك عن الشكوى حينما
اجتمعت لنا وأتانا النفوس التي نبذت العدل والإنصاف . وفي الأصل : الصغائر
وقدر بجمنا أن تكون الضمائر .

(٤) قد ردّدنا ما أودعناه : اعتقدت العجوز أنهما استردا وديعتهما التي كانت
عند الشيخ لأنهما لم يخبراها بخبره .

(٥) واقتضتْنا الغلام الخ : أى وطلبت منا أن تذهب مع الغلام ليحمل البدرَةَ .

(٦) ذرَق الحمام : نجوه ، وفعله من بابي نصر وضرب .

على ما كانت عليه ، فكثُر تعجُّبنا من أمانته وأخرجنا من البَدْرَةِ
ألفِ ذرهم وتقدَّمنا إلى الغلام بالمصير بها إليه ، فرجع الغلام إلينا
فقال : رمى بها إلىّ وشبَّني . فأثرنا ارتباطه ^(١) وقلنا للعجوزِ صيرى به
إلينا الساعةَ . فوافانا ، فقلنا : انبسطنا إليك فانقبضتَ عنّا ! فقال : الخيانةُ
(أعزكم الله) أسهلُّ من أخذِ أجرَةٍ على الأمانة . فقلنا : جزاك الله
خيراً ! فقد وجدنا فيك ما لم نَجِدْه في غيرك . فقال : وتخلَّفَ عنكم
شيءٌ ممّا أودعتموه ؟ فقلنا : نعم ، فقال : عرفوني فإنّي أرجو أن
أخذه لكم بالطَّفِ حيلةٍ . فرأيناه لما فيه من فضل النفس ، وكرم
السجِّيَةِ أهلاً لأن نبَّهَ وجدنا ، فأخبرناه . فقال : ينبغي أن تتقدَّما
إلى بعضٍ من تنقمان به من غلمانكما أن يتيقَّظ ، فلعلّ أن أناديه
الليلةَ . فقلنا : وما تريد بذلك ؟ فقال : ما لا يجوز أن أبديه ، وأرجو
عَوْنَ الله عليه ، والتفريجَ عنكما به ، ففعلنا ذلك ، وما يتناول سُؤْلنا
إلى ما أتاه ^(٢)

(١) ارتباطه : عقد الصلّة بيننا وبينه واستخدامه فيما يجتد من شئوننا .

(٢) وما يتناول سُؤْلنا الخ : وما كان يمتد أملنا إلى ما أتاه من الحصول
على الوديعة .

بجمع إخواناً له في عدّة كثيرة من الشُّطَار، واقتمح على المُستودِع
وقال له : ما جئنا لنهبك ، ولا نتعرّض لشيء من مالك ، وما جئنا
إِلَّا لودِيعَة ابْنِ عُمَرَ الأَخْبَارِيّ ، فَإِنْ أَدَيْتَهَا نَحْرَجْنَا وَكَأَنَّا مَا دَخَلْنَا ،
وَإِنْ بَحَدَّتْ وَعَتَمَدت بِصِيَاحٍ ، قَتَلْنَاكَ السَّاعَةَ ، وَسَهَّلْ عَلَيْنَا عَقُوبَتُنَا
فِيكَ ، وَقَتَلْنَا بِكَ ، لِأَنَّا نُرْزَقُ الشَّهَادَةَ فِي الْقَتْلِ وَالْمُتُوبَةَ ، إِذْ كُنَّا نُجَاهِدُ
عَمَّا اخْتَرَلْتَهُ ^(١) . وَضَرَبَ إِلَى لِحِيته ^(٢) وَأَعْجَلَهُ . فَقَالَ : هِيَ فِي هَذِهِ
الْحِزَانَةِ ، وَدَعَا بَغْلَامٍ فَقَالَ : أَخْرِجْ جَمِيعَ مَا [أَوَدَعَنَاهُ ابْنًا] عُمَرَ . فَأَخْرَجَ
سَفَطًا كَانَ فِيهِ جَوَاهِرٌ ، وَسَفَطًا فِيهِ أَثْوَابٌ وَشِيٌّ مُذَهَّبَةٌ صِحَاحًا ،
وَبُدُورًا ^(٣) فِيهَا مَالٌ . فَقَالَ : وَاللَّهِ لَئِنْ خَلَقْتَ شَيْئًا لَنُطَلَّنَّ ^(٤) دَمَكَ ،
وَلَئِنْ كُنْتَ أَدَيْتَ الأَمَانَةَ لَنَكُونَنَّ أَوْلِيَاءَكَ ، وَالْمُقِيمِينَ بِأَمْرِكَ .

فَوَاقَى بَابَ مَنَازِلِنَا ، فَصَاحُوا بِالْغَلَامِ ، وَهَمَّ يَحْمِلُونَ الْوَدِيعَةَ ،
فَوَضَعُوهَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَحَدَّثُونَا بِحَدِيثِهِمْ ، وَقَالُوا : اسْتَعْرَضُوا وَدِيعَتَكُمْ

(١) اخترلته : اقتطعته لنفسك .

(٢) وضرب إلى لحيته : أي وضرب ابن العجوز الشيخ موجها الضربة إلى لحيته .

(٣) وبدورا : جمع بدرة .

(٤) لنطلن : لنهدرن دمك .

فنحن في الدهليز حتى تفرغاً وتُخبرانا : هل بقيَ منها شيء أم لا^(١) !
فلما عرضناها على ثبته^(٢) عندنا ، ما^(٣) غادرت شيئاً منه ، وعادت بما
ردّ إلينا نعمتنا ، وانحسمت فاقتنا ، ولم نجد في الجماعة من قبل شيئاً
مما بذلناه ، وانصرفوا .

*
* *

وحدثني أحمد بن أيمن ، قال :

كنتُ أكتبُ في حدائثي للعباس بن خالد البرمكي . وكان طويلَ
اللسان^(٤) ، فخشيتُ الغضب . فإني لجالس بين يديه في داره بمدينة السلام
حتى دخل علينا شابٌ حسنُ الصورة ، رثُ الهيئة ، فأكبَّ عليه^(٥)
فقال : ألسنتَ ابن فلانٍ صديقنا ؟ فقال : نعم يا سيدي ! فقال :
قد كان حسنَ الظاهر ، جميل الهيئة ، فما بلغ بك إلى ما أرى ؟

(١) هل بقي الخ : التعبير السائغ : أبقى منها شيء أم لا ؟

(٢) ثبته : الثبت : الدفتر أو القائمة .

(٣) ما : في الأصل فما .

(٤) طويل اللسان : يقصد المؤلف بطول اللسان ذرابته وقوة حجته

(٥) فأكب عليه : أقبل واتجه .

قال : كان تجملهُ أوفى من عائدته^(١) وتوفى فكنت أتبلغ بما يستعمله
المُوفى على جاهه^(٢) ، إلى أن خان طبعى البارحة ولم أطق ستر ما بي ،
فقصدتك . فدعا بمائة درهم وقال : تمسك^(٣) بهذه إلى أن أنظر
لك فى عائدٍ عليك من الشغل^(٤) .

فلما قام من عنده قال لغلامٍ يثقُ به : قَصَّ أثرَ هذا الفتى ،
فانظر ما يبتاعه بهذه الدراهم ، وأخِصه عليه حتى يدخل منزله ، وأعرف
المنزلَ وصر إلى . فرجع إليه وقال : يا سيدي ! هذا غلامٌ عيَّارٌ^(٥)
ابتاع بنيفٍ وثلاثين درهماً سميداً^(٦) وسكراً وعسلاً ولحماً كثيراً وحوائجَ
الأعراس ، وأخذ طبأخاً من طبأخى الأعراس ، وأحسب أن عنده
دعوةٌ ، وقد عرفتُ منزله ، فقال : دعه .

(١) كان تجمله الخ : كانت مظاهره أعظم من مواردِه .

(٢) أتبلغ بما يستعمله الخ : اكتفى من القوت بما يصل إليه المشرف على نهاية جاهه .

(٣) تمسك بهذه : أمسك بها رمقك .

(٤) فى عائد عليك الخ : أى فيما يعود عليك نفعه من العمل .

(٥) عيَّار : العيَّار فى اللغة الكثير المجيء والذهاب والذكى الكثير التطواف ،
وقد استعملت الكلمة فى النشيط الذكى فى ارتكاب الجرائم المباحة بجرائمه .

(٦) سميداً : السميد . وبالذال : الحواري وهو الدقيق الأبيض من خالص

فلم تَمْضِ إِلَّا أَيَّامَ إِسِيرَةٍ حَتَّى وَافَى النِّتَى ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَاسْتَقْبَلَ
جُلُوسَهُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : يَا عَمِّي وَسَيِّدِي ! لَيْسَ يُشْبِهُ هَذَا اللَّقَاءُ
مَا لَقَيْتَنِي بِهِ فِي الْأَوَّلَى ! قَالَ : كُنْتَ فِي الْأَوَّلَى رَاجِعًا لِصِلَاحِكَ ،
وَأَنَا الْيَوْمَ آئِسٌ مِنْهُ . فَقَالَ : وَكَيْفَ ظَنَنْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَخْبَرَنِي
غَلَامِي أَنَّكَ أَنْفَقْتَ إِلَى أَنْ بَلَغْتَ مَنْزَلَكَ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ دِرْهَمًا . وَكَانَ
حَقُّكَ أَلَّا تَزِيدَ عَلَى ثَلَاثَةِ دِرَاهِمٍ . فَقَالَ : لَوْ عَرَفْتَ خَبْرِي لَقَدَّمْتَ
عُذْرِي . قَالَ : مَا خَبْرُكَ ؟ قَالَ : كُنْتُ مَعَ تَضَائِقٍ حَالِي أُمِسِكَ نَفْسِي
عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، وَأَقْتَصِرُ وَأَهْلِي عَلَى الْبُلْغَةِ ، وَأَنَا سَاكِنٌ وَأَهْلِي فِي ظَهْرِ
دَارِ فِلَانٍ (وَوَصَفَ رَجُلًا ظَاهِرَ الْيَسَارِ مِنَ التُّجَّارِ) وَكَانَ لَهُ طَاقَاتٌ
فِي مَطْبَخِهِ تُفْضِي إِلَى مَنْزِلِي ، فَأَوْلَمَ وَلِيمَةً لَا أَشُكُّ فِي حَضُورِكَ إِيَّاهَا ،
فَشَرِقَ مَنْزِلِي بِرَوَائِحِ الْأَطْعَمَةِ ، وَكَانَتِ الصَّبِيَّةُ مِنْ صَبِيَّاتِي تَخْرُجُ فَتَقُولُ :
رَائِحَةُ جَدِّي يُشْوِي ! وَأُخْرَى تَقُولُ : رَائِحَةُ نُقَاتِقٍ ^(١) تُثْقَلِي ! وَهَذِهِ تَقُولُ :
” يَا أَبَاهُ أَشْتَهِي مِنْ هَذَا الْفَالِوَدَجِ الَّذِي قَدِ شَاعَتْ رَائِحَتُهُ لُقْمَةً ! وَقَوْلُهُمْ ^(٢)

(١) نُقَاتِقُ : وَهِيَ اللَّقَاتِقُ بِاللَّامِ أَيْضًا ، وَهِيَ الْأَمْعَاءُ الْمَحْشُوءَةُ ، يَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ
الْكَلِمَةَ لَاتِينِيَّةُ الْأَصْلِ .

(٢) وَقَوْلُهُمْ : الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى أَوْلَادِهِ مِنْ بَنَاتٍ وَبَنِينَ .

يُفْرِحُ قَلْبِي ، وَأَمَلْتُ أَنْ يَدْعُونِي فَأَتَحَمَّلُ التَّزْلِيلَ^(١) لِهَمْ ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ
أَهْلًا لِدَلِّكَ ! فَقُلْتُ : وَلَعَلَّهُ إِذْ تَقَصَّصْتُ عِنْدَهُ مِنْ مَنْزِلَةٍ مَنْ يَدْعُونَ^(٢)
أَنْ يَبْعَثَ إِلَيَّ ؟ فَوَاللَّهِ مَا فَعَلَ ! فَبِتَّ بَلِيلَةً لَا يَبِيتُ بِهَا الْمَلْدُوعُ ،
فَأَصْبَحْتُ فِي الْغَدَاةِ ، فَكُنْتُ أَوْثَقَ^(٣) فِي نَفْسِي مِنْ سَائِرِ مَنْ بِمَدِينَةِ
السَّلَامِ . فَلَمَّا أُعْطِيتُنِي تِلْكَ الدَّرَاهِمَ اشْتَرَيْتُ بِهَا حَوَاجِجَ أَصْلَحَ مِنْهَا
مَا اشْتَهَوْتُهُ ، فَأَكَلُوا أَيَّامًا مِنْهُ ، وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْكَ^(٤) ،
وَالْحُلْفِ عَلَيْكَ .

فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ : أَحْسَنْتَ بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ ! ثُمَّ صَاحَ يَا غُلْمَانُ :
أَمْرٍ جَوَالِي ، وَلِبْسٍ ثِيَابَهُ وَرَكِبَ وَرَكِبْتُ مَعَهُ ، وَدَخَلَ إِلَى

(١) التزليل : الزلة (بالفتح) اسم لما تحمل من مائة صديقك أو قريبك ، عراقية
أو عامية . وقد صاغ المصدر هنا من زلل ، وقد كان يستعمل هذا الفعل في هذا
العصر بصيغة المجرّد . جاء في السيرة للبلوي في وصف أطعمة ابن طولون للفقراء
والمستورين في كل جمعة : أنه كان يشرف على ذلك بنفسه حتى يأكلوا ، ويؤمرون
ألا يخرج أحد أو يزلّ معه ما يقدر على حمله .

(٢) من يدعون : في الأصل : من يدعوني .

(٣) فكنت أوثق : أي كنت أقوى في نفسي من حيث التأميل فيك من سائر
من ببغداد .

(٤) في الأصل : في الإحسان إليك .

صاحب الصنيع^(١) فقال : دعوتى وجماعة وجوه بغداد إلى طعام
مقنتنا الله عليه، وعرضت نعمتنا للزوال، وأنفسنا إلى احترام الأعمار^(٢) !
وقص قصة الفتى ، وقال : عزمت على أن أصدق عن كل من حضر
وليمتك^(٣) ، وتكون^(٤) سبباً لتخلف الناس عنك ، والإمساك عن
إجابتك أخرى الليالى^(٥) ، فقال : أنا أفتدى إذاً عنك بما غفلت
عنه بخمسمائة دينار ، قال : أحضرها فأحضرها ، فقال^(٦) : اقبضها
فقبضتها ، ثم ركب إلى جماعة فقال : أعطوني فى معونة رجل من
أبناء النعم اختلت حاله ، فأخذ منهم خمسمائة دينار أخرى ، ورجع إلى

(١) الصنيع : الدعوة .

(٢) احترام الأعمار ، ذهابها : يقال احترام فلان بالبناء للمفعول : مات واحترمه
المنية : أخذته كتحزمته .

(٣) عزمت على الخ : أى عزمت على أن أؤدى صدقه عن كل شخص حضر
وليمتك حتى أدفع عنهم السوء ، لأنهم حضروا طعاما كان فيهم أحق به .

(٤) وتكون سبباً : وتكون أنت بدفعى إلى هذا العمل سبباً لتخلف الناس عنك ،
لأنهم لا يقدمون على طعام رجل يقصر فى دعوة من تجب دعوته .

(٥) أخرى الليالى : يقال لا أفعله أخرى الليالى أو أخرى المنون أى أبدا .

(٦) فقال : أى العباس للفتى .

منزله ، وقد كان أمرَ الفتى ^(١) ألا يبرح منه ، فأدخله إليه ، وقال :
فيم تهش إليه من التجارة ؟ فقال في صناعة الأقماط ^(٢) فإنها صناعةٌ
أسلافنا ، ومن بها يعرفُ حقوقنا ، فدعا برجلٍ منهم حسنِ اليسارِ
فأخرج إليه الألفَ الدينار التي أخذها ، فقال : هذا المالُ لهذا
الفتى فليكن في دكانك ، واشتر له بها ما يصلحُه من المتاع وبصره به .
ثم قال للفتى : احذر أن تُنفقَ إلا من ربح ! فأنصرفَ الفتى وقد رُدَّ
عليه ستره .

خلف لى أحمد بن أئمن : أن بضاعته ثمرت ^(٣) وأرباحه اتصّلت
وعامل السلطان ، ودخل في جملة التجار وجلتهم .

*
* *

(١) وقد كان أمر الخ : حينما ركب في طلب نسيئة الدينار الأخرى .

(٢) الأقماط : جمع نط : ظهارة الفرش وضرب من البسط .

(٣) ثمرت : في الأصل ثمرت ، وهو تحريف .

وحدثني أحمد بن أبي عمران عن مسلم بن أبي عتبة عن
أبيه عتبة، (وكان عتبة هذا مُصادقاً لأبي يوسف القاضي وترباً^(١))
له ، قال :

كان أبو يوسف قد انقطع إلى أنحاء الفقه فأحسن القول
عن أبي حنيفة^(٢) وكانت زيادته في العلم ، بمقدار نقصانه
في الرزق ، وكان كلُّ من يستعرض حاله بالكوفة ، يُشير عليه
[بالنزوع] إلى بغداد ، ويرى أبو يوسف صواب ما يُشار به عليه
فيُقعدُه نقصان حاله عن المركب الفاره^(٣) ، واللُبسة التي تُشبه من
حلّ^(٤) محله من العلم، ونزِع^(٥) إليه من أقصى النواحي .

وكان له غلامٌ كان لأبيه ، حاذقٌ بعمل الجواشن^(٦) والدروع وكثير
مما يُحتاج إليه من آلة الحرب . وكان يأتيه في كلِّ شهر بما يقوته

(١) تر باله : ولد معه ، قاربه في السن .

(٢) هو النعمان بن ثابت التيميّ بالولاء الكوفيّ إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق
أحد الأئمة الأربعة ، توفي ببغداد سنة ١٥٠

(٣) الفاره : المليح الكريم .

(٤) تشبه من حلّ : تليق بمن حلّ الخ .

(٥) ونزع إليه : ومال الناس للأخذ عنه وقصدوه .

(٦) الجواشن : جمع جوشن وهو زرد يلبس على الصدر لوقايته في الحرب .

في حاضرة الكوفة ولا يُعنيه على حَضرة السلطان . فرغب الغلام في عاملٍ ^(١) للمهدى عَلَى الكوفة ^(٢) (قد ذهب على اسمه) . فطلبه من أبي يُوسُف (وهو يومئذ من أصاغر رعاياه) فباعه منه بتسعين ديناراً ، وخرج عند ذلك إلى بَغداد . فارتاد دابةً وثياباً .

وكان لعبد الله بن القاسم الغنويّ أحد أصحاب الأعمش ^(٣) محلٌّ من المهديّ ، ولم يكن في المجالس التي تنعقد ببغداد في الفقه أجلُّ من مجلِّسه . فدخل أبو يُوسُفَ مع كَافة مَنْ دَخَلَ من غير تسليم على عبد الله ، ولا مقدِّمةً لحضور مجلِّسه . وكان أبو يُوسُفَ حَسَنَ الصورة ، جميلَ الإشارة ، لطيفَ التخلُّص والاحتجاج ، فقبِلَه قلبُ عبد الله ، ولم يعرفه .

(١) في عامل : في خدمة عامل .

(٢) الكوفة: كانت مدينة العراق الكبرى وهي قبة الإسلام ودار هجرة المسلمين ، يقال إن أول من مصرها سعد بن أبي وقاص .

(٣) هو أبو محمد سليمان بن مهران الأَسديّ ، تابعي مشهور ، أصله من بلاد الرمي ، وكان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض ، توفي بالكوفة سنة ٢٤٨ هـ .

وجرت مسائل وأجوبة، كان حظ القياس فيها مقصراً، وكان الاحتجاج على ظاهر القول ^(١) . فتكلم أبو يوسف فيها فأحسن الاحتجاج وجود، وأعانه على هذا طول لسانه، وحسن بيانه، ثم سألهم فقصروا عن الجواب، فأبان عدولهم ^(٢) برفق. فلما تقضى المجلس عاتبه عبد الله على تخلفه عنه، أو تعريفه مكانه، وسأله أين نزل، فأخبره. فرغب له عن الموضوع الذي سكته، ودعاه إلى منزل بالقرب منه. وقرّر خبره عند أبي عبيد الله كاتب المهدي، فوصله بالمهدي وأسنى رزقه. ثم قرنه بالهادي فأقام معه مدة أيامه، وبلغ مع الرشيد ما لم يبلغه عالم بعلمه، ولا محبوب بمرتبه.

*
* *

(١) كان حظ القياس الخ: القياس في علم الأصول هو إلحاق شيء بشيء في الحكم لمشابهة بينهما، وكان أصحاب أبي حنيفة أصحاب استنباط وقياس. يقول إن المناقشة كانت تدور حول ظاهر النصوص، وكان حظ القياس والاستنباط ضعيفاً.

(٢) عدولهم: أي عن الصواب.

وحدّثني عليُّ بنُ سَنَدٍ (وكان انقطاعه في أيام الموفق والمعتضد ^(١) إلى أحمد بن محمد بن إسحاق) وكان آل عبيد الله بن وهب يحقدون [عليه] سوائف ^(٢) منكرة . (ولم يكن مع عبيد الله من سوء المباداة ^(٣) ما مع القاسم ابنه ^(٤)) . فلما حبس أحمد بن محمد بن إسحاق قبض علينا معاشر خلفائه في الأعمال ، وأثبتنا في جريدة ^(٥) . وتقدم لإحضارنا إلى داره ، فينسنا من الحياة .

وقال لي عليُّ بن سَنَدٍ : فلم يكن في جماعتنا أضعف حالاً مني ، ولا أقل ناصراً . فرأيت الموت ، وحملنا إليه ، وقد أخضر الجلادين والسياط

(١) المعتضد : هو أبو العباس أحمد بن الموفق بالله أحد الخلفاء العباسيين ، بويع بالخلافة بعد وفاة عمه المعتد سنة ٢٧٩ ، وكان شجاعاً ذا عزم مهيباً . وفي المؤرخين من يقول : قامت الدولة العباسية بأبي العباس وجددت بأبي العباس ، يريدون السفاح والمعتضد . توفي ببغداد سنة ٢٨٩ هـ . (الأعلام جزء ١) .

(٢) سوائف : أموراً حصلت منه .

(٣) سوء المباداة : يقال بادي بالعداوة : جاهر بها .

(٤) هو القاسم بن عبيد الله وزير المكتفي . كان شاعراً وكان قبيل الخبرة بأمور السياسة ، وإنما استوزره المكتفي لأنه أخذ له البيعة وحفظ عليه الأموال . توفي سنة ٢٩١

(٥) جريدة : قائمة تدون بها الأسماء .

والموَكَّلِينَ بالمعابر^(١). قال : فُقِّدِمَ مِنَّا رَجُلٌ مِنْ جَلَّةِ أَصْحَابِ أَحْمَدَ بْنِ
بِسْطَامٍ فُضِرِبَ، وَأُخِذَ خَطُّهُ بِمَا أَدْلَمَ أَنَّهُ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ يَدُهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ
رَجُلٌ، ظَهَرَهُ إِلَيْنَا، لَا نَعْرِفُهُ . فَلَمَّا فَرَّغَ [مِنْ] أَمْرِهِ ، سَمِعْتُ الَّذِي بَيْنَ
يَدَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : هَبْنِي عَارِفَتَكَ^(٢) ، فَقَالَ : ذَرَّهُ حَتَّى يَرَى عِظْمَ
مَا سَلِمَ مِنْهُ بِكَ^(٣) . فَقَالَ : هُوَ يَرَاهُ غَدًا^(٤) . فَقَالَ الْقَاسِمُ : سَلِّمُوا
عَلَى بَنِ سَنَدٍ (لَا رِعَاةَ لِلَّهِ) إِلَى صَاحِبِهِ أَبِي الْجَلِيشِ ثَابِتٍ . فَرَأَيْتُهُ ، وَقَدْ
قَبَّلَ يَدَهُ ، وَرَدَّتْ عَلَى الْحَيَاةِ بِشَفَاعَتِهِ ، وَأُطْلِقَتْ مِنْ غَيْرِ مُصَادَرَةٍ وَلَا عُقُوبَةٍ .
فَلَمَّا رَجَعَ ثَابِتٌ إِلَى مَكَانِهِ ، وَسَارَ بِي رَسُولُ الْقَاسِمِ إِلَيْهِ ، قَالَ لِي : مَرَّ بِي
اسْمُكَ فِي الْجَرِيدَةِ فَاسْتَوْهَبْتُكَ لِأَنَّ أَبَاكَ كَانَ مِنْ إِخْوَانِي بِفِزْيَتِهِ^(٥)
الْخَيْرِ عَلَى رِعَايَتِهِ وَالِدِي فِي .

*
*
*

(١) بالمعابر : جمع معبر كمنبر ، وهو ما عبر به النهر (القارب) ولعلمهم كانوا بعد
تعذيب المحكوم عليهم يقذفونهم في النهر ، ويمجوز أنها محرفه عن المقابر أى لمنهم كانوا
يحضرون أصحاب المقابر لدفن من يموت بالتعذيب .

(٢) هبني عارفتك : أى هبني فضلا ومكرمة منك .

(٣) بك : بسببك :

(٤) غدا : أى حين يسمع بما جرى لأمثاله .

(٥) بفيزيته الخير : دعوت له بأن يجزى خيرا .

وحدثني محمد بن صالح الغوري قال :

كانت لي بضاعة أعودُ بفضلها على شملي^(١) فافتقرتُ في معاملات في الصَّعيد وخرجتُ إلى من عاملته بجمعتها ، وكان مقدارها خمسمائة دينارٍ . وخرجتُ أريد الفسطاط في رُقعة كثيرة الجمع . فلما كان منتصفُ طريقنا وافي جمعٌ من الصعاليك فسلب الناسَ جميعاً ، ودُهشتُ ، فرأيتُ منهم شاباً حسنَ الصورة . فقلت له : والله ما أملك غيرَ هذا الكيسِ فارفعه^(٢) لي عندك فقال : وأين بيتك بالفسطاط ؟ فقلت : في دور عباس ابن وكيد . فقال : ما أسمك ؟ قلت : محمد الغوري . قال : امضِ لشأنك . وجاء منهم من قلع ثيابي وسراويلي ، وانصرفوا عنا ، ولم أزد أن سوَّغتُ واحداً منهم جميعاً إما كان^(٣) معي ، ودخلنا إلى الفسطاط ونحن فقراء . فرجع كلُّ واحد منهم إلى ما تخلف له ، وبقيتُ ، ليس معي درهمٌ أنفقهُ . وإني بلحلسٍ أعلى إدراجة المسجد^(٤) بين المغرب والعشاء الآخرة حتى رأيتُ رجلاً قد وقف بي فقال لي : ها هنا منزلُ محمد الغوري ؟ قلت

(١) شملي : أهلي ومن أعول

(٢) فارفعه لي عندك : قصد بهذا التعبير أن يمتلئ اللص وأن يفهمه أنه يودعه المال لأنه في الحقيقة كان يأكسأ من عودته .

(٣) سوَّغت واحداً منهم الخ . سوَّغته إياه : أعطيته إياه .

(٤) المسجد : مسجد عمرو بن العاص .

أنا هو ، ولا والله ما اهتديتُ إلى الرجل الذي أعطيته المال ! لأنه كان عندي أول مالٍ ذاهب^(١) فقال لي : عنيّتي ! وأخرج الكيس فدفعه إلى فرُدَّتْ عليَّ جدتي ، وتطعمتُ الحياة . وكان بالقرب منا قائدٌ يعرفُ بابنِ قَرا ، كنتُ معاملاً له ، وكان له محلٌّ^(٢) . فسألتُ اللصَّ المبيتَ عندي ففعل . فأصبحتُ وصرتُ إلى ابنِ قَرا وقصصتُ عليه قصةَ الرجل . فقال لي : الطُف^(٣) لي فيه ، فوالله لا نُوهنُ باسمه ، ولا نُكفئنه عنك ! فرجعتُ إليه فاخبرته . فوالله ما ارتاع ، ولا اضطرب ! ومضى معي . فأحسنَ تلقِيه ، وخلعَ عليه ، وصيره سيارَةً^(٤) لعمله وضمَّ ، إليه عدَّةً^(٥) وافرة . ولم يزل في حيزه إلى أن توفِّي

*
* *

(١) لأنه كان عندي الخ : لأنه كان في اعتقادي أسبق مال إلى الضياع ، وذلك لليأس من الحصول عليه

(٢) محل : مكانة عظيمة .

(٣) الطُف لي فيه : قدّمه لي في لطف ورفق .

(٤) سيارة : مصدر سار ، يدل على حرفة ، ويظهر أن المراد به حسن السير بالبلد أو العمل ، وقد كان ذلك عملاً من أعمال الشرطة ، وأطلقه هنا على العامل نفسه .

(٥) عدَّة : تقرأ بضم العين وكسرهما ، ولكل وجه .

حدثني أحمد بن أبي يعقوب عن أبيه عن جدّه واضح .
قال : كانت بين المهديّ وأخيه جعفر بن أبي جعفر^(١) عداوةً
في أيام المنصور . وكان مصقلة بن حبيب ينقل عنه إلى جعفر
ما يكره ، ولا يمكن المهديّ أن يسطو على مصقلة ولا يمسّه بسوء .
فلما تولى الخلافة نذر دمه فاختنى .

فحدثني مصقلة أنه نبأه موضعه الذي كان به فخرج مستتراً يريد
غيره ، فليحه رجل من أعدائه ، وصاح في أصحاب الأرباع^(٢) :
هذا بغية أمير المؤمنين . فتسرّع إلى الشرط ورأيت الموت عياناً .
فبينما أنا في أيديهم اجتاز بي معن بن زائدة^(٣) فصحت به :
ياسيدي ! يا أبا المنذر ! أجرني أبارك الله . فقال للشرط
والرجل المتشبّث بي : خلّوا عنه . فقال الرجل : ما ذا أقول
لأمير المؤمنين ؟ قال : تقول له إنه عندي . ثم أمر بجملتي على جنيبة^(٤)

(١) مات في حياة أبيه المنصور .

(٢) الأرباع : رؤساء الأقسام بالبلد الموكول إليهم حفظ الأمن بها . وهو جمع ربع (بضم فسكون) .

(٣) المعروف في التاريخ أن معن بن زائدة قتله الخوارج بسجستان سنة ١٥١
وأن المهديّ تولى الخلافة سنة ١٥٨

(٤) الجنيبة : الدابة تقاد إلى جنب الراكب .

مَكْتَبَةُ الدُّبُورِ وَرَأْسِ الدُّرَّةِ

من جنائبه، وسار بي إلى منزله، وقدم طعامه فأكلت معه ومع ولده.

فلما فرغنا من الطعام قيل له : وافى رسولُ أمير المؤمنين ، فقال

لولده : اقضوا حتى عليكم بالآلِ تسلموها مضقلةً ، فقد استجار بي .

فخلفوا له على ذلك وركب . فلما رآه المهدي قال : تجيرُ عليَّ

يا معنُ ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ! قال : ونعم أيضا ! قال :

يا أمير المؤمنين ! قتلتُ في دولتك زهاءَ ثلاثين ألفِ عدوِّ ، ولا

أستحقُّ أن أُجبرَ فيها عدوًّا واحدًا ! قال : نعم تستحقُّ ذلك ، قد

وهبتك دمه . فقال : يا أمير المؤمنين ! ليس هكذا ينعمُ مثلك

بالحياة ، إذا تصدقتَ على أحدٍ بحياته فاجعلها في خفصِ عيشٍ من

نعمتك . قال : يُعطى ألفَ دينار، قال : يا أمير المؤمنين لا تستوى

جائزتك وجائزةَ عبدك معنٍ . هذا ما سمحتُ له به . فقال : ادفعوا

إلى جار معن ألفَ دينارٍ .

فحملتُ معي إلى منزلي ثلاثة آلاف دينارٍ وأمنتُ على نفسي .

وحدّثني ربيعةُ بنُ أحمدَ بنِ طولون^(١) . قال : لما توفّي
نُحارويه قبضَ عليّ وعلى مُضَرَ وشيبانَ^(٢) ابني أحمدَ بنِ طولون ،
جيشُ^(٣) بنِ نُحارويه ، وحَبَسْنَا بِدِمَشْقَ . فلَمَّا قَفَلْنا إلى مِصرَ حَبَسْنَا
في جُجْرَة من المِيدان معه ، وكانت لنا في كل يوم مائدةٌ نَجْتَمِعُ عليها .
وكان في الجُجْرَة رِواقٌ وبيتان ، وجلوسُنَا في الرواق ، فوافي خَدَمٌ له فأدخلوا
أخانا مُضَرَ في البيت ، وأغلقوا عليه البابَ . فانفصل عَنَّا ، وكانت المائدةُ
تُقَدَّمُ إلينا ونُمنَعُ أن نُلْتَقِيَ إليه منها شيئًا . فأقام خمسةَ أيام لا يَطْعَمُ ولا
يَسْتغِيثُ . ثم وافانا ثلاثةٌ من أصحابِ جَيْشِ . فقالوا : مامات أخوكم بعدُ ؟
فقلنا : ما نَسْمَعُ له حِسًّا ، ففتحوا البابَ فوجدوه حيًّا ، ورام القيام

(١) نفى إلى الاسكندرية حينما ولي هارون بن نحارويه ، ثم كاتبه أهل مصر
يطلبون إليه الحضور ليتولّى عرش مصر ، فسبق جيشه ، فما يشعر الناس إلا
وهو بالجبل المقطم ، وكان يطمع في أن ينضم إليه الناس فلم يفعلوا ، فأخذ يقاتل
وحده حتى كلّ وتكاثر عليه الجنود فاعتقل ، وضرب بالسياط حتى مات سنة ٢٨٤

(٢) ولي أمر مصر بعد قتل هارون بن نحارويه سنة ٢٩٢ ولم يستقم له الأمر
فبعث إليه محمد بن سليمان يؤتمنه على نفسه وأهله ، فذهب إليه ثم فتر تحت ستار
الليل ، وبه انتهت الدرلة الطولونية .

(٣) ولي مصر بعد قتل نحارويه سنة ٢٨٢ وكان سيئ السيرة ضعيف السياسة
ح عليه كبار قواد دولته ، وقتل سنة ٢٨٣

فلم يصل إليه . ورماه الثلاثة بثلاثة أسهم في مقاتله فظفا^(١) . وكانت الليلة التي دخلوا فيها ليلة جمعة ، وأخرجوه وأغلقوا الباب علينا . وأقمنا يوم الجمعة والسبت فلم يُقدّم إلينا طعامٌ . فظننا أنهم يسلكون بنا طريقه . فلما كان يوم الأحد سمعنا رجّةً في الدار ، وفُتح بابُ الحجرة ، وأُدخل إلينا جيشُ بنِ نُمَارويه ! فقلنا : ما خبرك ؟ فقال غلبٌ أحى على أمرى ، وتولّى إمارة البلد هارونُ بنُ نُمَارويه^(٢) . فقلنا : الحمد لله الذي قبضَ يدك ، وأضرع^(٣) خدك ! فقال : ما كان عزمي إلا أن ألحقكما بأخيكما .

وأنفذ [هارون] ^(٤) إلى جماعتنا مائدةً ، فلما طعمنا بعث إلينا خادما : أن جيشاً كان قد عزم على قتلكما كما قتل أخاكما فاقتلاه وخذا بثأركما منه وانصرفا على أمان . وبعث إلينا خدماً فتسرّعوا إليه فقتل . وانصرفنا إلى منازلنا وقد كُفينا عدونا .

*
* *

(١) ظفا : مات .

(٢) ولي مصر سنة ٢٨٣ وهو صبي ، والأمر كله مردود إلى ابن أباي ، ثم خرج لقتال محمد بن سليمان فانهزم بتنيس وتفرق عنه جنده ، فدخل خيمته عليه عماء شيبان وعدى وقتلاه سنة ٢٩٢

(٣) أضرع : أذل .

(٤) زيد ما بين القوسين ليتسق نظام الكلام .

وحدثني منصور بن إسماعيل^(١) الفقيه . قال :

نَحَرَ رجل نَعْرَفَه بِتِجَارَةِ ، قَصَدَهُ إِلَى الهند . فَرَجَعَ إلَيْنَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الطِّيبِ كَثِيرَةٍ لَهَا قِيَمَةٌ خَطِيرَةٌ ، وَهُوَ فِي نَهَايَةِ السَّرُورِ . فَقُلْنَا لَهُ : كَمْ رَجَحَتِ التِّجَارَةُ الَّتِي نَحَرْتَ بِهَا مِنْ عِنْدِنَا ! فَقَالَ :

غَرِقْتُ وَسَاءَتْ مَنْ كَانَ مَعِيَ ، فَسَلِمْتُ بِحُشَاشَةٍ^(٢) نَفْسِي فِي بَحْرِ جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الهند . فَتَلَقَانِي قَوْمٌ فِيهَا وَجَاءُوا بِي إِلَى مَلِكِهِمْ . فَقَالَ لِي : قَدْ نَقِدْتَ المَوْهَبَةَ^(٣) الخَارِجَةَ عَنْكَ فَمَا مَعَكَ مِنَ المَوْهَبَةِ الثَّابِتَةِ عَلَيْكَ ؟ قُلْتُ : مَعِيَ الكِتَابُ^(٤) والحِسَابُ . فَقَالَ المَلِكُ : مَا بَقِيَ لَكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي ذَهَبَ مِنْكَ ! وَالصَّوَابُ أَنْ تُعَلِّمَ ابْنَ الكِتَابِ بالعَرَبِيَّةِ والحِسَابَ ، فَأَرْجُو أَنْ نَعُوْضَكَ أَكْثَرَ مِمَّا [فَقَدْتَهُ] . وَسَلِّمْ إِلَى مَنْ ابْنَهُ أَذْكَى صَبِيٍّ وَالطَّفَهَ . فَتَعَلِّمْ فِي مَدَّةٍ يَسِيرَةٍ مَا يَتَعَلَّمُهُ غَيْرُهُ فِي مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ .

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عمر التيمي ، فقيه شافعي أصله من رأس عين الجزيرة وقد رحل إلى مصر وسكنها إلى أن توفي سنة ٣٠٦ هـ . (الأعلام ج ٣)

(٢) حشاشة : الحشاشة بقية الروح في المريض والجريح ونحوهما .

(٣) الموهبة الخارجة عنك : يريد الموهبة الزائلة وهي المال .

الكِتَابُ : الكِتَابَةُ .

فلما رأى أَنَّهُ قد توجَّه ^(١) واستحققت منه الإحسان ، صار إلى صاحبِ المَلِكِ . فقال : معي هَدِيَّةٌ من المَلِكِ إليك . وأدخل إلى بقرة فَتِيَّةً . ثم قال : أدفعها لك إلى الراعى ؟ فقلت : افعل . وصغر في عيني أمرُ المَلِكِ على عِظَمِ شأنه . فما مضى زمنٌ قصير حتى جاء الراعى فقال : ماتت البقرة . واستقبلني كلُّ خاصَّةِ المَلِكِ بالتَّغْمِغُمِ ^(٢) . ثم ظهر في ابنه تَزِيدٌ ^(٣) ، فبعث إلى ببقرة فتية أخرى فرددتها إلى الراعى . فما مضت مدَّة يسيرة حتى وافى يبشُّرني ، فقال : قد حملت البقرة . فلما انتهى حملها وضعت ، فهنأني حاشية المالك بأسرهم . ثم جلس المَلِكُ مجلساً عاماً ، وأحضر التجارة التي رأيتها معي . ثم قال :

” لم يذهب على ما يجب لك في تعليم ابني ، ولم أبعث بالبقرة الأولى لفضلِ البقرة عندي ، ولكن نزلت بك مِحْنَةً في البحر أتت على مالك

(١) توجه : أى توجه إلى ما وجهته إليه من صنوف العلم .

(٢) التغمم : الهمس والكلام الذى لا يبين الدال على السخط والتذمر .

وفى الأصل : التغمم ، وهو تحريف .

(٣) تزيد : تقدم فى العلم .

فامتحنْتُ بالبقرة ما أنت عليه منها ^(١) . وعلِمْتُ أني لو أعطيتك جميع ما ملكت يدي ، وقد بقيَ منها ^(٢) شيءٌ لضاع منك ، وهلكَ لديك . فلما أُخبرتُ أنها ماتت علِمْتُ أنك فيها ^(٣) . ثم امتحنْتُ أمرك بالبقرة الثانية فلما أُخبرتُ أنها قد حملت علِمْتُ أنها قد انحسرت عنك . فسُررتُ لك بذلك . واستظهرتُ ^(٤) بانتظار الولادة . فلها ولدت شخصاً كاملاً صحيح الأعضاء علِمْتُ أنك قد فارقت محنتك . وهذا ما أعددتُه لك . ثم وصلني بطيب قومته بعشرين ^(٥) ألف دينار . وحملني في البحر فسلمتُ ، وزاد بأرض العرب ثمنه على ما قومته .

قال منصور: فرأيتُه قد أيسر بعد الخلة ^(٦) والتلفيق ^(٧) في المعاش .

*
* *

(١) ما أنت عليه منها : حالك من حيث اتصافك بالحنة ألا تزال عالقة بك أم فارقتك ؟

(٢) وقد بقي منها : من الحنة .

(٣) فيها . في الحنة ، لم تتخلص منها .

(٤) استظهرت : استوثقت

(٥) في الأصل : قومته عشرين .

(٦) الخلة : الحاجة .

(٧) التلفيق في المعاش : جمع الرزق من طرق متعددة ، لأن طريقة واحدة

لا تقوم بصاحبها .

وحدثني أبو محمد يحيى بن الفضل . قال : اختفى عند والدي كاتبٌ للفضل بن ^(١) يحيى بن برمكٍ عند إيقاع الرشيد بهم . وكان يواصل البكاء عليهم ، ولا يسمع الوعظَ فيهم . فقال له أبي : أنا أرجو أن يخلف الله عليك ولا يضيعك ! فقال : والله ما بكأني لما فاتني منهم ، وإنما بكأني لجلالة أخطارهم ، ونفاسة أقدارهم ، ولقد كان لصاحبي ^(٢) في الجمعة السالفة ما لم أسمع بمثله لقديم ولا حديث : قال لي : قد كثُر الزوّار ^(٣) علينا فانظر مقدار ما انصرف وارفع إلى عدّة من بقي من الزوّار لأتقدّم في برّهم ، واحذر أن ترفع إلي رجلاً من أهل الشام ، لأنّه كان يتشيع ^(٤) . فخرجتُ فألفيتُ من فضل عن المنصرفين أربعةً وثلاثين رجلاً . وجاءني رجلٌ من أهل الشام

(١) هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكيّ وزير الرشيد العباسيّ وأخوه في الرضاع ؛ استوزره الرشيد مدة ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨ هـ . ولما فك الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ . قبض عليه وسجنه بالرقّة إلى أن توفى في سجنه سنة ١٩٣ : (الأعلام جزء ٢) .

(٢) لصاحبي : للفضل بن يحيى .

(٣) الزوّار : المجتدون وطلّاب الحاجات .

(٤) لأنّه كان يتشيع : يرى رأى الشيعة وهم أصحاب عليّ بن أبي طالب . وكان الفضل يبغض أهل الشام لأنهم خذلوا علياً ونصروا معاوية .

كاملُ الأدب ، ظريفُ الشاهد ، فأعلمته ما تقدم به إلى^(١) .
فقال : يا أحمى ! أسألك أن تغالطَ بي وتثبتني في وسطِ الجريدة !
ففعلتُ ذلك . فنظر إلى الأسماء ثم قال : ألم أتقدم إليك ألا يكونَ
في الجريدة شامئٌ ؟ فقلتُ : وأين الشامئُ ؟ فوضع (شهد الله) يده
على اسمه وحلق . ووقع بيده لكلِّ واحد غير الشامئ ، فما قصرَ بأحدٍ
عن مائة دينار ، وأمرني بإطلاقها وإنفاقها فيهم . فجلستُ أفرطها ،
ووافي إلى الشامئ فأرثته اسمه خالياً ، وحدثته حديثه . فقال : لو قُضِيَ
شيءٌ لكان ! وأحسن الله جزاءك على ما قدمته من العناية بي !
وانصرف . وقد غمّني أمره ولم يبقَ في الزوّار أحدٌ حتى أخذ .

فأنا في منزلي قريباً من نصف الليل حتى وافاني رسوله^(٢) ، فصرتُ
إليه ، فقال : أويتُ الساعةَ إلى فراشي واستعرضتُ بفكري شُغلَ
الزوّار ، وما أمرتُ به لهم فحسنَ عندي ، ثم قبّحه في عيني حرمانُ
الشامئ المسكين ، ورأيته نقصاً في مروعتي . فتقدم في دفع مقدار
ماوصل إلى جماعة الزوّار إليه . فقلت ياسيدي ! وصل إلى جماعة

(١) ما تقدم به إلى : ما أمرني به الفضل بن يحيى .

(٢) رسوله : رسول الفضل .

الزُّوَارِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَهَذَا يَكْفِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ . فَقَالَ :
وَاللَّهِ مَا تَقْبِي أَلْفُ دِينَارٍ بَعْمَهُ ، وَقَدْ رَأَى غَيْرَهُ يَأْخُذُ ، وَقِيَامِهِ عِنْدَكَ
مَحْرُومًا . قُمْ فَادْفَعْ إِلَيْهِ الْخَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا ، وَلَا تَعْذِنِي ، فَالْخَطَأُ
فِي الْجَمِيلِ أَحْسَنُ مِنَ الصَّوَابِ فِي الْقَبِيحِ ؛ وَلَيْسَ يَشْكُرُ النَّاسُ مِنَ
الْبَرِّ إِلَّا مَا أَفْرَطَ ، فَأَمَّا مَا بَلَغَ الْحَاجَةَ فَمَنْسِيٌّ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ ، وَالْوَاجِبُ
عَلَى مَنْ آثَرَ جَمِيلَ الذِّكْرِ أَنْ يَتَغَنَّمَ أَيَّامَهُ ، وَلَا يَسُوفَ بِشَيْءٍ مِنْ فِعْلِهِ .

قال أبو محمد : فبكى والله أبي عند هذا الفصل من حديثه حتى
خفتُ عليه . وقال : ما أجهل الناس بقدر ما فقدوه من هذا
الرجل !

قال الكاتب : فخرجتُ وبنثتُ الرُّسُلَ فِي طَلَبِ الشَّامِيِّ حَتَّى
وَجَدُوهُ ، فَوَافَانِي وَقَدْ أَنْحَطَّ أَكْثَرُ لِحْمِهِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ . فَتَمَصَّصْتُ
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَشَكَرْنَا جَمِيعًا ، وَقَبَضَ الْمَالَ
وَانصَرَفَ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ .

وَسَمِعْتُ يُوْسُفَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ وَالِدِي . وَهُوَ يَقُولُ :

كَانَتْ بِنْتِي وَبَيْنَ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ مَدْبَرِ سَوَالِفٍ ^(١) تُرَعَى وَيُحَافِظُ عَلَيْهَا ،
فَلَمَّا تَوَلَّى مِصْرَ رَأَى حُسْنَ ظَاهِرِي فَظَنَّ ذَلِكَ عَنْ أَمْوَالٍ جَمَّةٍ لَدِي .
بِحَدِّ بِي فِي الْمُطَالَبَةِ ، وَأُنْجِرَ عَلَيَّ بَقَايَا لِعُقُودٍ أَنْكَسَرَتْ ^(٢) مِنْ آفَاتٍ
عَرَضَتْ لِضِيَاعِهَا ، وَلَمْ يَسْمَعْ الْإِحْتِجَاجَ فِيهَا ، وَاسْتَقْصَرَ مَا أوردتهُ
و [ظَنَّ] أَنْ مَا كَانَ عَنْ حِيلَةٍ ^(٣) . فَاحْتَبَسَنِي مَعَ الْمُتَضَمِّنِينَ ^(٤) .
فَكَانَ يَغْدُو فِي كُلِّ يَوْمٍ غَلَامٌ لَهُ يُحِبُّهُ ^(٥) يُعْرِفُ بِفَضْلِ ، فَيَكْتُبُ
عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مَا يُؤَدِيهِ فِي يَوْمِهِ ، فَإِنْ شَكَأ أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى شَيْءٍ
أُنْجِرَهُ فُحِمَلَتْ عَلَيْهِ الْحِجَارَةُ وَطُوبِلَ أَعْنَفَ مُطَالَبَةٍ ، فَلَمْ يَزَلْ بِي إِحْلَاحَهُ
حَتَّى بَعْتُ حُصْرَ ^(٦) دَارِي فَضَلًّا عَمَّا فِيهَا ، وَعَرَضْتُ دَارِي فَمَنْعَنِي مِنْ

(١) سواف : صلوات قديمة .

(٢) انكسرت : لم يؤدَّ كل ما قرر فيها من مال السلطان .

(٣) وظن الخ . أي إنه ظن أن الذي حصل من إصابة الضياع بالآفات والعجز
عن أداء ما لها للسلطان إنما كان احتيالا لا حقيقة واقعة ، فيكون الجار والمجرور
(عن حيلة) خبر أت .

(٤) المتضمنين : الضامين لأموالٍ هي ديون عليهم للدولة .

(٥) يحببه : يؤدي عمل الحجابة له .

(٦) حصر : مفردة حصير .

بيعها ، ووجه إلى : فأين يكون حرمك ؟ فوافاني كاتبى فى يوم من الأيام فقال لى : يشهد الله أنا ما نصلى لك اليوم إلى ما يقيمك فضلاً عن شىءٍ تُؤدِّيه ! وأمسك فضلُ غلامه عن الدخول فى ذلك اليوم علينا وتعرف ما يؤدِّيه كل واحد منا ، فلما صليت الظهر من ذلك اليوم أنفذ إلى توقيعا ، نسخته :

”يا أبا الحسن أعزك الله . قد ألويت^(١) بما بقى عليك ، وهو سبعة عشر ألف دينار ، وآثرنا صيانتك عن خطة المطالبة هذه المدَّة . فإن أزحت^(٢) العلة فيها وإلا سلّمناك إلى أبى الفوارس مُزاحم ابن خاقان^(٣) (أيدّه الله) وسببتُ به عليك لأصحابه^(٤)“ .

فكبتُ إليه رُقعةً أخاف فيها إنى ما أمك عدد هذا المال حب حنطة ، ولو كان لى شىءٌ لصننتُ به نفسى . فإن رأى السيد رعاية

(١) الويت : مطلت .

(٢) أزحت العلة فيها : أزلت علة المطالبة وهى المطل .

(٣) ولى مصر فى عهد المعتز بالله وتوفى بها فى المحرم سنة ٢٥٤ وكانت ولايته على مصر سنة وعشرة أشهر ويومين ، وكان من المتشددين فى الدين ، وهو أخو الفتح بن خاقان (النجوم الزاهرة) .

(٤) وسببتُ به عليك لأصحابه : وحولت ما عليك من المال إليه ليطلبك به

أصحابه .

السالف بنى وبينه ، وسَترَ مُخَنَّفِيَّ كَانَ أَهْلًا لِمَا يَأْتِيهِ ، وَإِنْ سَلَّمَنِي
إِلَى هَذَا الرَّجُلِ رَجَوْتُ مِنَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ مَنْ (١) لَا يُحْطَى مِنْ رَجَاهِ .

فَرَجَعَ إِلَيَّ بَعْضُ غُلَمَائِهِ ، وَمَعَهُ رُقْعَةٌ مُخْتَوْمَةٌ ، فَاسْتَرَكِبَنِي وَسَارَ بِي
إِلَى مُزَاحِمٍ . فَلَمَّا قُرِئَتْ عَلَيْهِ الرُّقْعَةُ أَدْخَلَنِي إِلَيْهِ ، وَعِنْدَهُ كَاتِبٌ لَهُ
يَعْرِفُ بِالْمَرْوَزِيِّ ، فَعَرَفَنِي مُزَاحِمٌ وَلَمْ أَعْرِفْهُ . وَكَانَ أَبُوهُ فِي الْحَارَةِ الَّتِي
فِيهَا دَارُ أَبِي بَسْرٍ مَنْ رَأَى (٢) وَرَبَّتَهُ أُمُّ امْرَأَةٍ لِي تُعْرِفُ بِمَيْمُونَةَ مَوْلَاةٍ
أُمَّ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّشِيدِ ، وَلَا عَلِمَ لِي بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا . فَقَالَ : أَنْتِ كَاتِبَةٌ
إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، أَيُّدُ اللَّهِ الْأَمِيرِ ! قَالَ : كُنْتُ
أُرَاكَ ، وَأَنَا صَبِيٌّ فِي حَارَتِنَا ، وَوَاللَّهِ مَا طَلَبَ ابْنُ الْمَدْبَرَانِ يَرْوِجُ
عَلَيَّ (٣) مَالًا . وَإِنَّمَا أُرَادُ أَنْ أَقْتُلَكَ بِالْمُطَالَبَةِ . وَقَدْ قَبِلْتُ التَّسْيِيبَ (٤) ،
وَرَأَيْتُ أَنْ أُكْتُبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعْرِفُهُ رُزُوحَكَ (٥) وَقُصُورَ يَدِكَ

(١) فِي الْأَصْلِ : مَا .

(٢) مَدِينَةُ بَنَاهَا الْمُعْتَصِمُ سَنَةَ ٢٢٠ وَبَقِيَتْ حَاضِرَةَ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ نَحْوَ
سَبْعِينَ سَنَةً .

(٣) يَرْوِجُ عَلَيَّ : رَوَّجَ الشَّيْءَ : عَجَّلَهُ .

(٤) التَّسْيِيبُ : الْحَوَالَةُ .

(٥) رُزُوحَكَ ؟ الرُّزُوحُ السَّقُوطُ لِإِعْيَاءِ أَوْ هِزَالِ . وَالْكَلَامُ عَلَى الْمَجَازِ .

عن هذا المال . فإن سهل وإلا نجّمه على وعلى رجالي حتى
يقاضوا به^(١) في كلّ نجم . ثم قال للمرورزي : هذا رجل من مشايخي ،
وأُم زوجته ببغداد تولت تربيتي ، وقد استكثبت^(٢) على أموري
وما أحتاج إلى قبالة^(٣) من الضياع بمصر . وليس يُزيك عن
رسمك . وأخذ خاتماً قد كان يُحتمُّ به الكُتب بحضرته فأعطانيه ،
وسألني عن العجوز التي ربته . فقلت : هي بمصر معي . وانصرفتُ
من عنده إلى منزلي . فكان أول من هنأني بجحلي منه ابن المدبر .
ورجعتُ إلى نعمتي معه في مدّة يسيرة .

*
*
*

وحدثني أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب^(٤) . قال :
كان إبراهيم بن الأجمي المهندس قد تقاصرت يده ، واختلت حاله ،
فتكلم على شكل من أشكال الهندسة ، ورفعته إلى من أوصله إلى

(١) يقاضوا به : يطالبوا به .

(٢) استكثبت : جعلته كاتباً .

(٣) قبالة : القبالة هنا الانتفاع بأرض الدولة في مقابل جزء من غلتها .

(٤) كان مصرياً وكان عالم زمانه في علوم الرياضة ، تخرج عليه كثيرون ، وله
مصنفات جليلة (أخبار العلماء للقفطي) .

المأمون . قال أبو كامل : فحدثني سند بن علي^(١) فقال : سألت
المأمون محمداً وأحمد ابن موسى بن شاكر المنجم^(٢) عن منزلة
إبراهيم بن الأجمي في الهندسة فقالا : منزلة ضعيفة ، وفيه عامية .
فقال المأمون للسندی بن شاهك أحضرنى إبراهيم بن الأجمي .
فلما أحضره ووقف بين يدي المأمون تهيبه فلم تبد منه كلمة . قال :
فرايت انقطاعه^(٣) قد سرّ ابن موسى ، وقالوا للمأمون : قد عرفنا أمير
المؤمنين أنه ليس بمحلّ من يدخل إليه . فقلتُ يا أمير المؤمنين : لولا أنك
تبسطنا بمناجاتك والمواظبة عليها لكنا بمنزلة إبراهيم في الانقطاع من
كلامك . فأما تقصير هذين به في الهندسة فإني أشهد سيدي أمير
المؤمنين أنّي من بعض تلاميذه ، وعليه ابتدأت قراءة الهندسة . فأمر
بإيصاله إليه مع خاصته وأجرى عليه ما وسعه .

(١) المنجم المأموني ، فاضل خبير بتسيير النجوم وعمل آلات الأرصاد ، وكان
يهودياً وأسلم على يد المأمون .

(٢) موسى بن شاكر : عالم في الهندسة هو وبنوه محمد وأحمد والحسن ، وكانوا
جميعاً متقدمين في علوم الرياضة والهيئة وحركات النجوم وعلم الحيل والموسيقا .

(٣) انقطاعه : أي عن الكلام وإظهار مواهبه .

فقلت للسِنْدِيُّ : متى قرأت الهندسة^(١) . فقال : امتعضت^(٢) والله فيما لحقه من تعسف هذين الرجلين . فنزلت^(٣) هذا القول لأردّ به الإصغارَ عنه . فصلّحت حاله ورجع إلى أفضل ما كان عليه .

*
* *

وحدثني [أبو كامل] شجاع بن أسلم الحاسب أيضا . قال : كان مجد وأحمد ابنا شاكر ، في أيام المتوكل ، يكيدان كل من ذكر [بالتقدم] في معرفة . فأشخصا سند بن علي إلى مدينة السلام وبعاده عن المتوكل ، ودبرا على الكندي^(٤) حتى ضربه المتوكل ؛ ووجها إلى داره فأخذا كُتبه بأسرها فأفرداها في خزانة سميت الكندية ، ومكن هذا لهما استهتار^(٥) المتوكل بالآلات المتحركة .

(١) متى قرأت الهندسة : أى هل إبراهيم بن الأعمى .

(٢) امتعضت : غضبت .

(٣) فنزلت : نزلت الشيء أحلته ، والمراد من نزلت القول وضعته واخترعه .

(٤) هو يعقوب بن إسحاق فيلسوف العرب ، نشأ بالبصرة وانتقل إلى بغداد فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقا والهندسة والفلك ، وألف وترجم وشرح كتبا كثيرة يزيد عددها على المائة . توفي سنة ٢٦٠

(٥) استهتار : الاستهتار شدة الولوع .

وتقدم^(١) إليهما في حَضْرِ النهر المعروف بالجعفرى . فاسندا أمره إلى أحمد^(٢) بن كثير الفرغانى الذى عمل المقياس^(٣) الحديد بمصر (وكانت معرفته أوفى من توفيقه، لأنه ما تم له عمل قط) فغاط في فوهة النهر، وجعلها أخفض من سائر . فصار ما يغمر الفوهة لا يغمر سائر . فدافع مجد وأحمد ابنا شاكر فى أمره . واقتضاهما^(٤) المتوكل، فسعى^(٥) بهما إليه فيه . فأنفذ مستحثاً فى إحضار سند بن على من مدينة السلام، فوافى، فلما تحقق مجد وأحمد ابنا شاكر أن سندا قد شخّص أيقنا بالهلكة وييسا من روح الحياة .

(١) وتقدم إليهما : أمرهما المتوكل .

(٢) فى تاريخ ابن خلكان أن الذى أنشأ المقياس أحمد بن مجد الحاسب القرصانى (ولعل القرصانى محرفة عن الفرغانى) ثم وصف ابن خلكان هذا المقياس وصفا دقيقا . انظر ترجمة ابن الرداد .

(٣) عمل المقياس الحديد : أمر المتوكل ببناء هذا المقياس سنة ٢٤٧ فى ولاية يزيد بن عبد الله وهو المعروف بالحديد (النجوم الزاهرة) .

(٤) واقتضاهما : وطلبهما ليحاكهما .

(٥) فسعى بهما إليه : أى أحضرا إلى المتوكل للحاكمة . وقوله (فيه) أى بسبب

هذا الأمر أو بسبب ابن كثير وغلطه .

فدعا المتوكل سندا . وقال [له] : ما ترك هذان الرديثان شيئا من سوء القول إلا وقد ذكراك عندي به ! وقد أتلفا جملةً من مالى فى هذا النهى ؛ فانخرج إليهِ حتى تتأمله وتخبرنى بالغلط فيه . فأتى قد آليت على نفسى إن كان الأمر على ما وُصف أن أصلبهما على شاطئه . وكل هذا بعين محمد وأحمد وسمعهما ، فخرج وهما معه .

فقال محمد [بن موسى لسند] : يا أبا أحمد ! ” إن قدرة الحرّ تذهب حفيظته ! ، وقد فرّعننا إليك فى أنفسنا التى هى أنفس أعلاقنا ، وما نُنكر أنا قد أسأنا - والاعتراف يهدم الاقتراف - فتخلصنا كيف شئت ” . قال لهما : أتما تعلمان ما بينى وبين الكندى من العداوة والمباعدة ، ولكن الحق أولى ما أتبع . أكان من الجميل ما أتيتما إليه فى أخذ كتبه؟ والله لا ذكركما [بصالحه] حتى ترداها عليه ! فتقدم محمد بن شاكرفى حمل الكتب إليه ، وأخذ خطه باستيفائها ، فوردت رقة الكندى أنه تسلبها عن آخرها . فقال لهما : قد وجب لكما على ذمام^(١) برد كتب هذا الرجل ، ولكما على ذمام بالمعرفة التى

(١) ذمام : حق وحرمة .

لم ترعياها^(١) في. والخطأ في هذا النهر يَسْتَرِ مدَّة أربعة أشهر، بزيادة
دجلة. وقد أجمع الحَسَابُ^(٢) على أن أمير المؤمنين لا يبلغ هذا المدى،
وأنا أخبره الساعة أنه لم يقع خطأ في النهر إبقاءً على أرواحكم. فإن
صَدَقَ المُنَجِّمُونَ أَقْلُنَا الثلاثة، وإن كذبوا وجزت^(٣) مدته حتى
تنقُصَ دجلةُ وينضبَ النهرُ أوقع بنا ثلاثتنا.

فشكر محمد وأحمد هذا القول منه، واستتر الأمر واسترقهما به، ودخل
إلى المتوكل فقال [له] : ما غلطا . وزادت دجلةُ وأجرى الماء
فيه^(٤)، واستتر حال النهر، وقُتِلَ المتوكلُ بعد شهرين من إجرائه، وسلم
محمد وأحمد بعد شدة الخوف مما توقعوا .

*
*
*

(١) ولكما على ذمام بالمعرفة الخ : أى ولكما على حق بصله العلم التي تربطنا
والتي لم ترعياها في .

(٢) الحَسَابُ : المنجمون الذين يحاولون معرفة الغيب بالنظر في النجوم وحساب
مواقيتها وسيرها .

(٣) وجزت مدته : وتجاوز عمره المدة التي حددها المنجمون .

(٤) فيه : في النهر .

وحدثني الحسن بن مسلم الأفریطشي (ورأيتُه بعد أن علَّتْ
سنُّه وبلَّغ المأسنة . وكان صحيح التمييز ، سليم الحواس) قال :
ألحَّ غزونا على الروم ، وناهم منا مكروه عظيم ، فوجد^(١)
مملك الروم من هذا ، ونذر أن يُجرب أفریطش^(٢) ، ولو أنفق
ذخائر مملكته ، فنظر إلى راهب محبوب تتعالم الروم زهادته . فأنزله
من متعبده ، وضم إليه أكثر جيوشه ، فوائى جمع لم يُحط بأفریطش
مثلُه قط . ففزعنا إلى غلق الحصن ، وتسرع الروم إلى بناء مساكن
لهم ، وخرجوا من المراكب ، وغلبونا على ميرة البلد وما يكون في جواره ،
واشتدَّ الحصار ، ونزع السع^(٣) ، وتحلق المأكول^(٤) ، وشاع الجهدُ ،
ثم زادت المكاره حتى أكل الناس ما مات من البهائم جوعاً ،

(١) وجد : حزن وغضب .

(٢) أفریطش : كريت ، جزيرة مشهورة ببحر الروم أول من غزاها جنادة
ابن أمية الأزدي في سنة ٥٤ في عهد معاوية ثم غزاها حميد بن معيوف الهمداني
في خلافة الرشيد ، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي
سنة ٢١٢ إلى أن تملكها أرمانوس في عهد المطيع سنة ٣٤٩

(٣) نزع السع : أسرع في الصعود ، يقال نزع الفرس سننا إذا جرى طلقا .

(٤) تحلق المأكول ، يقال تحلق ضرع الناقة : ارتفع لبنها ، فتحلق المأكول :

قلته وامتناع وروده .

وأجمعوا على أن يفتحوا الباب له^(١). فقال لهم شيخٌ : إني قد أراكم قد حرمتم التوفيقَ في قوتكم وضعفكم . والصوابُ أن تقبلوا مني ما أشير به عليكم . قالوا : قل . قال : تزكوا لله^(٢) من قبيح ما يحملكم عليه تظاهرُ النعمةِ والسلامةِ ، وأخلصوا له إخلاصَ مَنْ لا يجدُ فرجةً إلاَّ عنده ، وافصلوا صبيانكم من رجالكم ، ورجالكم من نسائكم . فلما ميزهم هذا التمييزَ صاح بهم : عجبوا^(٣) بنا إلى الله . فعجبوا عجةً واحدةً ، وبكى الشيخُ وبكى أكثرُ الناس . ثم قال : عجبوا أخرى ولا تستغلوا بغير الله . فعجبوا عجةً أعظمَ من الأولى وبكى الناس أيضا . ثم عجبَ الثالثةَ وعجبَ الناسَ معه .

وقال : تشرفوا^(٤) من الحصنِ فإني أرجو أن يكونَ للهُ قد فرجَ عنا . فحلفَ لي الحسنُ : إني تشرفتُ مع جماعةٍ فرأيتُ الرومَ قد قوضوا [رحالهم^(٥)] وركبوا مراكبهم . وفتِحَ بابُ الحصنِ فوجدوا

(١) له : الضمير يعود على الجمع المحيط بالمدينة .

(٢) تزكوا : تطهروا وأصلحو نفوسكم . وفي الأصل تركوا ، وهو تحريف .

(٣) عجبوا : ارفوا أصواتكم .

(٤) تشرفوا من الحصن : تشرف المرءُ أو المكانُ العالی علاه ، وقد ضمن

الفعل معنى تطلعوا .

(٥) رحالهم : مساكنهم .

قوما من بقاياهم فسألوهم عن حالهم . فقالوا : كان عميد الجيش بأفضل سلامة إلى اليوم حتى سَمِعَ ضَجَّتَكُمْ في المدينة ، فوضع يده على قلبه وصاح : " قلبي قلبي " . ثم طفا ^(١) . فانصرف من كان معه إلى بلد الروم .

ونخرجنا عن الحصن فوجدنا في تلك الأبنية من القمح والشعير ما وسع المدينة وأعاد إليها خصبها [وكفينا] جماعتهم من غير قتال .

*
*
*

قال أبو جعفر :

ولما غلب ابن الخليج على مضر ونواحيها لم يكن بمصر أسوأ قدرة على أسباب ^(٢) أبي علي الحسين بن أحمد الماذرائي ^(٣) من أحمد بن مهمل

(١) طفا : مات .

(٢) أسباب : عمال وأتباع .

(٣) كان أبو علي الحسين بن أحمد وأبو بكر محمد بن علي من كبار رجال دولة ابن طولون ، وقد دبرا أمور دولته في الرجال والمال ولهما في الكتابة وتدير شؤون المملكة معرفة ودراية والماذرائي نسبة إلى ما ذرايا قرية بالبصرة ، وفي النجوم الزاهرة : أنه كان هو وعيسى النوشري على رأس الجند الذين قدموا مصر للقضاء على الدولة الطولونية ، وقد تولى خراج مصر بعد ذلك ، ثم توفي بدمشق سنة ٣١٤ هـ وكان كاتباً فاضلاً .

بنِ سُنيّف ، فلم يمض ، شهرٌ حتّى انهزم ابنُ الخليجِ وُظفِر به وُحِمِل
إلى العراق ، ودخل بعد ذلك بشهورٍ أبو العباس أحمد بن محمد بن
بِسْطامٍ إلى مصر متولياً بالأمانةِ على الحسين بن أحمد^(١) وكاشفاً لما
جرى عليه أمرُ الضياع بعد ابن الخليج وأصحابه^(٢) .

فقرّر أبو عليّ أمرَ المتضمّنين^(٣) بالحضرة عند أبي العباس ،
فعرّض بسهل بن سُنيّف ولم يدع سوءاً إلا ذكره به . فقال
أبو العباس : سيعلم ما يجرى عليه مني ! واتّصل [الخبر] بسهل
ابن سُنيّف فاستطير قلبه ، وكسِف باله . وأخضر مع جماعةٍ أُجلبوا^(٤)
من الكُتّاب مع ابن الخليج . فلما دخلوا عليه كاد يقوم إلى سهل بن
سُنيّف ، ثم رفعه حتّى كان أقرب إليه من أخصّ أصحابه . ودعا

(١) متولياً بالأمانة الخ : أى إنه تولى ليكون أميناً على الحسين ، وهى وظيفة كان
يقصد بها ضمان متولى الخراج . جاء فى السيرة : وأقرّ أحمد بن طولون أبا أيوب
على الخراج من قبله ، وجعل عبد الله بن دشومة أميناً عليه .

(٢) وكاشفاً الخ : أى ومزيلاً لما جرى على الضياع من الاغتصاب والمصادرة
وغيرها فى حكم ابن الخليج .

(٣) المتضمّنين : المدينين للدولة بالخراج وما فرض عليهم من الغلات .

(٤) أُجلبوا : أُجلب : توقّد بشرو جمع الجروع للناوأة ، والمعنى تجمّعا مع ابن
الخليج وناصره .

ابن حُبَيْشِ فَسَارَةَ ، فنظَر إلى سَهْلٍ ، وقال لأبي العَبَّاسِ : الأمرُ على ما وصَفْتِ ، ثم أطلق سَهْلًا من ساعته إلى منزله . فسأله أبو علي : هل تعرفه قبل هذا ؟ فقال : لا واللهِ ولكنّه وردَ عليّ منه ^(١) أشبهُ الناسِ بأبي .

وأفرخ ^(٢) رُوعَ سَهْلٍ بتوفيقِ الله ولطفه . وما زال حَفِيَّابَهُ حتّى مات .

*
*
*

قال : وكنتُ قد عملتُ في أيامِ ابنِ الخَلِيجِ لحمايةِ ضِياعِ ^(٣) كانت في يدي . فلما تمخَّضتُ ^(٤) دولتهُ اختَفَيْتُ ونُهَيْتُ ونِحْتُ الإيقاعَ بي ، واعتور ^(٥) ضِياعِي العُمَالُ ، وأضاعت ^(٦) حالي . فاجتمع الخوفُ والفاقةُ ، فرأيتُ بعدَ قدومِ أبي العَبَّاسِ بنِ بِسْطَامِ فيما يرى النَّائمُ يُوسُفَ بنَ إبراهيمِ والدي ، وأنا أشكو إليه خَلَّتِي وخوفي . فكأنّه

(١) ورد عليّ منه : رأيت فيه .

(٢) أفرخ روع سهل : ذهب خوفه .

(٣) لحماية ضياع : المراد من حماية الضياع الإشراف عليها والانتفاع بنصيب من غلاتها .

(٤) تمخضت دولته : أي بالفتنة يقال تمخض الدهر بالفتنة : أتى بها .

(٥) اعتور : تداول وأخذ .

(٦) أضاعت حالي : ذهب مالي ، يقال : أضاق فلان : إذا ذهب ماله .

يقول : أنا أتكلّم في أمرك حتى تعودَ إلى محبتك . فلما أصبحتُ
قصصتُ الرؤيا على مَنْ كنتُ مختلفيا عنده، وكان حاذقا بالعِبارَة^(١) .
فقال : يجرى لك فرجٌ بذكرِ أبيك^(٢) . وطلب أبو العباسُ بنُ بسطام
الدستوراتِ^(٣) القديمةَ ليعتبر^(٤) منها عبرَ الضياعِ^(٥) فأخرج إليه ما كان
لسنة خمسين ومائتين وما قبلها . فرأى فيها اسمَ والدي في ضياعٍ
كثيرة . فقال : من هذا يوسفُ بن إبراهيم ؟ فقال له أبو عليّ :
هذا صاحبُ إبراهيم بن المهديّ ، ورضيعُ المعتصم^(٦) . قال
أبو العباسُ : وصاحبُ كتابِ الطيخِ ؟ قال أبو عليّ : نعم . قال فله
ولدٌ ؟ قال : نعم في ناحيتي . قال : نخذُ لي منه كتابَ الطيخِ وكتابَ

(١) بالعِبارَة : عبر الرؤيا عبرا وعِبارَة فسرّها .

(٢) بذكرِ أبيك : بسبب ما ذكره له أبوك .

(٣) الدستورات : الدستور : قانون الجماعات ، والمراد به هنا المجلات المحتوية
على أوصاف الأراضى وحدودها والمشرفين عليها .

(٤) يعتبر : يتدبر ويتأمل .

(٥) عبر الضياع : عبر الشاطئ ، والمراد بعبر الضياع حدودها وكل
ما يتعلق بها .

(٦) المعتصم هو ثامن الخلفاء العباسيين ، بويح بالخلافة سنة ٢١٨ بعد وفاة
أخيه المأمون وبعهد منه ، وهو باني مدينة سامراء حين ضاقت بغداد بجنده ،
وقد توفى بها سنة ٢٢٧ هـ . [الأعلام جزء ثالث] .

أخبار إبراهيم بن المهدي ، وصربه إلى حتى يقرأهما عليّ ، قال :
أفعل .

وكان إسحاق بن نصير يعرف موضعي . فقال له (١) : أحتاج إلى
أحمد بن يوسف . قال : تؤمنه وعليّ إحضاره ! فكتب له أماناً
بخطه وحلف فيه ألا يسوءني ، ولا يطالبني . فخرجت إليه وأحضرتة
الكتابين ، وفرج الله عني بأضعف سبب .

*
*
*

وحدثنني أم آسية قابلة أولاد نعمارويه بن طولون (وكان
لها دين ، ومذهب جميل ، ومحل لطيف من نعمارويه) وقد تذاكرنا
لطف الله (عز وجل) في أرزاق عباده ، وحسن الدفاع عنهم :
أنه تزوجها وأختها أخوان . فاقبلت حال زوجها أختها ، وأدبرت
حال زوجها . قالت : وتوفّي زوجها بأسوأ حالة ، وخلف لها
بنات ، وتعذر عليها تجهيزه من آختلاله . وتوفّي زوج أختها ، وقد
خلف (٢) من العين والمساكن والأواني لولد أختها .

(١) فقال له : أي قال أبو علي لإسحاق بن نصير .

(٢) خلف : المفعول به محذوف وتقديره " كثيراً " أو نحوها .

قالت: فكنْتُ أجاهدُ في مؤونةِ ولدي ، وإذا وقَفَ أمرى صِرْتُ
إلى أُختي فقلت : أقرضيني كذا وكذا استحياءً من أن أقول لها :
هبي لي . ودخل شهرُ رمضان ، فلما مضى نصفه اشتهوا^(١) على صبياني
حلواءً في العيد ، فصِرْتُ إلى أُختي فقلتُ لها : أقرضيني ديناراً
أعملُ به للصبيان حلواءً في العيد . فقالت : يا أُختي تَغِيظِينِي
بقولك : ” أقرضيني ” وإذا أقرضتُك من أين تُعطيني ؟ أمن غلَّةِ
دورك أو بُستانك ؟ ! لو قلتِ هبي لي كان أحسنَ . فقلتُ لها :
أقضيك من لطفِ الله تعالى الذي لا يُحْتَسَبُ^(٢) ، وجوده الذي
يأتي من حيث لا يُرْتَقَبُ . فنضاحكت وقالت : يا أُختي ! هذا
والله من المنى ، والمنى بضائع النوكي^(٣) ! فانصرفتُ عنها أجرُ رجليَّ
إلى منزلي .

وكان في جوارنا خادمٌ أسودُ لبنتِ اليتيم امرأةٌ بحارويه . فلما
بلغتُ حارتنا قال لي : في جوارنا امرأةٌ تُطلقُ^(٤) قد أوجعتُ

(١) اشتهوا على صبياني : لغة ضعيفة .

(٢) يحتسب : يظن ويقدر .

(٣) النوكي : الحمقى .

(٤) تطلق : بالبناء للعلوم ، أصابها الخفاض .

قلبي ! ادخلى إليها فليس لها قابلة . قالت أم آسية : ووالله ما عانيت
مَمخوِضةً^(١) قط ! فدخلتُ إليها فمسحتُ جوفها وأجلستها كما كان
القوابلُ يُجاسِنني في طَلقي ، فولدتُ من ساعتها . فلما أمسك^(٢)
صياحُها ، جاء الخادم يسأل عنها . فقلتُ : قد ولدت . فعجِب
من سرعة أمرها ، وظنَّ أن هذا شيئاً قد اعتمده^(٣) بِحذقِ صناعةٍ ،
ولُطفِ في مهنةٍ ، فمضى إلى سِتته^(٤) بنتِ اليتيم وكانت مُقرباً^(٥) بأول
ولدِ حِمْل لأبي الجيش ، وقد عرِض عليها قوابلُ استئقلتهن . فقال :
في جوارنا قابِلَةٌ أحضرناها لمِراةٍ في حارتنا تُطلقُ فوضعتُ يدها
على جوفها فسقط ولدها . ووصفني بما لا يوجد في قدرة أحدٍ إلا
بالله^(٦) عرَّ وجلَّ . فقالت للخادم : إذا كان غدٌ^(٧) بفتحني بها . فأتى
الغلام ودعاني إلى مولاته فأجبتُ بانسراجِ صدرٍ وثِقَةٍ بالله تعالى .

(١) ممخوِضة : تعانى الولادة .

(٢) أمسك : امتنع واحتبس .

(٣) اعتمده : قصده .

(٤) سته : سيّده وهى مولدة ، وأول ما وجدت هذه الكلمة في هذا العصر .

(٥) مقرباً : قربت ولادتها .

(٦) بالله : بمعونة الله .

(٧) في الأصل : غدا .

فاستخفَّت رُوحِي وقالت : إلى التَّامِ (١) تقديرُ الله تبارك وتعالى .
ثم شكَّت مَغْسًا (٢) تجده المُقْرَبُ ، فأدخلتُ يَدِي في ثيابها ومسحتُ
جوفها وعججتُ (٣) إلى الله تعالى في سرِّي بتوفيقِي (٤) ، وكنتُ
أدعو ، ومن حضر من أهلها يتوهمُ أني أرقِي (٥) ، فسكن ما وجدته
وتبركتُ بي ، ودخل إليها نمارويه ، وقال : ما وجدتِ ؟ فقالت مَغْسًا
في جوفِي فوضعتُ قابِلَةً أَرَدْتُهَا (٦) يَدَهَا عليه فزال ما أجده ،
وأخرجتني إليه (وكان قريباً من حرِّمه (٧)) . فقال لي : أرجو أن
يُخَلِّصَها اللهُ (عزَّ وجلَّ) ببركتك .

قالت أم آسية : ودخلنا في العشرِ الأوَّليِّ من شهر رمضان .
وقد تمسَّكتُ من الإخلاص لله (عزَّ وجلَّ) بما لا يصلُّ إليه

(١) إلى التمام : الوصول إلى تمام الولادة .

(٢) مغسا : المغس ، ويمر بك : كالمغص بالصاد ، وجع في البطن .

(٣) عججت : الأصل في العج رفع الصوت وضمته معنى الالتجاء .

(٤) بتوفيق : أى داعية بتوفيق .

(٥) أرقى : رقى المريض ونحوه يرقه رقا : عوذه بكلمات وأدعية لإزالة الضرعه

(٦) أردتها : اخترتها .

(٧) حرِّمه : ما يحويه الرجل ويقا تل دونه ، والمراد هنا مكان النساء من القصر .

مَنْ سَاحَ فِي الْجِبَالِ ^(١) ، خَوْفًا مِنْ شِمَاتَةِ أُخْتِي بِي . فَلَمْ تَمِضْ إِلَّا
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى مَخَضَتْ ^(٢) فَأَجْلَسْتُهَا عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلَادَةِ (وَكَانَ
مِقْدَارُ طَلْقِهَا سَاعَتَيْنِ) فَوَلَدَتْ ابْنًا أَسْهَلَ وَوَلَادَةٍ ، وَأَبُو الْجَيْشِ يَقُومُ
وَيَقْعُدُ وَيَذْهَبُ وَيَجِيءُ . فَلَمَّا وُلِدَتْ وَكَانَتْ تَتَوَقَّعُ مِنَ الْوِلَادَةِ أَمْرًا
عَظِيمًا ، فَلَمَّا ^(٣) أُلْقَتْهُ : قَالَتْ لِي : هَذَا ^(٤) الطَّلُقُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ .
فَقَبَّلَتْ - يَعْلَمُ اللَّهُ - عَيْنِي مِنَ الْفَرَحِ . وَصَاحَ نَحَارُويَه : أَخْبِرْنِي
يَا مَبَارَكَةَ بِخَبْرِهَا . فَقُلْتُ : وَحَيَاةَ الْأَمِيرِ إِنَّهَا فِي عَافِيَةٍ ، وَقَدْ وُلِدَتْ غُلَامًا
سَوَى الْخَلْقِ بِحَمْدِ اللَّهِ ، فَوَجَّهَهُ إِلَى بَالْفِ دِينَارٍ ، وَأَخَّ أَبُو الْجَيْشِ
فِي النَّظَرِ إِلَيْهَا لِقَرِطِ إِشْفَاقِهِ عَلَيْهَا . فَاسْتَوْقَفْتُهُ إِلَى أَنْ نَقَلْتُ حَوَائِجَ
الْوِلَادَةِ ؛ وَقُلْتُ لَهَا يَا سَيِّدَتِي ! اضْحَكِي فِي وَجْهِهِ كَمَا ^(٥) تَرَيْنَهُ . فَلَمَّا دَخَلَ
إِلَيْهَا ضَحِكْتِ فِي وَجْهِهِ ؛ فَتَقَدَّمَ بِصَدَقَةٍ بِمِائَةِ كَثِيرٍ عَنْهَا وَعَنْ وَلَدِهِ .

(١) وقد تمسكت الخ : تمسكت اعتصمت بما لا يصل إليه من ساح في الجبال
تريد بذلك الزهاد والعباد الذين هجروا الدنيا حبا لله ورغبة في رضاه من الإخلاص .

(٢) مخضت كسمع ومنع وعنى مخاضا (بالفتح والكسر) أخذها الطلق .

(٣) كترت " لما " على أسلوب الحديث والمشاهدة .

(٤) هذا الطلق : أي الطلق الأخير .

(٥) كما ترينه : أي عندما ترينه ، وقد سبق أن استعمل المؤلف " كما " بهذا المعنى

و يظهر أنه من تعبيرات العصر .

وقالت لى أم آسية: لما كان يوم الأُسبوع (ووقع قبل العيد بيوم واحد) أمرت لى بخمسمائة دينار، وحصل من أتباعها ألف دينار.

فحصل لى ألفان وخمسمائة دينار . وخلعت على وسائر حشمتها أكثر من ثلاثين خلة . وحمل إلى مما أعد للعيد ثلاث موائد خاصة . وانصرفت إلى منزلى فأرسلت إلى أختى مائدة ، ووافقتى مهتة ، وقد تقاصر طولها^(١) ، فأريتها ما حصل لى من المال والخلع والطيب، وقلت لها: يا أختى! أنكرت على قولى: "أقرضينى!" ومن هذا كنت أفضيك^(٢) . فلا تستصغرى من كان الله مادته ، وعليه مدار ثقته وتعويضه .

واكتسبت هذه المرأة بحملها من أبى الجيش مالا كثيرا ، وقضت لجماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة .

*
*
*

(١) طولها : الطول (بفتح وسكون) الفضل والقدرة والغنى والسعة ، ويصح أن تقرأ بضم الطاء أى تواضعت .

(٢) ومن هذا كنت انخ : أى وكانت نيتى أن أفضى دينى من هذا الذى كنت أرجوه من فضل الله وكرمه .

وحدّثني شجاعُ بنُ أسلمَ الحاسبُ . قال : ^(١) .
قلت لسند بن علي : من كان سببك ^(١) إلى المأمون حتى اتصلت به
وكنت [من جلسائه] من العلماء ^(٢) . فقال : أحدثك به ، كان والدي
يتكسّب بصناعة أحكام ^(٣) النجوم مع قوم من أسباب ^(٤) السلطان
يودونه ويحبونه ، وتعلق قلبي بعد فراغي من قراءة كتاب أقليدس ^(٥)
بكتاب المجسطي ^(٦) . وكان في أيام المأمون بسوق الوراقين رجلٌ
يعرفُ بمعروفٍ ، يورّق ^(٧) هذا الكتاب ويبيعه بعد تكامل خطه
وأشكاله وتجليده بعشرين ديناراً . فسألت والدي ابتياعه لي . فقال :

(١) سببك : وسيلتك .

(٢) من العلماء : بيان لمن .

(٣) أحكام النجوم : علم الهيئة ، أو معرفة المستقبل من النجوم .

(٤) أسباب السلطان : عماله .

(٥) كتاب أقليدس : كان أقليدس من حكماء اليونان ، وقد ألف كتابه في الهندسة ،
ويسمّى علماء الإسلام هذا الكتاب بالأصول ، وأول من نقله إلى العربية الحجاج
بين مطر الكوفي ، ثم نقله إسحاق بن حنين ثم ثابت بن قرة .

(٦) المجسطي : كتاب وضعه بطليموس في علم الهيئة وحركات النجوم وترجم
إلى العربية إبيح بن خالد بن برمك .

(٧) يورّق : يستعمل المؤلف التوريق بمعنى النسخ للبيع .

أَنْظِرْنِي^(١) يَا بُنَيَّ إِلَى أَنْ يَتَهَيَّأَ لِي شَيْءٌ أَخُذُهُ إِمَامًا مِنْ رِزْقٍ ، وَإِمَامًا مِنْ فَضْلِ^(٢) ، وَأَبْتَاعُهُ لَكَ (وكان لي أخ لا يشتهي مما [تقدمت] أنا فيه من العلم شيئاً، إلا أنه كان يخدم أبي في حواججه و [يظهر]^(٣) الإشفاق عليه .

فلما سَوَّفَنِي أَبِي بِالْكَتَابِ وَطَالَتِ الْمُدَّةُ فِيهِ . رَكِبْتُ مَعَهُ لِأَمْسِكَ دَابَّتَهُ فِي دُخُولِهِ إِلَى مَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ ، وَلِي إِذْ ذَاكَ سَعَى عَشْرَةَ سَنَةً . فَخَرَجَ إِلَى غِلْمَانٍ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ ، فَقَالُوا : أَنْصَرِفْ فَقَدْ أَقَامَ أَبُوكَ عِنْدَ مَوْلَانَا . فَمَضَيْتُ بِالذَّابَةِ فَبَعَثَهَا بِسَرَجِهَا وَجَلَامِهَا بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثِينَ دِينَارًا ، وَمَضَيْتُ إِلَى مَعْرُوفٍ فَاشْتَرَيْتُ الْكِتَابَ بِعِشْرِينَ دِينَارًا . وَكَانَ لِي بَيْتٌ أَخْلُو فِيهِ . وَجِئْتُ إِلَى أُمِّي فَقُلْتُ لَهَا : قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكُمْ جَنَايَةً ، وَاقْتَصَصْتُ عَلَيْهَا الْقِصَّةَ ، وَحَلَفْتُ لَهَا أَنْ شَحَذْتُ^(٤) أَبِي عَلَيَّ حَتَّى يَمْنَعَنِي مِنَ النَّظَرِ فِي الْكِتَابِ لِأَخْرَجَنَّهُ عَنْهُمْ إِلَى أْبَعْدِ غَايَةٍ ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهَا فَضْلَ ثَمَنِ الذَّابَةِ . وَقُلْتُ لَهَا : أَنَا أَغْلِقُ بَابَ هَذَا الْمَنْزَلِ الَّذِي

(١) أَنْظِرْنِي : تَمَهَّلْ عَلَيَّ وَأَحْرِمْ مَطَالِبَتِي .

(٢) مِنْ فَضْلِ : مِنْ مَطَاءٍ .

(٣) : إِذَا مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ .

" كَبَّرَ أَحَدَهَا ، وَيُرِيدُ مِنَ الشَّحْذِ هُنَا التَّحْرِيفَ .

لى ، وأرضى منكم برغيف يُلقَى إلى كما يُلقَى إلى المحبوس إلى أن أقرأه
جميعه . فتضمنت^(١) لى بتسكين فورته ، ودخلت البيت وأغلقتُه من
عندى^(٢) . فضى أنحى إلى والدى فى الموضع الذى كان فيه فأسّر
إليه الخبر ، فتغيّر وجهه ، وتلجلج فى حديثه ، فقال له من كان
عنده : قد شغلت قلبى وقلب من حضر بما ظهر منك فبحقّى
عليك إلا أخبرتنا بماذا ؟ قال : فحدثه . فقال : هذا والله يسرنا فى ولدك
فاتعد فيه بكل جميل . ثم استحضر من إصطبله بغلاً أفره من بغل
أبى ، وسرجاً خيراً من سرجه . وقال لأبى : اركب هذا البغل
ولا تكلم أبناك بحرف .

قال سندٌ : وأقتُ ثلاث سنينَ كيوم واحد ، لا يرى لى أبى
صورة وجه ، وأنا مُجدُّ حتى استكملتُ كتاب المِجسطى ، ثم خرجتُ
وقد عملتُ أشكالاً مستصعبات ، ووضعتها فى كُفى ، وسألت هل
للهندسين والحساب موضع يجتمعون فيه ؟ فقيل لى : لهم مجالس

(١) فتضمنت : أصل تضمن : التعدى بنفسه : يقال ضمته الشئ فتضمنه
عنى ، ولكن المؤلف استعمله بمعنى ضمن يقال ضمن الشئ وبه كفه .

(٢) من عندى : من الداخل .

في دار العباس بن سعيد الجوهري^(١) ترب المأمون ، يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة . فحضرتُه ، فرأيت جميعَ مَنْ حضرَ مشايخَ ، ولم يكن فيهم حدٌُّ غيري ، لأتَى كنتُ في العشرين سنةً .

فقال العباس : مَنْ تكونُ وفيهِ نظرتَ ؟ فقلتُ : غلامٌ يُحِبُّ صناعةَ الهندسة والهيئة . قال : ما قرأتَ . قلتُ : أقليدسَ والمجسطي قال : قراءةَ إحاطةٍ ؟ قلتُ : نعم ، فسألني عن شيءٍ مستصعبٍ في كتابِ المجسطي كان تفسيرُهُ في الأوراقِ التي كانت في كُمِّي ، فأجبتُهُ فعجِبَ وقال : من أفادك هذا الجوابَ ؟ قلتُ : استخرجتُه قريحتي ، وما سمعته من غيري ، وهو وغيرُهُ فيما مرَّ بي في ورقٍ معي . قال : هاتِهِ فلما رآه اغتاظَ واضطربَ . ثم قال لبعض مَنْ بين يديه من غلمانِهِ : السَّفَطُ^(٢) . فجيء به فنظر إلى خاتمِهِ فوجده بحاله ، ثم فضَّه وأنجَحَ منه كُرَّاسَةً فجعل يُقابلُ بها الورقَ الذي كان معي ، فكان الكلامُ فيما معه أحسنَ وصفاً من الكلامِ الذي معي ، والمعنى واحدٌ .

(١) خبير بحساب الفلك وعمل آلات الأرصاد ، صحب المأمون وندبه إلى مباشرة الرصد في جملة المتولين لذلك بالشماسية ببغداد .

(٢) السفط : وطاء كالجوالق أو القفة كانوا يضعون فيه الكتب .

فقال : هذا شيءٌ توليتُ تبيينه من كتاب المجسطى ، فلها أحضرتنيهِ
توهمتُ أنه سُرق مني حتى تبينتُ اختلافَ اللفظين مع اتفاق
المعنى ، ثم أمرَ أن يُقطع لي أقيسةٌ ، ويرتاد لي (١) منطقةٌ مذهبَةٌ ،
ففرغ من جميع ذلك في تلك الليلة ، وأدخل بي إلى المأمون .
وأمرني (٢) بملازمته وأجرى لي أنزالاً (٣) ورزقا .

*
*
*

وحدثني أحمد بن أبي يعقوب قال :

حدثني أبي أن جبريل بن بختيشوع (٤) كان يخلف (٥) الأطباء في دار
الرشيد ، وكانت به نزاهةٌ وبه فاقةٌ شديدة ؛ ورزقه يومئذ ثلثمائة درهم في كل
شهر . فوقع الرشيد في غشية لم يتقدمها علةٌ . فأجمع الأطباء على أنه تالف ،

(١) يرتاد لي : يطلب لي .

(٢) أمرني : أى المأمون .

(٣) أنزال : جمع نزل : (بضم فسكون) وهو الأجر الشهري أو السنوي .

(٤) هو جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وجليسه ، خدم الأمين بعد وفاة
الرشيد ، ولما ولى المأمون سجنه ثم أطلقه ورفعته إلى مثل مكانته في عهد الرشيد ،
توفى سنة ٢١٣ هـ ودفن بالمدائن (الأعلام ج ١) .

(٥) يخلف الأطباء : يأتى بعدهم في المنزلة ويقوم بعملهم إذا غابوا .

وَأَخْبَرَ ابْنَ بُحْتِيشُوعَ فَقَالَ : مَا لَهُ إِلَّا عِلَاجٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ أَنْ يَجْمُوهَ .
 فَقَالَ مَجْدُ الْأَمِينِ : أَخَافُ أَنْ أَخْطِرَ بِهِ . ثُمَّ قَالَ : قَدْ أَلْسِنَا مِنْهُ ،
 وَالصَّوَابُ أَنْ نَمْتَحِنَ هَذَا^(١) فِيهِ . فَأَحْضَرُوا الْحَجَّامَ بِفَمَعِ الدَّمِ
 فِي أَخْذَعِيهِ^(٢) وَهُوَ مُسْتَلْقٍ . ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ دَمِهِ مِجْمَعَتَيْنِ^(٣) فَفَتَحَ
 الرِّشِيدُ عَيْنَيْهِ ، وَاسْتَدْعَى طَعَامَهُ وَأَكَلَ وَنَامَ . فَلَمَّا أَنْتَبَهَ أَقْتَصَّ عَلَيْهِ
 الْمَأْمُونُ مَا جَرَى عَلَيْهِ [أَمْرُهُ ، وَأَذِنَ] لِلدَّاخِلِينَ فِي تَهْنِئَتِهِ بِالسَّلَامَةِ .
 فَلَمَّا اكْتَمَلُوا قَالَ لَهُمْ : يَا مَعْشَرَ الْأَمْرَاءِ وَالْأَطْبَاءِ إِنَّمَا آرْتَبِطُكُمْ^(٤)
 لِحِرَاسَةِ نَفْسِي ، وَقَدْ حَدَّثَ عَلَيَّ حَدِيثٌ لَمْ يُغْنِ عَنِّي فِيهِ بَعْدَ اللَّهِ
 (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَّا هَذَا الْغَلَامُ ! وَنَصِيْبُهُ مِنِّي نَزْرٌ وَنَصِيْبُكُمْ وَأَفْرٌ ،
 فَاعْدِلُوا مَيْلَ الْمَمْلُوكَةِ بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ نَصِيْبًا مِنْ إِنْعَامِي
 عَلَيْهِ ، وَإِحْسَانِي إِلَيْهِ ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْ جَمَاعَتِكُمْ مَا يُوَازِي مَا تَقَدَّمَ
 عَلَيْهِ^(٥) . فِي حَسَنِ الدِّفَاعِ عَنِّي .

(١) هذا : أى الجمجم .

(٢) أخذه : الأخذع : شعبة من الوريد في جانب المنق .

(٣) مجمعتين : المحجمة : وعاء يجمع به . والمراد ملء مجمعتين .

(٤) ارتبطتكم : عيئتكم وخصصتكم بخدمتي .

(٥) عليه : أى على كل رجل منكم .

فتسرع الناس إلى جبريل ، فأعطوه الضياع والدور والأموال ،
وما برح حتى كان أيسر من في المملكة ، وتربت النعمة لديه وولده
حتى وازت نعم الخلفاء .

*
* *

وحدثني عمرو بن محمد بن عمرو بن عثمان عن أبيه عن جدّه قال :
كان لي مجلس في ديوان الإنشاء قليل الحدوى على ، وحالي
حال لا تنهض بما يحتاج إليه المقتصد ، وقد لزمته يمين لا كفارة
لها في ترك النبيذ ^(١) .

فكان جماعة الكُتاب يجلسون ما جلس الوزير ، وهو يومئذ الفضل
ابن الربيع ، فاذا أنصرف إلى منزله أنصرفوا إلى ما عقدوا عليه أمرهم
من الاجتماع ، وأقيم وحدي في الديوان إلى أن يغلق . فبكرت إليه
في يوم من الأيام ، وجاءت مطرة تطرب الوزير فيها إلى الشرب ،
لتشاغل الرشيد في دعوة لزبيدة ، فلم يبق في ديوان الإنشاء غيري .
فإني بلحس حتى دخل إلى خادم من خاصة الرشيد فأخذ بيدي
وأدخلني إلى الرشيد . فلها مثلت بين يديه ، قال : اقرأ هذا الكتاب .

(١) في ترك النبيذ : حلف على ترك النبيذ .

فقرأته فبينته وأعربته^(١) . فقال : أجب عنه بين يدي . فأجبتُ
عنه بأحسن معانٍ ، وأجود لفظٍ ، فقال : إقرأه عليّ ، فقرأته .
فقال لمسرور الكبير : ألف دينار^(٢) ، بقاء بها . فقال : ادفعها إليه
وقل للفضل يصرف إليه ديوان الإنشاء^(٣) ، فهو أحقُّ به ممن
غادره . ثم قال لي : خذ هذا المالَ وسأنظر لك في الوقت بعد
الوقت ما يزيد في اصطناعي لك . فلا يفسد الغنى ما أصلحته الفاقة
من حسن ملازمتك ، واستزدي . أزدك .

قال عمرو^(٤) فاجتهد الفضلُ بنُ الربيع أن يشرك بيني وبين
من كان يتولَّى الإنشاء فلم يُطلق له الرشيد ذلك . وأفردني به حتى
فرقت الأيام بيننا .

(١) أعربته : وصّخته وأفصحته عنه .

(٢) ألف دينار : أى أعطه ألف دينار .

(٣) يصرف إليه ديوان الإنشاء : يتولى رياسته .

(٤) قال عمرو : أى راوياً خبر جدّه .

(٥) الفضل بن الربيع : هو الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد بعد عهد
البرامكة ووزير الأمين بعد وفاة الرشيد ، وقد عاش في عهد المأمون مهملاً مجفواً
توفى بطوس سنة ٢٠٨ هـ (الأعلام جزء ثان) .

- ٢١٩ -

مكتبة الديتور والدين

خاتمة

قال أبو جعفر . قال بزرجمهر : ” الشدائدُ قبل المواهب تُشبه الجوعَ قبل الطعام : يحسنُ به موقعه ، ويلذُّ معه تناوله ” .

وقال أفلاطون : الشدائدُ تُصلحُ من النفس بمقدار ما تُفسد من العيش ، والتترُّفُ ^(١) يُفسد من النفس بمقدار ما يُصلح من العيش .
وقال : حافظ على كُلِّ صديق أهدته إليك الشدائدُ ، وآله عن كلِّ صديق أهدته إليك النعمة . وقال أيضا : الترفُّ كالليل ، لا تتأملُ فيه ما تُصدره وتتناوله ، والشدَّةُ كالنهار ترى فيها سعيك وسعى غيرك .

وقال أزدشير ^(٢) : الشدَّةُ حُلٌّ ترى به ما لا تراه بالنعمة . وملاك ^(٣) مصلحة الأمر في الشدَّةِ شيثان ، أصغرهما قوَّة قلب صاحبها على ما ينوبه ، وأعظمهما حسنُ تفويضه إلى مالكه ورازقه . وإذا صمدَّ الرجلُ بغيره نحو خالقه علم أنه لم يمتحنه إلا بما يُوجب له مَثُوبَةً ،

(١) التترف : التمتع .

(٢) كان ملكا من ملوك الفرس حازما صائب التفكير كتب لابنه سابور عهدا ليكون له ولمن بعده نبراسا وناموسا لضبط المملكة . ملك فهو أربع عشرة سنة .

(٣) ملاك : ملاك الشيء قوامه الذي يمسك به .

أَوْ يَمْحَصُ^(١) عَنْهُ كَبِيرَةً ، وَهُوَ مَعَ هَذَا مَعَ اللَّهِ فِي أَرْبَاحٍ مُتَّصِلَةٍ ،
وَفَوَائِدَ مُتَّابِعَةٍ .

فَأَمَّا إِذَا أَشْتَدَّ فِكْرُهُ تَلْقَاءَ الْخَلِيقَةِ كَثُرَتْ رِذَائِلُهُ ، وَزَادَ تَصْنَعُهُ
وَبُرِمَ بِمَقَامِهِ فِيمَا قَصَرَ عَنْ تَأْمِيلِهِ ، وَاسْتَطَالَ مِنَ الْخِنِّ مَا عَسَى أَنْ
يَنْقُضِي فِي يَوْمِهِ ، وَخَافَ مِنَ الْمَكْرُوهِ مَا لَعَلَّهُ أَنْ يُخْطِئَهُ .

وَإِنَّمَا تَصَدَّقُ الْمُنَاجَاةُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ رَبِّهِ لَعَلَّهُ بِمَا فِي السَّرَائِرِ ،
وَتَأْيِيدُهُ الْبَصَائِرَ ، وَهِيَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَشْبَاهِهِ كَثِيرَةٌ الْأَذْيَةِ ،
خَارِجَةٌ عَنِ الْمَصْلُحَةِ .

وَلِلَّهِ تَعَالَى رَوْحٌ^(٢) يَأْتِي عِنْدَ الْبَآسِ مِنْهُ^(٣) ، يُصِيبُ بِهِ مِنْ
يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ . وَإِلَيْهِ الرِّغْبَةُ فِي تَقْرِيْبِ الْفَرْجِ ، . وَتَسْهِيلِ الْأَمْرِ
وَالرَّجُوعِ إِلَى أَفْضَلِ مَا تَطَاوَلَ إِلَيْهِ السُّؤْلُ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

*
* *

(١) يَحْصُ عَنْهُ : يَخْلُصُهُ مِمَّا يَشُوبُهُ .

(٢) رَوْحٌ : رَاحَةٌ وَرَحْمَةٌ .

(٣) مِنْهُ : أَيُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَفَرْجِهِ .

- ٢٢١ -

مكتبة الديوان الملكي فهرس الكتاب

صفحة

ج	تقديم
١	خطبة المؤلف

المكافأة على الحسن

٥	قصه خالد القسرى والديوانبان
٨	« ما شاء الله بن مرزوق ومتضمن
١١	« أحمد بن دعيم وأعرابيين
١٥	« موسى بن مصلح ومحبوس
٢٥	« اسماعيل بن اسباط والخناق
٢٥	« مسلمة بن عبد الملك ومجد بن علي أبي الخلفاء
٢٩	« اسحاق بن نصير ووراق
٣٢	« ابن الزنق والقاسم بن شعبة
٣٤	« هارون بن ملول واسحاق بن ابراهيم
٣٧	« المؤلف مع نفر من القيسية
٤١	« المؤلف مع عباسي من ولد المأون
٤٣	« يحيى بن نجة وعمرو بن فرج
٤٨	« يوسف بن ابراهيم ومن كان يحسن اليهم
٥٠	« المؤلف وبعض التجار
٥٣	« أحمد بن بسطام وصاعد
٥٦	« نجاح بن سلمة واسحاق بن تميم
٦٠	« مجد بن يزيد ومسافر
٦٤	« أبي حبيب المقرئ وعبد يرمي الغنم
٦٦	« أحمد بن أبي عصمة وأحمد بن أبي طغان
٦٨	« النصراني المصري والهارب من المتوكل

صفحة	
٧٤	قصة يحيى بن خالد والفضل بن سهل
٧٨	« على المتطبب وبعض ولد أفلاطون
٨٠	« المؤلف ومجد بن سليمان
٨٢	« المؤلف ومجد بن سليمان
٨٤	« علان بن المغيرة وبعض الفقهاء
٨٨	« إحسان يوسف بن إبراهيم على الأشراف والمستورين
٨٩	« موسى بن مصلح وبعض التجار المسجونين
٩١	« التاجر وزوجه
٩٦	« هرمة بن أعين والخليفة الهادي
٩٨	« أبي يوسف والرشد
١٠٠	« أبي يوسف وبذل الجارية
١٠٣	« المنصور وأحد رجال هشام
١٠٤	« أقوال بعض الفلاسفة في حسن المكافأة

المكافأة على القبيح

١٠٦	قصة ملك الهياطة وفيروز ملك الفرس
١١٢	« محمد بن عبد الملك الزيات والمتوكل
١١٤	« وشاية ابن سليمان بأبيه
١١٧	« ابن طولون وبعض غلمان العمري
١١٨	« عامل ظالم وبعض الخوارج
١٢٠	« المصدق الباغى
١٢٢	« ابن عدى والنعمان
١٢٤	« رجل من أشراف المدينة مع أحد رجال الأمويين
١٢٦	« مولى لبني العباس وأحد أصحاب بني أمية
١٢٨	« أحد الأكاسرة وابنه
١٢٨	« خالد بن سهم ومروان الجعدي
١٣١	« أحمد بن طولون وأحمد بن المدبر

صفحة	
١٣٩ قصة أحمد بن المدبر ومتقبل
١٤١	« نمارويه ومحمد بن أبي الساج »
١٤٣	« أحد أفارب ابن يهفرو وعجوز يمانية »
١٤٥	« امرأة هشام بن عبد الملك وزينب بنت سليمان »
١٤٧	« اليون وميخائيل ملكى الروم »
١٥٢	« سيف بن ذى يزن وترجمان كسرى »
١٥٥	« كاتب أبي الوزير وبعض العمال »
١٥٦	« ابن الأبرد وكاتبه »
١٥٧	« عمرو بن العاص وبعض أشرار مصر »
١٥٩	« الدفاني والخناتق »
١٦٠	« تمهيد المؤلف للقمم الثالث من الكتاب »

حسن العقبى

١٦٢ قصة ابن عمر الاخبارى وأحد الشطار
١٦٧	« الفقى الملقى والعباس بن خالد »
١٧٣	« أبى يوسف وابن القاسم الغنوى »
١٧٦	« على بن سند وأبى الجيش ثابت »
١٧٨	« محمد الغنوى ولص »
١٨٠	« مصقلة بن حبيب ومعن بن زائدة »
١٨٢	« أبناء أحمد بن طولون وهارون بن نمارويه »
١٨٤	« التاجر وأحد ملوك الهند »
١٨٧	« الشامى والفضل بن يحيى »
١٩٠	« يوسف بن ابراهيم ومزاحم بن خاقان »
١٩٣	« ابراهيم بن الأجمعى والسندى بن شاهك »
١٩٥	« ابى موسى بن شاكر وسند بن على »
١٩٩	« غزاة أفریطش والشيخ الصالح »
٢٠١	« مهمل بن شنيف وأحمد بن بسطام »

صفحة

٢٠٣	...	قصة المؤلف وابن بسطام
٢٠٥	...	« أم آسيا القابلة واتصالها بقصر نهارويه
٢١١	...	« سند بن علي وابن سعيد الجوهري
٢١٥	...	« جبريل بن بختيشوع والرشيدي
٢١٧	...	« عمرو بن عثمان الكاتب والرشيدي
٢١٩	...	خاتمة الكتاب

مكتبة الدكتور وزير الوطن

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببغداد
في يوم ٢٤ ذي الحجة من سنة ١٣٥٩
(٢٢ من يناير سنة ١٩٤١) م

مدير المطبعة الأميرية

أحمد هادي هادي

